

بسم الله الرحمن الرحيم



تأليف

الدكتور عوض خليفات

1982م

هدية من

www.ibadhiyah.net

www.istiqama.net

بسم الله الرحمن الرحيم

نصدير

لقد استرعى انتباهي مذ كنت طالبا في السنة الجامعية الأولى موضوع الفرق الإسلامية، تاريخا وعقيدة. ومع توالي الأيام والسنين أدركت خطورة الدور الذي لعبته هذه الأحزاب والفرق في لتاريخ الإسلامي، ابتداء من الفتنة في عهد الخليفة عثمان وحتى يومنا هذا.

وقد حاولت في هذا الكتاب أن ألقى الضوء على بعض الجوانب الخاصة بإحدى هذه الفرق، وهي الفرقة الإباضية التي نجحت في تكوين دول خاصة بها كان لها دور هام في التاريخ الإسلامي، واخترت فترة التكوين والتأسيس في البصرة، وهي الفترة المعروفة عند الإباضية باسم طور الكتمان، وذلك لان هذه الحقبة من تاريخ الإباضية لم تحض بدراسات عميقة، ولم يصدر فيما أعرف أي بحث متخصص في هذا الموضوع، وقد انبريت لهذا العمل يحدوني الأمل بأن أودي واجبا نحو جانب هام من تراث أمتنا المجيد، واضعا نصب عيني أن تاريخنا كله ملك لنا، ويجب أن لا نغض الطرف عن أي جزء أو فترة منه، فما هو جيد يجب أن لنا مثلا طيبا وقدوة حسنة، وما هو سيئ يجب أن يكون درسا مفيد وعبرة واعظة.

وسيرى القارئ أنني انطلقت في دراسة الموضوع بروح علمية مجردة خالية من الهوى والتعصب، وأثبت ما توصلت إليه نتيجة الدرس والاستقصاء والمقارنة والتحليل، وأفدت من الكتب والمؤلفات الإباضية على اختلافها وتنوعها، وعلى الرغم من ذلك فلا أجزم أن الزلل والخطأ قد فارقاني في كل رأي قلته أو نتيجة توصلت إليها رغم اجتهادي في تجنبهما ما استطعت، ولكنني على يقين من أن هذه الدراسة ستثير اهتمام الباحثين في التاريخ الإسلامي، أملا منهم أن ينبهوني إلى مواطن الزلل والخطأ، ويدلوني على الطريق الصحيح إن كنت قد أخطأت السبيل.

عمان

كانون 1978

المؤلف عوض خليفات

ثبت المحتويات

ص	الموضوع
	الباب الأول: - الفصل الأول: دراسة المصادر - الفصل الثاني: الدراسات الحديثة، عرض وتحليل
	الباب الثاني: - الفصل الأول: تطور الخلافة وأثرها في ظهور الخوارج - الفصل الثاني: تفسير الإباضية لنشأة الخوارج (مستمداً من المصادر الإباضية)
	الباب الثالث: ظهور الخوارج المعتدلين – القعدة
	الباب الرابع: عبدالله بن إياض وتطور الحركة الإباضية
	الباب الخامس: جابر بن زيد الأزدي مؤسس الحركة
	الباب السادس: أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي – منظم الحركة
	الباب السابع: انتصار الدعوة - الفصل الأول: تأسيس الإمامة في الجزيرة العربية – اليمن وحضرموت - الفصل الثاني: تأسيس الإمامة في الجزيرة العربية – عمان - الفصل الثالث: تأسيس الإمامة في شمال أفريقية وقيام الدولة الرستمية
	الخلاصة
	الملاحق
	المصادر والمراجع

الباب الأول

المصادر والدراسات الحديثة - عرض وتحليل

الفصل الأول - المصادر

الفصل الثاني - الدراسات الحديثة

الفصل الأول

المصادر - عرض وتحليل

لم تحظ الحركة الإباضية في طورها الأول باهتمام المؤرخين والمفكرين المحدثين وذلك لندرة المعلومات الواردة في المصادر المنشورة أو المخطوطات المعروفة- باستثناء الإباضية- ويبدو أن عدم وجود معلومات في المصادر غير الإباضية عن نشأة الحركة وتنظيمها في طورها السري خلال القرنين الأول والثاني الهجريين إنما يعود لجهل مؤلفي هذا المصادر بهذا الموضوع, وليس عجيباً أن نرى مثل هذا النقص لدى غير الإباضية من المؤلفين القدامى, نظراً للسرية التامة والتقية الدينية التي تبناها رواد الحركة وزعمائها الأوائل مثل جابر بن زيد الأزدي وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي ومن عاصرهما من أئمة الإباضية ومشايخها, والعلل القاري يتساءل: لماذا وصلتنا معلومات كثيرة عن فرق ودعوات سرية أخرى استعملت التقية وغالت في ذلك إلى حد كبير مثل غلاة الشيعة والإسماعيلية والدعوة العباسية أيضاً, ولم تصلنا هذه المعلومات عن الفرقة الإباضية؟ من المرجح أن السبب يعود إلى أن هذه الفرق قد كتبت عن نشأتها ونظمها وتطورها ووصلت إلينا هذه الآثار فعرّفنا الكثير من المعلومات عنها, أما الفرقة الإباضية فلم يعط مؤرخوها اهتماماً كبيراً لتاريخ الحركة السياسي في فترة الكتمان وكل ما يمكن لباحث أن يفعله هو جمع روايات مبعثرة في ثنايا الكتب الإباضية التي تتكلم عن الفقه والعقيدة الإباضية أو في كتب الطبقات والسير الإباضية التي تتحدث عن أبرز أئمة الحركة ورجالها, ولكننا لا نعثر قط على مؤلف إباضي ألف تاريخاً للحركة في طورها الأول, ليس هذا فحسب بل إن المصادر الإباضية تعطي معلومات أقل تفصيلاً وأكثر نقصاً وأخطاء من المصادر السنية عن الثورات الإباضية قبل تأسيس الإمامة والدول الإباضية, ولعل مرد ذلك يعود إلى اهتمام المصادر الإباضية في المقام الأول بالعقائد الإباضية ومحاولة حفظها وتوريثها لاتباع الحركة جيلاً بعد جيل, أما الحركات السياسية والنزاع العسكري بين الإباضية ومخالفهم فلم تتل من المؤرخين الإباضيين اهتماماً ألا بعد تأسيس دولهم الخاصة بهم في شمال أفريقية وفي عمان.

ولا عطاء صورة واضحة عن أهمية المعلومات الواردة في المصادر المختلفة فقد ارتأينا أن نصنف مصادر تاريخ الحركة الإباضية- منذ نشأتها حتى تأسيس الإمامة- إلى مصادر سنية وشيعية وإباضية.

1- المصادر السنية:

من أهم المصادر السنية التي تزودنا بمعلومات عن التاريخ السياسي للحركة الإباضية في القرن الثاني الهجري كتاب أنساب الأشراف للبلاذري, الذي يعد بلا شك أوفى المصادر وأدقها

فيما يتعلق بالثورات الإباضية التي تزعمها عبدالله بن يحيى طالب الحق، وقائده أبو حمزة الشاري في حضرموت واليمن والحجاز ضد مروان الثاني، آخر خلفاء بني أمية، والحقيقة أن البلاذري يزودنا بمعلومات مفصلة وافية ودقيقة حول هذا الموضوع حتى ليحس القارئ أنه ينتبج الحوادث ساعة بساعة.

ومقارنة معلوماته عن ثورة «طالب الحق» بالمعلومات الواردة في المصادر الإباضية حول الموضوع نفسه تظهر بوضوح تفوقه وامتيازه، ويروي البلاذري معلوماته في هذا الصدد عن المدائني وأحياناً بإسناد جمعي، ويزودنا خلال حديثه عن هذه الثورة بخطب أبي حمزة الشاري في مكة والمدينة والتي تلقى ضوءاً ساطعاً على أفكار الإباضية ومبادئهم في تلك الفترة⁽¹⁾.

وفي كتاب فتوح البلدان، يزودنا البلاذري بمعلومات متناثرة حول تاريخ الإباضية في المشرق والمغرب وقد أشرنا إليها في ثنايا البحث، أما عن تنظيم الحركة السري في البصرة فأن البلاذري لا يمتاز على غيره من المصادر السنية ولا يزودنا بأية معلومات حول هذا الموضوع، ولعل عدم توفر المعلومات لديه كان السبب الرئيسي في إحصائه عن الحديث في هذه المسألة.

ومن المصادر التي تعطي معلومات عن ثورة الإباضية في حضرموت واليمن تاريخ «خليفة بن خياط» الذي يورد معلوماته نقلاً عن «إسماعيل بن اسحق» الذي نقل بدوره عن «الزنجي بن خالد» الذي كان معاصراً للحوادث⁽²⁾ وفي بعض الأحيان يأخذ خليفة عن «المدائني»، وعلى الرغم من ذلك فإن الروايات التي أوردها «خليفة» عن ثورة «طالب الحق» مضطربة ولا تكفي وحدها لإعطاء صورة واضحة عن الثورة وطبيعتها، بالإضافة إلى ذلك فإن «خليفة» يخطئ في إيراد أسماء بعض القادة والمشايخ الإباضية الذين اشتركوا في الثورة، ويعطي أرقاماً عالية جداً لعدد الجيش الإباضي، ومن جهة أخرى فإنه يزودنا بمقتطفات من خطب «أبي حمزة الشاري» في الحجاز ويورد قائمة بأسماء الشخصيات الحجازية والقرشية البارزة التي قتلت أثناء المعارك بين الجيش الأموي والإباضية مما يلقي ضوءاً على طبيعة العناصر التي اشتركت في الثورة وعلى معارضة قريش لها ولما نادى به من مبادئ وأهداف.

ويورد «خليفة بن خياط» بعض المعلومات عن ثورات الإباضية في شمال أفريقيا ولكنها مقتضبة جداً ومضطربة.

ومن المصادر التي تحدثت عن ثورات الإباضية في الحجاز واليمن تاريخ الرسل والملوك «للطبري» الذي اعتمد على روايات منقولة عن «موسى بن كثير» مولى الساعديين، ولكن هذه المعلومات ناقصة ومختصرة بالمقارنة مع المادة الغزيرة التي يوردها «البلاذري» في أنساب الأشراف.

أما «الأزدي» صاحب كتاب تاريخ الموصل فيعطي معلومات مختصرة عن ثورة «طالب الحق»، وتكمن قيمة معلوماته في أنه يشير إلى اشتراك بعض الإباضية من الموصل في الثورة مما يدل على انتشار الأفكار الإباضية هناك في فترة مبكرة.

أما عن ثورات الإباضية ونشاطهم في بلاد المغرب خلال القرنين الأول والثاني الهجريين فالمعلومات عنها متوافرة في المصادر السنية، ومن أشهر هذه المصادر وأهمها كتاب تاريخ أفريقية والمغرب المنسوب «للرقيق القيرواني» (ت 417هـ/1026م)، كان «الرقيق» رئيساً

(1) البلاذري، أنساب، مخطوط، ج2، ص373، وما بعدها.

(2) خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص585.

لديوان الرسائل في الدولة الصنهاجية وبقي في منصبه نحو عشرين عاما، وكتب مؤلفات عديدة حول مواضيع مختلفة⁽¹⁾، وقد تناول في أحد هذه الكتب تاريخ أفريقية والمغرب منذ الفتح الإسلامي حتى بداية القرن الخامس الهجري⁽²⁾، أما القطعة التي وصلت إلينا والتي حققها «المنجي الكعبي» وعنوانها تاريخ أفريقية والمغرب، فهي تتحدث عن تاريخ المغرب الإسلامي منذ ولاية «عقبة بن نافع الفهري» حتى حكم الأمير الأغلبي «أبو العباس عبدالله بن إبراهيم بن الأغلب» (ت 201هـ / 817م)، ويزودنا «الرقيق» بمعلومات دقيقة ومفصلة حول ثورات الإباضية ضد ولاية الأمويين والعباسيين ويأخذ الرقيق معلوماته في بعض الأحيان عن أشخاص عاصروا الأحداث واشتركوا فيها مثل «عمر بن غانم» الذي كان يسكن مدينة القيروان، وتقلد بعض المناصب الرسمية إبان ولاية «حنظلة بن صفوان الكلبي»، كما تولى منصب الحجابة «لعبد الرحمن بن حبيب الفهري» الذي تقلد ولاية أفريقية بعد طرده «لحنظلة ابن صفوان»⁽³⁾، وفي أحيان أخرى يأخذ معلوماته عن «عبدالله بن أبي حسان اليحصبي» الذي يروي عن والده⁽⁴⁾، وكان معاصرا للحوادث التي جرت في أفريقية خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وهي الفترة التي شهدت ثورات الإباضية ضد الحكم الأموي والعباسي هناك، ويقتبس «الرقيق» عم مؤلفين مشهورين آخرين مثل «المدائني» «والزبير بن بكار» «وعمر بن سلام» «وأبي عثمان المعافري» غيرهم⁽⁵⁾.

وفي الحقيقة، فإن روايات «الرقيق» تعد أوفى ما وصل إلينا عن تاريخ أفريقية والمغرب السياسي بشكل عام وثورات الخوارج الصفرية والإباضية هناك بشكل خاص، إلا أن القطعة التي وصلتنا يعثرها بعض النقص أحيانا⁽⁶⁾، كما أن الرقيق كغيره من مؤرخي السنة (باستثناء ابن الصغير)، يجهل التنظيم السري للحركة الإباضية ولا يزودنا في كتابه هذا بأية معلومات في هذا الشأن ولا يشير إلى كيفية ورود المذهب إلى شمال أفريقية وانتشاره بين سكانه وخاصة البربر منهم.

ومن المصادر الهامة عن تاريخ الإباضية في شمال أفريقية كتاب تاريخ الأئمة الرستميين «لابن صغير المالكي»، ونحن لا نعرف عن مولد ابن الصغير ونشأته شيئا ذا قيمة، سوى أنه كان يسكن مدينة «تاهرت» عاصمة الدولة الرستمية الإباضية التي أسسها «عبد الرحمن بن رستم» عام 162هـ بعد كفاح مرير⁽⁷⁾.

وقد عاصر هذا المؤلف فترة من تاريخ تلك الدولة، ويبدو أنه توفي قبل سقوطها عام 297هـ على أيدي الفاطميين، والدليل على ذلك أن كتابه ينتهي بإمامة «أبي حاتم يوسف بن محمد» المتوفى عام 294هـ، عاش «ابن الصغير» فيحي الرهادنة في تاهرت حيث كان يملك دكانا فيه⁽⁸⁾، واتخذ من ذلك الحي مكانا لدروسه ومناظراته مع الإباضية واتباع الفرق والمدارس الإسلامية الأخرى كالمعتزلة، ويعتبر كتاب «ابن الصغير» أقدم مؤلف كامل وصل إلينا عن تاريخ الإباضية في شمال أفريقية وخاصة تاريخ الدولة الرستمية، وقد اعتمد في معلوماته على

(1) أنظر: المنجي الكعبي، مقدمة كتاب تاريخ أفريقية والمغرب، ص22-23.

(2) المصدر نفسه، ص22.

(3) الرقيق، ص124-125.

(4) المصدر نفسه، ص107.

(5) المصدر نفسه، ص150، 156، 165.

(6) أنظر مثلا ص142.

(7) أنظر: الباب السابع، الفصل الثالث.

(8) ابن الصغير، ص46.

رواة من الإباضية نقلوا إليه معلوماتهم التي ورثوها عن أسلافهم ممن عاصروا الحوادث أو اشتركوا فيها، وقد تحدث ابن الصغير بإسهاب عن تأسيس مدينة تاهرت وتاريخ الأئمة الرستميين، كما تكلم عن انقسام الحركة الإباضية في شمال أفريقية إلى فرق مختلفة، وتعد معلوماته حول هذه المواضيع أقدم وأفضل ما وصل إلينا، ولا يذكر أسماء رواة إلا نادراً، وممن ذكرهم شخص يدعى «أحمد بن يشير» وهو إباضي عاش في تاهرت⁽¹⁾، وقد نقل بعض معلوماته عن كتاب وقع في يده من تأليف الإمام الرستمي «عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم» (ت 208هـ/824م) أجاب فيه على مسائل أشكلت على إباضية جبل نفوسة، وقد سمي الكتاب فيما بعد مسائل نفوسة الجبل، وكان الإباضية يتوارثونه ويدرسونه بعمق وروية، وقد حصل عليه «ابن الصغير» من أحد أفراد العائلة الرستمية واستفاد منه، وبذلك يقول ابن الصغير: «...وكان هذا الكتاب في أيدي الإباضية مشهوراً عندهم معلوماً يتداولونه... فأخذته عن بعض الرستميين فدرسته ووقفت عليه»⁽²⁾.

كان «ابن الصغير» سنياً مالئياً على الرغم من أن عواطفه مع علي بن أبي طالب لا تخفى على من يقرأ كتابه⁽³⁾، ألا أن هذه العاطفة لم تجعل منه شيعياً كما يرى المستشرق البولندي ليفتسكي Lewicki⁽⁴⁾، وأياً كان اتجاهه ومهما كان شعوره نحو أية شخصية إسلامية مرموقة فالثبات من كتابه أنه كان مؤرخاً نزيهاً يتحرى الحق ويقول ويبيد تقديره ويفصح عن إعجابه بالأئمة العادلين من الرستميين رغم عدم قناعاته بالمذهب الذي ينتمون إليه، وقد شرح ابن الصغير أسلوبه ومنهجه في العبارة التالية: «...وكانت لهم (الإباضية) قصص حكوها لا يمكن ذكرها إلا على وجه، وإن تم الصدق فيها ولا أحرفها على معانيها ولا أزيد فيها ولا أنقص منها إذا النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوي المروءات، ولا من أخلاق ذوي الديانات، وإن كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ولمذاهبهم مستقلين، فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما تصل بنا وعدلهم فيم ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم لما نعلمه من براءتهم ممن والاه رسول الله ﷺ وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»⁽⁵⁾، وقد تقييد ابن لصغير بهذا المنهج الذي اختطه لنفسه، واعترف بفضل علمه ومؤرخو الإباضية أنفسهم واعتبروه مصدراً أساسياً لمعلوماتهم عن الدولة الرستمية، وممن فعل ذلك المؤرخ الإباضي المعروف «أحمد بن سعيد الشماخي»⁽⁶⁾.

أما ما يخص موضوع بحثنا فإن ابن الصغير يعطي معلومات جيدة حول العلاقة بين التنظيم الإباضي في البصرة وبين أتباعه في شمال أفريقية، ويتحدث عن المراسلات السرية والمعونات المادية التي كان يرسلها إباضية البصرة لإخوانهم في شمال أفريقية⁽⁷⁾.

وثمة مصدر سني آخر هام يزودنا بمعلومات جيدة عن حركات الإباضية وثوراتهم ودولهم في بلاد المغرب وهو كتاب البيان المغرب لابن عذارى، ويعتبر هذا الكتاب أهم مصدر وصل إلينا عن تاريخ بلاد المغرب بشكل عام، وقد نقل ابن عذارى عن كثير ممن سبقه من

(1) المصدر نفسه، ص44-45.

(2) المصدر نفسه، ص17.

(3) أنظر مثلاً ص10، من كتابه حيث يعيب على الإباضية براءتهم من علي بن أبي طالب ولكنه لم يتطرق إطلاقاً لبراءتهم من عثمان وطلحة والزبير وغيرهم من الصحابة.

(4) T. Lewicki, "les historiens, biographes et traditionnists ibadites wahbites de L'Afrique de Nord Ville au xvi" siecle", Folia Orientalia, vol. 3 (195 –2) pp. 105 –6.

(5) ابن الصغير، ص10.

(6) شماخي، سير، أنظر مثلاً ص221، 223، 262، 263.

(7) ابن الصغير، ص10-12.

المؤلفين المشاركة والمغاربة وان كان اعتماده على المصادر المغربية اكثر, وقد أشار إلى بعض مصادره في الجزء الأول من كتابه⁽¹⁾, كما اقتبس من مؤلفين آخرين يشير إليهم في ثنايا كتابه, أما عن ثورات الإباضية في القرن الثاني الهجري فيبدو اعتماده على الرقيق القيرواني واضحاً, وأحياناً نجده يكرر روايات الرقيق حرفياً, ويمتاز ابن عذارى انه زودنا بالمعلومات الناقصة الموجودة في الأوراق المفقودة من كتاب الرقيق الذي أشرنا إليه سابقاً, ويعطي ابن عذارى تواريخ دقيقة للحوادث التي يتكلم عنها. ولذا فإن ابن عذارى يعد من أفضل مصادرنا عن حركات الخوارج بشكل عام والإباضية علو وجه الخصوص خلال الفترة الأولى من تاريخ حركتهم في شمال أفريقيا.

أما النويري صاحب كتاب نهاية الإرب فقد أفرد الجزء الثاني والعشرين من مؤلفه الضخم للحديث عن تاريخ المغرب والأندلس, وقد طبع هذا الجزء في غرناطة عام 1917م. ويورد المؤلف في هذا السفر معلومات قيمة عن ثورات الإباضية ومحاولاتهم المستمرة لتأسيس الإمامة الإباضية في بلاد المغرب خلال القرن الثاني الهجري.

ويزودنا ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ بمعلومات مماثلة, ويبدو أن كلا المؤلفين (النويري وابن الأثير) قد استفاد من كتاب الرقيق القيرواني, ومقارنة المعلومات الواردة فيهما بما ورد في كتاب الرقيق تظهر تشابهاً في كثير من الروايات وربما اعتمد المؤلفان أيضاً على مصادر أخرى أقدم مثل محمد بن يوسف الوراق (ت 363هـ) الذي يعتبر أفضل من كتب عن تاريخ أفريقية والمغرب إلا إن كتبه ضاعت ولم يصلنا منها إلا شذرات مبعثرة في صفحات الكتب المتأخرة.

ومن المؤلفات الهامة التي تعطي معلومات قيمة عن إباضية شمال أفريقية كتاب المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب, للجغرافي المعروف البكري (ت 487هـ) وهو من أفضل الكتب التي تزود القارئ بمعلومات جيدة عن علاقة إباضية المغرب ببلاد السودان وأفريقية السوداء, ويحوي كتابه فقرات تاريخية هامة تكشف عن بعض الحقائق حول تسرب الحركتين الإباضية والصفيرية إلى شمال أفريقية, وهو المصدر الوحيد من بين لمصادر المتوفرة - سنية وشيعية وإباضية - الذي يذكر أن سلمه بن سعد الحضرمي, أول داعية إباضي إلى شمال أفريقية, قد وصل القيرواني قبل عام 104هـ, وهذا يلقي ضوءاً على تاريخ تسرب الحركة إلى تلك المنطقة⁽²⁾.

ولا يستطيع باحث في تاريخ أفريقية والمغرب الاستغناء عن تاريخ ابن خلدون⁽³⁾, الذي يزودنا بمعلومات قيمة عن تاريخ الإباضية في شمال أفريقية, إلا انه يخطئ كثيراً في التواريخ ويمتاز بعدم الدقة في ضبط الأسماء البارزة التي اشتركت في الحوادث, كما انه غالباً ما يخلط بين الإباضية والصفيرية, ويجب أن تؤخذ معلوماته بحذر شديد, وعلى الرغم من ذلك فإنه يمدنا بمعلومات فريدة لا جدها في المصادر الأخرى حول مواطن القبائل البربرية وانتمائها ومعتقداتها معتمداً في ذلك على رواة من البربر, وتقيد هذه المعلومات في معرفة مناطق انتشار المذهب الإباضي وأسباب انتشاره فيها ومدى علاقة الهوية القبلية في تحديد المذهب الديني, وتقيد هذه المعلومات أيضاً في معرفة أثر العصبية القبلية بين البربر في انتشار هذا المذهب أو ذلك بين أفراد قبيلة معينة.

(1) ابن عذارى, ج1, ص2-3.

(2) البكري, ص284.

(3) يصنفه محمد إسماعيل عبدالرزاق ضمن مؤلفي الشيعة, أنظر محمد إسماعيل عبدالرزاق, الخوارج في بلاد المغرب, ص14.

ومن المصادر السننية الأخرى التي تمدنا بمعلومات مفيدة عن تسرب الحركة الإباضية إلى شمال أفريقية كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم الذي يزودنا ببعض الروايات الفريدة في هذا الصدد وقد أشرنا إليها في الصفحات المعينة من هذا البحث، وكذلك كتاب رياض النفوس للمالكي وكتاب أخبار مجموعة لمؤلف مجهول وغيرها من المؤلفات الأخرى التي أخذنا منها بعد تمحيص وتدقيق والتي سيلحظها القارئ في ثنايا البحث.

وقد رجعنا أيضا إلى كتب التراجم والتراجم، المشرقية منها والمغربية، وأخذنا منها في حديثنا عن نشأة الحركة الإباضية وخاصة عن جابر بن زيد الأزدي الذي يعتبره الإباضية مؤسسا لمذهبهم بينما يعتبره السنة من الفقهاء والمحدثين البارزين الثقة.

أما كتب المقالات والملل والنحل فتتحدث - كما هو معروف - عن الفرق الإسلامية المختلفة وتعرض للحديث عن الديانات الأخرى غير الإسلامية، ويجب أن نستخدم هذه المؤلفات بحذر شديد لأن أصحابها تنقصهم الموضوعية ويعوزهم الحياد عندما يتكلمون عن فرق مخالفة لمعتقداتهم، ولا تزودنا هذه الكتب بمعلومات قيمة عن نشأة الحركة الإباضية وتنظيماتها السرية، وما أوردته هذه المصادر من معلومات لا تمت في معظمها للإباضية ولا علاقة لهم بها، وإذا استثنينا عبدالله بن أباض فإن كتب المقالات لا تورد أية معلومات عن أئمة الإباضية ومشايخها مثل جابر بن زيد الأزدي، وأبي عبيدة بن مسلم بن أبي كريمة التميمي، والربيع بن حبيب وغيرهم، ولعل السبب في ذلك يعود إلى جهل مؤلفي هذه الكتب بدور هؤلاء الأعلام البارزين في الفرقة الإباضية، وحى عبدالله بن أباض فإن المعلومات عنه مشوشة ومضطربة ولا يمكن الركون إليها⁽¹⁾.

وإذا قارن المرء بين ما ورد من معلومات في هذه الكتب وبين ما ورد في المصادر الإباضية سواء كانت تاريخية أم كتب فقه وعقائد يلاحظ أن هؤلاء المؤلفين قد نسبوا إلى الإباضية آراء ومعتقدات غريبة لا يقر بها اتباع هذه الفرقة، كما انهم تكلموا عن فرق إباضية لا نجد لها ذكرا على الإطلاق في المصادر الإباضية، على اختلافها وتنوعها، مثل الفرقة اليزيدية التي ينسبها أبو الحسن الأشعري إلى يزيد بن أنيسة، والحقيقة أن آراء اليزيدية كما أوردها الأشعري بعيدة جدا عن مبادئ الإباضية بل هي خارجة عن المبادئ الإسلامية⁽²⁾.

ويبدو من المعلومات التي هذه المصادر أن مؤلفيها كانوا يجهلون تماما نشأة الحركة وتطورها، وما أشاروا إليه من آراء منسوبة لهذه الفرقة لا يعتبر ذا أهمية وخاصة إذا تذكرنا أن هذه المعلومات مشوهة ومتحيزة وتفتقر إلى الدقة والمعرفة العميقة، ويمكن القول: إن هذه الكتب قد أصابت الإباضية بكثير من الأذى والتشنيع قد لا يكون مقصودا في بعض الأحيان ولكنه موجود، وقد أدت هذه الكتابات إلى ازدياد الفجوة بين الإباضية واتباع المذاهب الإسلامية الأخرى، ولا يصح الاعتماد عليها لتكوين فكرة صحيحة عن نشأة الحركة وتطورها وعن فهم آرائها ومبادئها، وقد أدرك أحد مؤلفي هذه الكتب وهو أبو الحسن الأشعري عدم دقة المعلومات الواردة في هذه المصادر وصدق حينما قال: «... ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنفون في النحل والديانات، من بين مقصر فيما يحكيه، وغالط فيما يذكره من قول مخالفه، ومن بين معتمد للكذب في الحكاية إرادة التشنيع على من يخالفه، ومن بين تارك للنقصي لروايته فيما يرويه، من اختلاف المختلفين، من بين يضيف إلى قول مخالفه ما يضمن أن الحجة تلزمهم

(1) أنظر الباب الرابع.

(2) الأشعري، ص 170-171.

به»⁽¹⁾، رغم هذا القول فإن الأشعري نفسه قد وقع في نفس الأخطاء التي ذكرها كما فعل غيره ممن تصدى للكتابة عن لفرق الإسلامية، ومن هنا فإن الاعتماد على هذه المؤلفات حول نشأة الإباضية لا يضيف إلى الصورة إلا تشويهاً ولا يزيد الأمر إلا تعقيداً.

2- المصادر الشيعية:

إن المصادر الشيعية التي تورد معلومات عن موضوع بحثنا قليلة وليس فيها ما يتعرض للحديث عن البدايات الأولى لقيام الحركة ونشأتها في البصرة في القرنين الأول والثاني الهجريين، ويعتبر كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني من أهم هذه المؤلفات، إذ أنه يمدنا بمعلومات وافية ومفصلة عن ثورة طالب الحق في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية والحجاز، وينقل معلوماته عن رواة متقدمين وعلى رأسهم المدائني، ويبدو من مقارنة المعلومات التي يوردها مع تلك التي حفظها لنا البلاذري في أنسابه أن هناك تشابهاً كبيراً بين المصدرين، ولا عجب في ذلك إذ أن البلاذري ينقل معلوماته- كما ذكرنا سابقاً- عن المدائني⁽²⁾.

ويعطي اليعقوبي في تاريخه رواية مختصرة- بدون سند- عن ثورة طالب الحق في اليمن وحضرموت وامتدادها إلى الحجاز⁽³⁾، ويزودنا في كتابه البلدان بمعلومات جيدة عن دول الإباضية المختلفة في المشرق والمغرب وعلاقات كل دولة مع جيرانها، وتكمن قيمة معلوماته في أنه زار المناطق التي تكلم عنها وأخذ مادته من الرجال الثقة الذين التقى بهم في تلك المناطق، وقد عبر اليعقوبي عن مهجه هذا بقوله: «...وقد اتصلت أسفاري ودام تغربي، فكت متى لقيت رجلاً من تلك البلدان سألته عن وطنه ومصره وبلده وساكنيه ودياناتهم ومقالاتهم ثم أثبت ما يخبرني به من أثق بصدقه»⁽⁴⁾.

وقد أورد ابن حوقل معلومات جيدة عن مدينة تاهرت، عاصمة الرستميين، وعلاقتها ببلاد السودان، وتلقي معلوماته في هذا الشأن بعض الضوء على الحركة التجارية بين بلاد المغرب وأفريقية السوداء أو ما تسميه المصادر بلاد السودان.

ومن المصادر الشيعية الهامة التي تعطي معلومات مستفيضة عن بعض الفرق الإباضية في شمال أفريقية كتاب أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لمؤلفه أبي عبد الله محمد بن علي بن حماد (ت 628هـ) الذي يعتبر بحق مصدراً جيداً عن فرقة النكار الإباضية وزعيمها أبي زيد مخلد بن كيداد⁽⁵⁾، ويبدو من مقارنة معلوماته بالمصادر السنية والإباضية نزاهته وعدم تحيزه فيما يتعلق بهذا الموضوع.

وعلى الرغم من أنه لا يذكر مصادره فمن المحتمل أنه أخذ رواياته في هذا الشأن عن مؤلفين قدامى ليسوا شيعية، ويرى فاندر هيدن أن ابن حماد قد اعتمد في معلوماته، عن ثورة أبي يزيد، على الرقيق القيرواني.

3- المصادر الإباضية:

على النقيض من الفرق الخارجية المتطرفة فقد خلف الإباضية تراثاً ضخماً في التاريخ والسير والعقائد، ولكن القسم الأعظم لا يزال مخطوطاً في دور كتب خاصة يملكها أتباع الفرقة

(1) المصدر نفسه، ص33.

(2) أنظر البلاذري، أنساب، ج2، ص373 وما بعدها، أبو الفرج، الأغاني، ج20، ص97، وما بعدها.

(3) اليعقوبي، تاريخ، ج2، ص406.

(4) اليعقوبي، بلدان، ص358.

(5) نشر الكتاب المستشرق فاندر هيدن M. Voderheyden عام 1927م.

في عمان وزنجبار وشمال أفريقية ومن الصعب لوصول إليها، وهناك مجموعات لا بأس بها محفوظة في المتاحف ودور الكتب المعروفة مثل مكتبة المتحف البريطاني (المكتبة البريطانية حالياً) وار الكتب المصرية، وقد استفدنا من هذه المخطوطات كما استطعنا الاطلاع على مخطوطات أخرى يملكها بعض الأفراد في شمال أفريقية وعمان، ومن أهم هذه المصادر التي اعتمدنا عليها في بحثنا:

كتاب السيرة وأخبار الأئمة، لأبي زكريا يحيى بن أبي بكر الوارجلاني المتوفى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ولا يزال الكتاب مخطوطاً وتوج منه نسخة في دار الكتب المصرية ونسخة أخرى في المتحف الوطني البولوني ولكن مخطوطة دار الكتب أقدم تاريخاً وأكمل، ولعل هناك نسخاً أخرى في المكتبات الخاصة الإباضية في شمال أفريقية وعمان، وقد ترجمت المخطوطة إلى الفرنسية مرتين⁽¹⁾.

عاش أبو زكريا في وارجلان بعد سقوط الإمامة الرستمية على يد الفاطميين 297 هـ، ومن المحتمل أنه عاصر آخر أيامها، وقد أسهب في كتابه عن تاريخ الدولة الرستمية، ويبدو أن المؤلف قد وضع كتابه أصلاً لهذا الغرض ويعتبر هذا المصدر من أقدم كتب السير الإباضية التي وصلتنا من شمال أفريقية، وقد اعتمد عليها كثيراً من المؤلفين الإباضيين المتأخرين مثل الوسياني والدرجيني الشماخي وغيرهم، ويبدو أبو زكريا متعصباً لبض القوميات وخاصة الفارسية التي تنسب إليها الأسرة الرستمية.

وقد أورد كثيراً من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول الكريم ﷺ تمجد الفرس وتشيد بدورهم في نصرته الإسلام والمسلمين⁽²⁾، أما معومات المؤلف حول الفترة الأولى من تاريخ الحركة الإباضية في البصرة فهي نادرة، ولكنه يمدنا بمادة يسيرة عن علاقة التنظيم الإباضي في البصرة بالدعاة في شمال أفريقية⁽³⁾، ويبدو أن رواياته مأخوذة عن مصادر قديمة قد يكون أصحابها معاصرين للحوادث، إلا أنه يكثر من أراد الأساطير والكرامات المنسوبة إلى الأئمة والمشايخ الإباضية في المشرق والمغرب، وعلى الرغم من هذه الهنات فإن سيرة أبي زكريا تعتبر، بدون شك، مصدراً أساسياً هاماً عن تاريخ الحركة الإباضية في بلاد المغرب منذ بداية تسربها إلى تلك المنطقة حتى سقوط الدولة الرستمية، كما أنه يعطي معلومات جيدة عن علاقة الإباضية بالفاطميين بعد عام 297 هـ وهو العام الذي استولى فيه الفاطميون على مدينة تاهرت عصمة بني رستم، ويجد الباحث أيضاً مادة قليلة، ولكن قيمة، في ثلثي الكتاب عن حركة الخوارج الصفرية في شمال أفريقية وخاصة عن علاقاتها بالحركة الإباضية.

وقد خلف لنا المؤلف الإباضي العماني مسلمة بن مسلم العوتبي كتاب أنساب العرب الذي يعتبر من المصادر الهامة عن تاريخ الإباضية وتاريخ عمان المحلي.

ينتمي العوتبي إلى قبيلة الأزد العمانية، وقد ولد وعاش في مدينة صحار، ذلك الميناء العماني الهام، وكان يسكن أحد أحياء المدينة المعروفة باسم عوتب فنسب إليها، ولا نملك معلومات كافية عن حياة المؤلف ولكنه كان حياً في القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي-، ويدل على ذلك ترجمته لبعض الأشخاص الإباضية البارزين الذين عاشوا في تلك

⁽¹⁾ Al – slira wa Akhbar al-A'imma, French translation by E. Masqueray, Algiers, 1878, This work is translated anew by R. Le Tourneau, Revue Africaine, 105 (105) (1961), pp. 117-176

⁽²⁾ منها حديث منسوب إلى الرسول نصح: «لو تعلق الدين بالثريا لثارت رجال من العجم وأسعدهم به فارس». أنظر أبو زكريا، ورقة 4، وهناك أحاديث أخرى على شاكلة هذا الحديث ينثرها المؤلف في صفحات الكتاب.

⁽³⁾ أبو زكريا، ورقة 3-4 وما بعدها.

الفترة ومن بينهم أبو الحسن البسيوي، العالم الإباضي المشهور الذي توفي في الربع الأول من القرن الخامس الهجري⁽¹⁾.

ويعتبر كتاب أنساب العرب من أهم المصادر عن أنساب القبائل العربية وبخاصة تلك التي اتخذت من الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية موطناً لها، وقد أعطى المؤلف أهمية خاصة للقبائل القحطانية والعربية الجنوبية⁽²⁾، وأسهب في الحديث عن قبيلة الأزدي التي ينتمي إليها، وأشار إلى دورها في نشأة الحركة الإباضية وتطورها في عمان، وأعطى معلومات حسنة عن تسرب الأفكار والمبادئ الإباضية إلى تلك المنطقة وزودنا بأسماء حملة العلم الذين كان لهم دور كبير في نشر المذهب الإباضي هناك⁽³⁾، وقد نقل عنه هذه المعلومات من جاء بعده من الكتاب العمانيين مثل الأركوي وسليل ابن رزيق والسالمي وسالم بن حمد الحارثي والبياسي وغيرهم، بالإضافة إلى ذلك فإن العوتبي يمدنا بمعلومات متفرقة عن تطور الحركة الإباضية في اليمن وحضرموت وعلاقة إباضية عمان بإخوانهم في هاتين المنطقتين، ألا أنه يعي-أحياناً- معلومات خاطئة وخاصة عن الأشخاص الذين اشتركوا في الحوادث⁽⁴⁾.

وكتاب العوتبي هذا مصدر هام للتاريخ العماني منذ العصر الجاهلي حتى منتصف القرن الرابع الهجري، وتكمن قيمته الأساسية فيما يورده من معلومات عن استقرار القبائل وتجمعاتها ودورها في تاريخ عمان وتطور الإمامة الإباضية في ذلك القطر، ويورد أحياناً مادة فريدة حول بعض الموضوعات وبخاصة حول الإمامة الإباضية الثانية التي أسست عام 177هـ⁽⁵⁾.

أما كتاب الطبقات الإباضية لمؤلفة أبي العباس أحمد بن سعيد سليمان ابن علي بن خلف الدرجيني فهو أهم مصدر لموضوع بحثنا، وقد عاش المؤلف في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي، وكان شاعراً وفقهياً ومؤرخاً، وينتمي إلى أسرة تجارية غنية كانت في الأصل تعيش في منطقة جبل نفوسة في ليبيا، وقد اتسعت علاقات أسرته التجارية حتى شملت - إلى جانب نفوسة- بلاد الجريد في جنوب تونس ومناطق أفريقية جنوب الصحراء وخاصة ما يعرف اليوم بجمهورية مالي، وكان والد المؤلف يعيش في منطقة درجين السفلى الجديدة بالقرب من نقطة في بلاد الجريد وقد نسب منطقة درجين السفلى الجديدة بالقرب من منطقة في بلاد الجريد وقد نسب إليها وعرف بالدرجيني، وكان من فقهاء الإباضية وعلماء الحديث في تلك المنطقة، ولذل فإن أبا العباس قد عاش وتربى ي كنف أسرى عملية غنية مما أتاح له الفرصة ليأخذ من العلم ما وسعه، ويرتحل في إلى أماكن كنهدة من مناطق الإباضية في الشمال الأفريقي، وفي عام 616هـ/1219-1220م ارتحل إلى وارجلان حيث بقي هناك مدة سنتين تلقى خلالها العلوم والمعارف عن مشايخ الإباضية فيها⁽⁶⁾، هم رجع إلى بلاد الجريد واستقر في توزر حيث مال إلى

(1) العوتبي، ورقة 162، يجدر بالذكر أن البسيوي من المؤلفين الإباضية الكبار، ومن مؤلفاته: الحجة على من أبطل السؤال في الحديث الواقع في عمان، وتوجد منه نسخة أخرى في زنجبار، وهناك أيضاً مختصر البسيوي المطبوع طبعة حجرية في زنجبار عام 1304هـ.

(2) اعتمد المؤلف العماني المتأخر، سليل بن رزيق، على العوتبي في هذا الموضوع، وأشار إلى ذلك في كتابه الصحيفة القحطانية الذي لا يزال مخطوطاً وتوجد منه نسخة في رودس هاوس في أكسفورد.

أنظر أيضاً: (Rhodes House Oxford Mss. Afr. S.3)

J. c. Wilkinson, "The Origin of the Omni state", the Arabian Studies, ed D. Hopwood, London, 1972, P. 87.

(3) العوتبي، ورقة 101، 107.

(4) العوتبي، 81، 93، 162.

(5) المصدر نفسه، ورقة 164-165، 169.

(6) يبدو أن الدرجيني كان آنذاك حدثاً صغير السن، ويورد البرادي نصاً منقولاً عنه حول رحلته إلى وارجلان يقول فيه: «..وذلك أني دخلت حلقة وارجلان حرسها الله تعالى سنة ستة عشر وستمئة في ربيع الآخر منها في أول ما وجب علي الصوم، والبال خالي من الهم..» البرادي، الجواهر، ص215.

دراسة التاريخ، وبعد عام 1235/633م ارتحل إلى جزيرة جربة حيث أخذ عن مشايخها وأظهر نبوغاً وذكاء في العلوم الإباضية المختلفة مما أحسبه تقدير علماء الإباضية هناك وعلى رأسهم مجلس العزابة⁽¹⁾، وهناك كتب مؤلفه الذي بين أيدينا والذي سماه طبقات الإباضية بناء على إشارة من مجلس العزابة ي جزيرة جربة ويروي لنا البرادي الظروف والأسباب التي حدثت به للقيام بهذا العمل فيقول: (ذكر لي بعض العزابة أن سبب تأليف أبي العباس هذا الكتاب لما وصل الحاج عيسى ابن زكريا من بلاد بما معه من الكتب التي ورد بها أرض المغرب: كحل ابن وصاف وجامع الشيخ أبي الحسن وجامع ابن جعفر وغيره. فكان مما رغب إليه فيه إخوانه (من أهل عمان) أن قالوا له: وجهوا إلينا كتاباً يتضمن سير أوائلنا ومناقب أسلافنا من أهل المغرب من لدن وقع فيه مذهبنا إلى هلم جرا. فإنه قد عميت علينا أنبأؤهم وغابت عنا آثارهم من بعد الشقة. فشاء من بجربة يومئذ من العزابة والفقهاء ومن يشار بالبنان إليه من الحذاق والنبهاء في تلبية طلبة إخوانهم إليهم ووصف لهم الكتاب المشروط عليهم، فنظروا في كتاب الشيخ أبي زكريا يحيى بن أبي بكر فوجدوه مخلاً ببض التفاصيل قاصراً دون أمد التحصيل، مع أن لسان البربرية أورد ألفاظه موارد التكليف وقلة تحفظه على قوانين العربية أدخل ببعض معانية مجاهل التعسف، فاهتموا بتصنيف كتاب يشتمل على سير الدولة الرستمية ومناقب الأسلاف كما طلب ذلك إليهم، فلم يروا أهلاً لهذا التصنيف غير أبي العباس...»⁽²⁾.

وعلى أية حال فإن الدرجيني في كتابه هذا قد أسدى خدمة جلى في تعريفنا ببعض مراحل تطور تاريخ الحركة الإباضية وأبرز مشايخها في المغرب والمشرق، وقد ترجم لمشايخ الإباضية حسب طبقاتهم جيلاً بعد جيل، وأعطى معلومات قيمة حول نشأة الحركة الإباضية في البصرة من خلال حديثه عن أئمة الفرقة ورجالها البارزين في المشرق والمغرب.

أعتمد الدرجيني في معلوماته حول المحكمة الأوائل الذين يعتبرهم الإباضية رواد لحركتهم على كتاب الكامل للمبرد وخاصة عند حديثه عن أبي بلال مرداس بن أدية التميمي وأخيه عروة وعن عمران بن حطان، ولكنه يضيف بعض التفاصيل من مصادر أخرى لا يذكرها وقد تكون إباضية⁽³⁾، أما فيما يتعلق بأئمة الإباضية البارزين والذين كان لهم الدور الأساسي في تنظيم الحركة في البصرة مثل جابر بن زيد الأزدي وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي فإن الدرجيني ينقل معلوماته عن الإمام المؤرخ الإباضي أبي سفيان محبوب ابن الرحيل⁽⁴⁾، آخر الأئمة الإباضية في البصرة، وقد عاش في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري، ولأبي سفيان هذا كتاب في تاريخ الإباضية يشتمل على الأخبار والفقهاء والكلام والعقائد، ويعد من أهم كتب الإباضية الأوائل حتى أن أئمة الدولة الرستمية كانوا يوصون أتباعهم بقراءة هذا الكتاب والتعمق في معانيه⁽⁵⁾، ولم يذكر أحد من العلماء المحدثين أو مصنفى دور الكتب والمخطوطات أنه عثر عليه، ولما كان أبو سفيان أمضى آخر حياته في عمان فيراودنا الأمل في إمكانية العثور عليه في تلك البلاد وخاصة أن المسؤولين فيها يولون المخطوطات والتراث الإباضي والعماني أهمية خاصة ويبدلون- كما سمعت- جهداً مشكوراً في هذا الشأن، وعلى أي حال فإن اعتماد الدرجيني على هذا المصدر يعتبر ذا أهمية كبيرة لأن الرواية- كما قلنا- معاصر للحوادث، وقد تبوأ مركز

(1) عن مجالس العزابة أنظر: علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، ص 97-110، T.Lewicki, "Halaka" E.

(2) 1.

(2) البرادي، الجواهر، ص 215.

(3) الدرجيني، ورقة 92، 97، 98.

(4) الدرجيني، ورقة 88 وما بعدها، ورقة 100 وما بعدها.

(5) البرادي، رسالة، ورقة 205-206.

المسؤولية في الحركة الإباضية إبان مرحلة الكتمان في البصرة كما كان من مشايخ الإباضية الفرقة البارزين قبل أن يترجم الحركة في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري⁽¹⁾، ولذا فإن المعلومات التي وصلتنا برواية أبي سفيان تعتبر ذات أهمية خاصة لأنها جاءت من شخص عاش الأحداث واطلع عن كثف على التنظيم السري في البصرة واشترك فيه بشكل مباشر وفعال.

بالإضافة إلى هذه المعلومات فإن الدرجيني يزودنا بمادة خصبة عن تاريخ الحركة الإباضية في شمال أفريقية منذ بداية تسربها إلى تلك المنطقة في نهاية القرن الأول الهجري وحتى نهاية الدولة الرستمية، كما يترجم لمشايخ الإباضية البارزين من أصل مغربي حتى العهد الذي عاش فيه، ومن خلال ذلك فإنه يعطي معلومات متفرقة عن تطور الحركة حتى القرن السابع الهجري ويلقي بعض الضوء على العلاقة بين إباضية المغرب وبلاد السودان وخاصة ما يتعلق منها بالعلاقات التجارية ودور التجار الإباضية في نشر الإسلام في تلك البقاع، وهو ينقل معلوماته حول هذه المواضيع من مصادر إباضية أقدم مثل أبي زكريا الوارجلاني الذي يكاد يكون مصدره الوحيد في المعلومات المتعلقة بتسرب الأفكار الإباضية إلى بلاد المغرب والحركات والثورات الإباضية هناك والتي توجت بتأسيس الدولة الرستمية الإباضية، كما أن معلوماته عن تاريخ الرستميين تكاد تكون منقولة حرفياً عن سيرة أبي زكريا، أما فيما يتعلق بالمواضيع الأخرى التي ضمنها كتابه فنقلها عن أبي سفيان محبوب بن الرحيل وأبي الربيع سليمان بن عبد لسلام الوسياني (عاش في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) وأبي عبد الله محمد بن بكر النفوسي (عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).

والواقع أن طبقات الدرجيني تعتبر من أهم المصادر الإباضية عن موضوع بحثنا بالرغم مما يؤخذ عليه من مثالب يشترك فيها مع بقية المؤلفين الإباضية المغاربة وخاصة تحيزهم للعناصر غير العربية كالفارسية والبربرية وتضمنين كتابة كثيراً من الأحاديث المنسوبة إلى الرسول p لإثبات فضل الفرس والبربر على الإسلام⁽²⁾، كما أن الكتاب لا يخلو من الأساطير والكرامات التي تصل إلى حد المعجزات المنسوبة إلى بعض رجال المذهب البارزين، ولكن الباحث لا يجد عناء كبيراً في كشفها وبيان بطلانها.

وقد أكمل عمل الدرجيني مؤلف إباضي آخر هو أبو القاسم بن إبراهيم البرادي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وقد ألف كتاب سماه، الجواهر المنتقاة في إتمام ما أخل به كتاب الطبقات لأبي العباس الدرجيني⁽³⁾.

نشأ البرادي في مدين دمر في جنوب تونس حيث تلقى علومه الأولية على يدي الشيخ الإباضي أبي البقاء يعيش الجربي، الذي يبدو من نسبه أنه جاء إلى هناك من جزيرة جربة التونسية، وارتحل لبرادي بعد ذلك إلى جبل نفوسة وأخذ العلم عن الشيخ أبي ساكن عامر الشماخي (ت 792هـ/1390م) في مدينة يفرن، ثم طاب له المقام في جزيرة جربة حيث أصبح من العلماء البارزين فيها، وكان يقي دروسه ومحاضراته في جامع وأدي الزبيب في جربة، وألف كتابه الجواهر هناك، ويضم الكتاب معلومات غزيرة عن تاريخ صدر الإسلام ابتداء من البعثة النبوية وحتى الأيام الأولى من الدولة الأموية وفسر حوادث هذه الفترة طبقاً لآراء الإباضية ومعتقداتهم، وقد أسهب في الحديث عن الخليفة عثمان بن عفان وأسباب الفتنة وظهور المحكمة

(1) عن الإمام أبي سفيان أنظر: الدرجيني، ورقة 117 وما بعدها، شماخي، سير، ص 117-119.

(2) الدرجيني، روقة 4-5.

(3) طبع الكتاب طبعة حجرية غير علمية في القاهرة عام 1302هـ، كما طبع أيضاً طبعة حجرية في الجزائر، وتوجد نسخ مخطوطة من هذا الكتاب في دار الكتب المصرية وفي وادي ميزاب في الجزائر.

الأوائل وبذلك يستطيع الباحث أن يحصل على معلومات مفيدة حول رأي الإباضية في الفتنة والحرب الأهلية الأولى التي هزت الخلافة الإسلامية خلال العقود الأولى من تاريخها، وكذلك عن الرواية الإباضية في ظهور الحركة الخارجية وتطورها خلال اقرن الأول الهجري، ويحفظ لنا البرادي الرسائل التي بعضها عبدالله بن أباض إلى الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان والتي تعطينا فكرة واضحة عن بعض مبادئ الفرقة الإباضية في تلك الفترة المبكرة من تاريخها، وقد تكلم في بقية كتابه عن بعض مشايخ والأئمة الإباضية الذين أغفلهم الدرجيني في طبقاته، ويختم كتابه ببعض المسائل العقائدية كما أنه يعطي معلومات جيدة عن تنظيم الحلقة عند الإباضية، وفي نهاية الكتاب يثبت المؤلف أسماء بعض تأليف أهل المشرق والمغرب من الإباضية التي قرأها أو رآها أو سمع عنها.

وجدير بالذكر أن للمؤلف مخطوطة محفوظة ضمن مجموع في دار الكتب المصرية ذكر فيها عناوين بعض المؤلفات الإباضية سماها: رسالة في تقييد كتب أصحابنا⁽¹⁾.

وهناك مخطوطة أخرى محفوظة في دار الكتب المصرية لمؤلفها أبي الربيع الوسياني ومصنفة تحت عنوان سير أبي الربيع السلام الوسياني⁽²⁾، وقد عاش الوسياني في القرن الرابع الهجري وتوفي في العقد الثاني من القرن الخامس الهجري، ويعتبر هذا الكتاب من المصادر المهمة عن تاريخ الإباضية- بعد سقوط الدولة الرستمية- وعلاقاتهم مع الفاطميين، ويتضمن الكتاب معلومات جيدة عن العقيدة الإباضية يستفيد منها الباحث خلال حديثه عن الأدوار التي مرت بها الحركة الإباضية.

ويعتبر كتاب السير لمؤلفه أحمد بن سعيد الشماخي (ت 928هـ) أشمل المصادر التاريخية الإباضية عن تاريخ الحركة حتى بداية القرن العاشر الهجري، ويتناول الشماخي في هذا الكتاب التاريخ الإسلامي منذ البعثة النبوية الشريفة، ولذلك فهو يساهم في إعطاء صورة واضحة عن رأي الإباضية في الحوادث التي جرت في صدر الإسلام كالحرب الأهلية ونشأة المحكمة الأوائل ويسهب المؤلف في الحديث عن الصراع بين الخلافتين الأموية والعباسية وبين الإباضية في المشرق والمغرب، ويمدنا بمعلومات جيدة عن أئمة الفرقة ومشايخها البارزين، ويعتبر مؤلف الشماخي هذا مصدرا خصباً لكل من يتصدى للكتابة عن تاريخ الحركة في بلاد المغرب الإسلامي، ولما كان الشماخي قد عاش في فترة متأخرة فقد أتيح له الاطلاع على كثير من مؤلفات من سبقه من علماء الإباضية واستفاد منها، ويشير في كثير من المواضع إلى مصادره ورواته مثل أبي سفيان محبوب بن الرحيل وأبي نوح صالح بن إبراهيم وابن عمار وأبي زكريا وابن سلام والربيع بن حبيب والسوفي، كما ينقل عن مؤرخين سنة مثل الرقيق القيرواني وابن الصغير والمبرد، وعلى الرغم من تحيزه الواضح لمذهبه فإن الشماخي يحاول أحياناً مناقشة الروايات وتحليلها وإعطاء رأي فيها، وفي بعض الأحيان يرجح روايات مؤرخي السنة على الروايات الإباضية، وهذه ميزة تعطي كتابه قيمة كبيرة.

ومن المصادر الإباضية المتأخرة التي تمدنا بمعلومات جيدة حول آراء الإباضية وتفسيرهم لبعض نواحي التاريخ الإسلامي وخاصة الفتنة في عهد عثمان والحرب بين علي ومعاوية بن أبي سفيان ونشأة الخوارج: كتاب الكشف والبيان لأبي سعيد محمد بن سعيد الأزدي القلهاتي الذي عاش في القرن الحادي عشر الهجري- السابع عشر الميلادي، ويقع الكتاب في

(1) دار الكتب المصرية، رقم 21791 ب.

(2) دار الكتب المصرية، رقم 9113 ح.

خمسین بابا وینقسم إلى قسمین: قسم تاریخی والأخر عقائدي، ویدأ القسم الأول فی الکلام عن خلق السموات والأرض والملائكة والجن والإنس، ویشمل تاریخ الأنبیاء والرسل منذ بدء الخلیقة ویفصل فیہ الحدیث عن البعثة النبویة الشریفة وما تلاها من أحداث حتی بداية العصر الأموی مع تركیز خاص علی فترة خلافة كل من عثمان بن عفان وعلیؓ⁽¹⁾، وفی القسم الثانی یتناول المؤلف عقائد بعض الأدیان والمذاهب مثل عبدة الشمس والمزدکیة ومذاهب أهل الهند، ثم یتکلم عن الفرق الإسلامیة وبیان عقائدها وأوجه الشبه والخلاف بینها، ویعطي أهمية خاصة للفرقة الإباضیة الّتی ینتمی إليها ویسمیها الفرقة الوهبیة نسبة إلى عبدالله بن وهب الراسبی.

ویأخذ القلهاتی معلوماته عن رواة ومؤلفین قدامی، منهم السنی ومنهم الإباضی، وأشهر هؤلاء الرواة مجاهد وابن شهاب الزهري ومحمد بن السائب الکلبی وشبیب بن عطیة الخرسانی الإباضی وأبو غانم وغيرهم⁽²⁾، ویجدر بالذكر أن النسخة الوحیة المعروفة حتی الآن من هذا الکتاب هی مخطوطة المتحف البریطانی⁽³⁾.

وهناك مصدر آخر یشبه فی کثیر من معلوماته- وبخاصة ما یتعلق منها بتاریخ صدر الإسلام- المعلومات الواردة فی کتاب القلهاتی، وهذا الکتاب هو کشف الغمة الجامع لأخبار الأمة لمؤلفه سرحان بن سعید الأزکوی الذی عاش فی القرن الثانی عشر الهجري- الثامن عشر المیلادی، وتوجد عدة نسخ مخطوطة من هذا الکتاب واحدة منها فی المتحف البریطانی وتقع فی 819صفحة بینما توجد نسخة أخرى ناقصة فی المکتبة الوطنیة فی تونس برقم 3182 وتقع فی 497 صفحة فقط⁽⁴⁾.

وهناك نسخة أخرى محفوظة فی المکتبة الظاهریة بدمشق برقم (ت 337) ونسخة أخرى فی باریس ولعل هناك نسخاً غیرها فی عمان.

وقد ترجم الضابط الإنجلیزی روس Ross الفصول الخاصة بتاریخ عمان من مخطوطة المتحف البریطانی إلى اللغة الإنجلیزیة ونشرها فی مجلة الجمعیة الآسیویة البنغالیة عام 1873م⁽⁵⁾، بینما قامت الباحثة الألمانية هیدویج کلین Klein بتحقیق بعض فصول الکتاب الخاصة بعمان وجعلتها رسالة نالت علیها درجة الدكتوراه، ولم أستطع الحصول علیها.

وفی عام 1976م قام الأستاذ عبد المجید حسیب القیسی بتحقیق ونشر الأجزاء الخاصة بتاریخ عمان معتمداً فی ذلك علی مخطوطتی المکتبة الظاهریة بدمشق ومکتبة المتحف البریطانی، ویقوم الآن بتحقیق الأجزاء المتبقیة من الکتاب.

والکتاب فی مجمله یعد من أشمل المصادر الّتی تتناول تاریخ عمان، ویحتوی أيضاً علی معلومات عن تاریخ العرب منذ العصر الجاهلی وحتى العصر العباسی، ویزودنا المؤلف

(1) القلهاتی، ورقة 83 وما بعدها.

(2) القلهاتی، أنظر مثلاً ورقة 132، ورقة 180 وما بعدها.

(3) حول مزید من المعلومات عن القلهاتی أنظر:

C. Brockelmann, Geschichte der arabischen literature, sup. Vol. 2p. 568. M. Kafafi, " the rise of Kharijism according to Abu sa'id Muhammad b. Sa'id Al-Azdi al-qalhati", Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Unievrsity Vol. 14, part 1 (1952) pp. 29ff.

أنظر أيضاً محمد بن عبدالجلیل، خلافة عثمان وعلی من کتاب الكشف والبیان، حولیة الجامعة التونسیة، العدد 11، (1974م)، ص 184-187.

(4) محمد بن عبدالجلیل، المقالة السابقة، ص 186.

(5) E. C. Ross, « Annals of Oman» J.A.S. Soc. Bengal. Calcutta (1874), Idem, « An account of the tenets of the Ibadhi sect of Oman» Proceedings of the Asiatie Society of Bengal (1874) , pp. 2ff

بالرسالة التي بعث بها عبدالله بن أباض إلى عبد الملك بن مروان كما أنه يعطي معلومات قيمة عن آراء الفرقة الإباضية، ويمدنا في الباب الثاني والثلاثين من المخطوطة بمعلومات جيدة عن انتقال المذهب الإباضي إلى شمال أفريقيا، وفي الحقيقة فإن هذا الكتاب لا يستغني عنه الكل من يتصدى لكتابة تاريخ عمان وتطور الحركة الإباضية فيه، وقد اعتمدنا في بحثنا هذا على مخطوطة المتحف البريطاني وعلى الجزء الذي حققه ونشره الأستاذ عبد المجيد القيسي والذي سماه: المقتبس من ككتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأئمة.

كتب الفقه والعقائد: عن كتب الفقه والعقائد الإباضية تحوي معلومات تاريخية جيدة، فهي خلال الحديث عن موضوع فقهي أو فتوى شرعية تورد أدلة تاريخية سابقة تسند رأي الفقيه أو فتوى الشرع، وهذا يفيد في إعطاء معلومات عن بعض الحوادث السياسية وعن آراء الفرق العقائدية، وتزودنا هذه الكتب بمعلومات جيدة عن سلوك الإباضية السياسي وتنظيماتهم المختلفة إبان المرحلة السرية أو ما تسميه المصادر بطور الكتمان، ومن نافلة القول أن نذكر أن المكتبة الإباضية تضم أعداد ضخمة من كتب الفقه، بل أن معظم ما خلفه الإباضية من مؤلفات إنما ينضوي تحت هذا الصنف.

ومن أهم المؤلفات التي تمكنت من الاطلاع عليها والتي تفيد في البحث عن نشأة الفرقة الإباضية وتطورها كتاب جوابات جابر بن زيد، ويعتبر الإباضية جابر بن زيد المؤسس الأول لمذهبهم وصاحب دعوتهم وقد عاش في القرن الأول الهجري وتوفي في عام 93هـ، وسوف نفرّد فصلاً خاصاً في الحديث عنه، أما الكتاب المذكور المنسوب إليه فلا يحمل تاريخاً، ويبدو أن هناك نسخاً متعددة منه موزعة في المناطق التي يعيش فيها الإباضية، وهناك بالتأكيد نسخة منه محفوظة في الخزانة البارونية في جزيرة جربة التونسية والتي ينتمي معظم سكانها للمذهب الإباضي⁽¹⁾.

أما النسخة التي أفدت منها في بحثي فهي عبارة عن نسخة مصورة تفضل أحد الأصدقاء المغاربة وأعارني إياها لمدة ساعات قلائل خلال وجودي في بريطانيا في صيف 1977، وأعلمني أنه حصل على تلك النسخة من جربة، ولا تحمل النسخة رقم تصنيف المخطوطة ولا الدار المحفوظة فيها، وقد قرأتها على عجل ولكنني استندت منها أيما إفادة وخاصة عن علاقة وخاصة عن علاقة جابر ابن زيد الأزدي-أبان زعامته للحركة السرية في البصرة- مع أتباعه في الأمصار الأخرى، وتدل المعلومات الواردة في هذه الرسائل التي كان يتبادلها مع أصحابه وأتباعه على السرية التامة والدقة في التنظيم لدى أتباع الفرقة في طور الكتمان، كما أنها تبين، بلا أدنى شك، أن بعض رجال الفرقة تقلدوا مناصب في الدولة الأموية دون أن يعرف الخلفاء والولاة هويتهم المذهبية، وكانوا أثناء ذلك يستخدمون نفوذهم المعنوي والمادي لتعزيز مكانة إخوانهم في العقيدة ولخدمة الدعوة الإباضية كلما سنحت الفرصة للقيام بمثل هذه المهمة.

وتحتوي أجوبة جابر على 18 رسالة من جابر إلى بعض أتباعه وتتضمن آراءه في كثير من أمور الدعوة في النواحي التنظيمية والفقهية، وقد أشرنا إلى بعض المعلومات القيمة التي وردت في جوابات جابر خلال الحديث عن دور جابر بن زيد في نشأة الحركة الإباضية.

(1) من مخطوطة جربة أنظر:

A . k. Ennami, " description of new Ibadi manuscripts from northe- Africa, J .S. S. Vol. 15, I (1970), pp. 65 – 8, J. V. Van Ess, " untersuchugen zu einigen ibaditischen Handschriften" , Z.D.N. G Band 126 Heft I (1976) pp. 26ff.

ومن المصادر الهامة في هذا الموضوع, رسالة في أحكام الزكاة لمؤلفها أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي خلف جابر بن زيد في زعامة الحركة الإباضية, وكانت له جهود جبارة في نشر المذهب الإباضي في الأمصار الإسلامية بواسطة الدعاة أو حملة العلم الذين كان يرسلهم إلى المناطق البعيدة عن الولايات المركزية للدعوة للمذهب الإباضي, وسوف نفصل الحديث عن دور أبي عبيدة في تنظيم الدعوة الإباضية وانتصارها في باب خاص من هذا البحث.

أما رسالته في أحكام الزكاة التي وصلتنا فإنها تمدنا بمعلومات قيمة عن دور مشايخ الإباضية في تطور الحركة, وتكشف لنا عن السرية التامة التي تبناها الأئمة في البصرة لنجاح دعوتهم, وتوضح الرسالة العلاقة الوثيقة بين مشايخ البصرة وإباضية المغرب حتى بعد نجاح الأخيرين في تأسيس إمامة الظهور في شمال أفريقية, ولا تزال نسخة من هذه الرسالة مخطوطة ومحفوظة في دار الكتب المصرية في القاهرة.

ومن كتب العقائد والفقهاء المفيدة متن عقيدة التوحيد للشيخ عمرو بن جميع وقد نشره المستشرق موتيلنسكي Motylinski وفيه معلومات قيمة عن آراء الإباضية, ونجد معلومات مماثلة في كتاب شرح مقدمة التوحيد للشماخي الذي يلقي ضوءاً على مراحل تطور الدعوة الإباضية ويسهب في الحديث عن الإمامة وشروط أقامتها ومؤهلات القائم بها, وهناك أيضاً كتاب مختصر الخصال للإمام الإباضي إبراهيم بن قيس الحضرمي وفيه بعض المعلومات عن حملة العلم بالإضافة إلى أمور العقيدة.

وتعتبر مخطوطة كنز الأديب وسلافة اللبيب للصائغي من المصادر الإباضية الهامة التي اعتمدنا عليها, ولا تزال المخطوطة محفوظة في جامعة كمبريدج, وتتعلق معظم فصوله بالفقهاء والقضايا الشرعية كما يراها أتباع الفرقة الإباضية, ويبدو من الإشارات المتعددة أن مؤلف المخطوطة قد أخذ معلوماته من مصادر أقدم, ومن أجوبة مشايخ الإباضية في الشرق والمغرب وآرائهم مثل جاعد بن خميس وناصر بن خمس وحبيب بن سالم وغيرهم, وقد أسهب الصائغي في الباب الرابع من كتابه في الحديث عن الإمامة الإباضية وشروط عقدها والكفاءات التي يجب أن تتوافر في من يشغل هذا المنصب.

وبالإضافة إلى ما سبق فإن مدونه أبي غانم الخراساني وشرح السؤالات للسوفي تحتوي على معلومات مستفيضة عن القضايا الفقهية وآراء الإباضية فيها, كما أنها تضم معلومات متناثرة حول بعض مظاهر تطور الحركة الإباضية من الناحيتين السياسية والتنظيمية, وقد استفدنا أيضاً من مؤلفات ومخطوطات إباضية أخرى سوف يلحظها القارئ في هوامش البحث وفي قائمة المصادر.

الفصل الثاني

الدراسات الحديثة – عرض وتحليل

لم يكن العرب والمسلمون في العصور الحديثة سباقين إلى دراسة الحركة الإباضية دراسة علمية موضوعية، بل أن المستشرقين هم أول من انبرى لهذه المهمة وطرق هذا الباب مدفوعين بعوامل كثيرة لا سبيل لذكرها وإن الاستعمار – الفرنسي بشكل خاص – قد لعب دورا كبيرا في تسهيل هذه المهمة، ولا عجب فإن أول معاهد الاستشراق في فرنسا كان تابعا لوزارة المستعمرات، ورغم ذلك فإن عملهم في هذا المضمار لا يخلو من فائدة لكل طالب وباحث في تاريخ وعقائد هذه الفرقة الإسلامية التي لا تزال موجودة إلى يومنا هذا في عمان وزنجبار وبلاد المغرب العربي، وخاصة جبل نفوسة في ليبيا وجزيرة جربة في تونس ومنطقة وادي ميزاب في جنوب الجزائر.

وبدأت جهود المستشرقين في هذا الشأن بمحاولة الكشف عن المخطوطات الإباضية في دور الكتب والمتاحف العالمية، وحتى في المكتبات الخاصة التي استطاعوا الوصول إليها، ووضعوا قوائم ببليوغرافية لهذه المخطوطات، ثم تبع ذلك القيام ببعض الدراسات حول تاريخ الإباضية وعقائدها، وتعدى ذلك إلى دراسة المجتمعات الإباضية المعاصرة من شتى الوجوه

وأول من صنف قائمة بالكتب والمخطوطات الإباضية هو المستشرق موتيلنسكي Motylinski⁽¹⁾، وقد أشار في قائمته إلى المؤلفات الإباضية التي ذكرها البرادي في كتابه المعنون: الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات⁽²⁾، ويبدو أنه لم يطلع على رسالة أخرى خصصها المؤلف للكتب الإباضية التي قرأها أو سمع عنها، ولا تزال مخطوطة، وتوجد منها نسخة في دار الكتب المصرية بالقاهرة⁽³⁾، وعلى أية حال فإن هذا المستشرق قد أضاف إلى قائمة البرادي أسماء مخطوطات أخرى عثر عليها بنفسه، ولكنه – مع الأسف – لم يذكر أماكن وجودها، ولذا فإن قائمته قليلة الفائدة رغم أنها كانت حافزا لغيره من العلماء للقيام بعمل جاد في هذا الموضوع، وتكمن قيمة عمله – في اعتقادي – في أنه أعطى معلومات حسنة عن محتويات الكتب التي تتكلم عن مشايخ الإباضية وأئمتها مثل سيرة أبي زكريا الوارجلاني وطبقات الدرجيني وجواهر البرادي وسير الشماخي، مما حدا بالعلماء للبحث عن هذه الكتب ومحاولة الاستفادة منها، وعلى أية حال فإن وقالته قد أثارت اهتمام الباحثين وخاصة المستشرقين بالحركة الإباضية وحاولوا التعرف عليها وعلى مصادرها.

وفي عام 1949 قام المستشرق الإيطالي Rubinacci بنشر مقالة احتوت على قائمة بالمخطوطات الإباضية الموجودة في معهد الدراسات الشرقية في جامعة نابولي⁽⁴⁾، وكان المعهد قد حصل عليها من ليبيا أبان الاحتلال الإيطالي، وقد وصف هذه المخطوطات وصفا مستقيضا مبينا محتوياتها وأهميتها بالنسبة للدراسات الإباضية.

⁽¹⁾ Motylinski, "le Manuscrit arabo de zouagha", 14 cong. Int. or. 1905, 11, 4 section, pp. 79 – 92, Idem, "Expedition de Pedro de Navarre et de Garicia do Toleda contre Djerba (1510) d, aprss les sources abadhites", 14 cong. Int. or 1905, 111, 3 section, II pp. 133- 159.

⁽²⁾ طبع هذا الكتاب طبعة حجرية في القاهرة عام 1302هـ.

⁽³⁾ عنوان الرسالة: رسالة فيها تقييد كتب أصحابنا، وقد جاءت ضمن كتاب أحكام الديوان، الذي ألفه مجموعة من رجال الإباضية ولا يزال مخطوطاً في دار الكتب المصرية تحت رقم 21791ب.

⁽⁴⁾ R. Rubinacci, "Nozia di alcuni manoscritti ibaditi presso L'Iniversitario Orientale di Napoli" A. I. O.N., N. S. , 3 (1949) pp. 431 – 439:

وف تشرين الثاني عام 1952 وكانون الأول من عام 1953 قام المستشرق الإنجليزي J.Schachat بزيارة لمنطقة ميزاب في جنوب الجزائر واطلع على المخطوطات الإباضية المحفوظة في المكتبات الخاصة، وخاصة مكتبة الشيخ الإباضي المعروف أطفيش المشهور بقطب الأئمة، وقد نشر في عام 1956 نتائج رحلته في مقالة ضمنها قائمة بالمخطوطات التي رآها أو أطلع عليها في فهارس مكتبة الشيخ أطفيش وبعض المكتبات الخاصة الأخرى، وقد رتب قائمته طبقاً للمواضيع، ولفت النظر في مقالته هذه إلى حوالي مئتي مخطوطة منها مائة وخمسين مخطوطة تعتبر من المؤلفات النفيسة التي تعطي معلومات جيدة عن تاريخ الإباضية وعقائدها، أما المخطوطات الأخرى فتعتبر أقل أهمية لأنها تتعلق بأجوبة وفتاوى لشيوخ الإباضية المتأخرين وخاصة أولئك الذين استقروا في وادي مزاب⁽¹⁾، وفي عام 1959 نشر ف. كوبياك Wladyslaw kubiak بحثاً بعنوان (المخطوطات العربية في بولونيا)⁽²⁾، وضع فيه قائمة بأسماء المخطوطات العربية المحفوظة في كل من أكاديمية العلوم البولونية ومعهد اللغات الشرقية والمتحف الوطني وكلها موجودة في مدينة كراكوفية Krakow في بولونيا، ويبدو من قائمته أن كل المخطوطات المتعلقة بالإباضية موجودة في المتحف الوطني البولوني ومن أهمها مخطوطة أنساب العرب للعوتبي، وكتاب السير وأخبار الأئمة لأبي زكريا الوارجلاني وكذلك نسخة من كتاب السير للشماخي، والطبقات للدرجيني، كما ضمت مخطوطات المتحف الذكور مخطوطة عبارة عن كتاب مجموع فيه تواريخ وقصائد الإباضية من شمال أفريقيا، وتظم القائمة أيضاً خمسة مخطوطات عن تواريخ الإباضية في ميزاب في جنوب الجزائر، وكتاباً إباضياً في الفقه مجهول المؤلف والعنوان، وجدير بالذكر أن الكاتب قد رتب قائمته طبقاً لعناوين الكتب ثم أسم المؤلف مع ذكر أسم الناسخ إن وجد وتاريخ النسخ ولكنه لم يورد أرقام تصنيف هذه المخطوطات، وفي الآونة الأخيرة قام أحد العلماء الإباضية وهو عمرو خليل النامي بنشر مقالة وصف فيها بعض المخطوطات الموجودة في المكتبات الإباضية في الفترة الواقعة بين حزيران وأيلول من عام 1968، ويعتبر النامي أول باحث أشار إلى أهمية المخطوطات الموجودة في جزيرة جربة، ومن بينها بعض المخطوطات التي ألفها بعض أئمة المذهب القدامى خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، وعلى رأسهم مؤسس المذهب الإمام جابر بن زيد وأبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، وقد أشار المؤلف إلى عناوين مخطوطات اعتبرت حتى ذلك الوقت مفقودة، ويبدو أن المؤلف لم يتبع منهجاً معيناً في ترتيب قائمته، وربما وصفها ورتبها طبقاً لأهمية المؤلف والكتاب حسب تقديره، وهو يذكر المؤلف ثم الكتب المنسوبة إليه ثم يصنف كل كتاب مشيراً إلى الأوراق المفقودة منه، أو التي عطبت بفعل الزمن، ثم يذكر محتويات كل كتاب ويورد العبارات التي تتبدى المخطوطة وتنتهي بها، وقد أشار في أحد هوامش بحثه إلى إن كثيراً من المخطوطات غير مرقم، فوضع لها أرقاماً طبقاً للصفحات كما هو الحال في الكتب المطبوعة، ولا شك إن الاطلاع على بعض هذه المخطوطات التي أثبتتها النامي في مقالته يفيد كثيراً في الكشف عن معلومات جيدة حول الدعوة الإباضية في مرحلة الكتمان⁽³⁾، وقد سعدت شخصياً بالاطلاع على بعضها كما سيرى القارئ في ثلثي البحث، وقد أشرت إلى بعض هذه المخطوطات في الصفحات السابقة خلال الحديث عن المصادر.

(1) J. Schacht "Biblioth' eques et Manuscrits abadites", Rev. Africaine 100, (1956) , pp. 375 – 398

(2) أنظر: مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الخامس، الجزء الأول (1959م)، ص 22-7.

(3) A. K. Ennami, " description of New Ibadi Manuscripts from North Africa", J. S.S, Vol. 15, part I (1970), pp. 63-87

وفي عام 1974 نشر الدكتور فاروق عمر فوزي مقالة بعنوان: «ببليوغرافية في تاريخ عمان» أشار فيها إلى بعض المؤلفات الإباضية التي ألفها علماء عمانيون وتهتم بالتاريخ المحلي لعمان⁽¹⁾, كما قدم بحثاً آخر في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية حول الموضوع نفسه ولم يضيف شيئاً جديداً ذا أهمية على ما قاله في بحثه السابق.

وحول تاريخ عمان نشر المستشرق البريطاني ولكنسون Wilkinson مقالة عرض فيها لبعض المصادر الإباضية التي تعنى بتاريخ عمان في الفترة الواقعة بين نهاية القرن التاسع ونهاية القرن الرابع عشر الميلادي⁽²⁾, وقد قدم بحثاً آخر حول مصادر تاريخ عمان في العصور الإسلامية وذلك في الندوة العالمية الأولى لدراسات تاريخ الجزيرة العربية التي عقدت في الرياض 1977م, والحقيقة أنه لم يأت بإضافات ذات شأن كبير, ومعظم المصادر التي ذكرها في بحثه هذا مصادر متأخرة من الناحية الزمنية, ولم تكن مجهولة لكثير من العلماء المهتمين بالدراسات الإباضية والعمانية بشكل خاص, وعلى أية حال فإن هذه المصادر التي أشار إليها الباحث مهمة لدراسة تاريخ عمان وبالطبع تاريخ الحركة الإباضية في ذلك القطر, لأن الموضوعين لا يمكن فصلها عند الحديث عن تاريخ تلك المنطقة, وقد أشار في بحثه هذا إلى أن مكتبة وزارة التراث القومي في عمان تضم الآن ما ينيف على ألفي مخطوط⁽³⁾.

وفي آذار عام 1974م قام المستشرق الألماني فان أس Va Ess الأستاذ في جامعة توبنجن, بزيارة بعض المكتبات الإباضية الخاصة في جزيرة جربة في تونس ومنطقة وادي ميزاب في جنوب الجزائر, واستطاع الاطلاع على بعض المخطوطات هناك مستعيناً بالشيخ الإباضي صالح بو عمارة من بلدة مليكة في ميزاب, وقد نشر نتيجة زيارته مقالة وصف فيها أهم المخطوطات التي رآها, وتعتبر من أهم المقالات الببليوغرافية عن المصادر الإباضية- بالإضافة إلى مقالة النامي السالفة الذكر- لأنه وصف مخطوطات منسوبة إلى أئمة الإباضية الأوائل مما يلقي ضوءاً قد يكون جديداً حول تاريخ هذه الحركة ونشأتها الأولى⁽⁴⁾.

وكان أحد الدارسين الإباضيين واسمه إبراهيم فخار قد نال عام 1971, الدكتوراه حول الجماعات الإباضية, بعد الفتح الفاطمي لشمال أفريقية في نهاية القرن الثالث الهجري, وقد أشار فيها إلى كثير من المخطوطات الإباضية في ليبيا وتونس والجزائر مستفيداً من نحو 100 مكتبة عامة وخاصة, منها 87 الجزائر و5 في جزيرة جربة و7 في ليبيا وواحدة في تونس وهي مكتبة آل الطاميني⁽⁵⁾.

وفي تشرين أول من عام 1976 قام الدكتور ركس سميت G.R.Smith من المتحف البريطاني (المكتبة البريطانية) بزيارة سلطنة عمان بدعوة من وزير التراث القومي فيها, وصنف قائمة ببعض المخطوطات المحفوظة في الوزارة المذكورة, وقد رتب قائمته طبقاً للمواضيع ثم وفقاً لأسماء المؤلفين مرتبة حسب الحروف الأبجدية, وبعد ذلك وضع فهرساً لعناوين

(1) فاروق عمر فوزي, ببليوغرافيا في تاريخ عمان, مجلة المورد, 1975م.

(2) J.C. Wilkinson, "Bio-bibliographical Background to the Crisis Period in the Ibadi Imamate of Oman (End of 9th to end of 14th Century)", Arabian Studies vol. 3, pp. 137-164

(3) J.C. Wilkinson, "Sources for the Early History of Oman", Unpublished article, First International symposium on studies in the History of Riyadh, 1977

(4) Josef van Ess, "Untersuchungen zu einioen ibaditischen Handschriften" Z. D. M. G., Band 126, Heft I (1976), 25-63

(5) Ibrahim Fakhkhar, les Communautés ibadites en Afrique du Nord Libye Tunisie, Algerie, depuis les Fa timides. 1971, Sorbonne W 1971, the se 30 Unter C. Cahen see also Van Ess, Op. cit p. 27

المخطوطات الواردة في القائمة، وقد التقيت به في صيف عام 1977 في لندن وتفضل مشكورا وأعطاني نسخة مصورة من مقالته التي ذكر لي في ذلك الحين أنها ستظهر في العدد الرابع من مجلة *Arabian Studies*⁽¹⁾، وقد أفادني بأن المستشرق ولكنسون سوف ينشر مقالة أخرى مكملة في المجلة نفسها والعدد نفسه وقد فشلت في الحصول على نسخة من بحثه، لأنني زرت أكسفورد وكان آنذاك غائبا.

أما الدراسات والبحوث حول تاريخ الإباضية وعقائدها فقد بدأت يشكل جدي على يد المستشرق ماسكراي *Masqueray*⁽²⁾ الذي ترجم كتاب السيرة لأبي زكريا الوارجلاني إلى اللغة الفرنسية، وكان عمله هذا رائد في هذا المضمار شجع غيره من العلماء على الاهتمام بهذه الجماعة الإسلامية، ومحاولة دراسة تاريخها وعقيدتها، وأسباب بقائها واستمرارها في مناطق متعددة إلى يومنا هذا، ولكن معظم الباحثين - بما فيهم ما سكرى نفسه - قد ركزوا اهتمامهم على تاريخ الحركة في شمال أفريقيا، وقاموا بهذه الدراسات خلال نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين حيث كان الاستعمار الأوربي (الفرنسي بشكل خاص) سائدا في تلك البقعة من العالم الإسلامي مما سهل مهمة الباحثين الأوربيين للقيام برحلات إلى شمال أفريقيا، زاروا خلالها المكتبات والمجتمعات الإباضية هناك، واستطاعوا الحصول على كثير من المعلومات والمؤلفات الإباضية التي أفادتهم في أبحاثهم، وليس عجباً والحالة هذه أن نرى معظم الأبحاث التي تمت لهذا الشأن كانت بالفرنسية رغم أن بعض الباحثين كانوا ينتمون إلى جنسيات أخرى غير الفرنسية مثل المستشرق البولندي المعروف *Lewicki*⁽³⁾ الذي درس في فرنسا وزار شمال أفريقيا وخاصة الجزائر - ربما بمساعدة السلطات الفرنسية - حيث قضى فترة من الوقت أطلع فيها على بعض المصادر الإباضية كما عاش حول بين الجماعات الإباضية هناك في محاولة منه للتعرف على عاداتهم وتقاليدهم وعقائدهم، وقد كتب أبحاثه بالفرنسية (كتب بعض المقالات بالبولندية ولكنها كلها ترجمت إلى الفرنسية) ويعد *Lewicki* بلا منازع أشهر من كتب في موضوع الإباضية، وسنشير إلى أبحاثه ودراساته في هذا الفصل.

وقام المستشرق موتلنسكي *Motylineki* بتحقيق وترجمة لكتاب ابن الصغير المالكي المذهب، الذي كان معاصرا للدولة الرستمية الإباضية في شمال أفريقيا، وقد كتب سفرا ثميناً عن تاريخ الدولة عرف باسم تاريخ الأئمة الرستميين⁽⁴⁾، ولم يلبث أن أخذ المستشرقون يتسابقون في الكشف عن أسرار الحركة الإباضية وقاموا بجهود مشكورة في مراجعة المعلومات الواردة في بعض المصادر الإباضية ونقدها، إذ قام المستشرق ليفتسكي *Lewicki*، بكتابة بحثين بين فيهما قيمة المعلومات الواردة في كل من طبقات الدرجيني، وسير الشماخي⁽⁵⁾، بينما قام المستشرق الإيطالي روبيناتشي *Rubinacci* بدراسة مماثلة لكتاب الجواهر المنتقاة للبرادي⁽⁶⁾.

(1) G. R. Smith, "The Omai Manuscript collection at Muscat part I, A General Description of the MSS", Unpublished

(2) F. Masqueray, *Chraïque d'Abu Zakari*, Alger 1878

وقد ترجم هذا الكتاب مرة أخرى إلى الفرنسية في عام 1961م، أنظر:

R. Le Tourneau, *Rev. Africaine*, 105 (1961), pp. 117-176

(3) كان أستاذاً في جامعة كراكوف في بولندا، وقد أحيل على المعاش مؤخراً.

(4) Mothlinski, *Chronique d'Ibn Saghir sur les imams Rostomides de Tahert*, Actes du xlv. Congrès International des Orientalistes (Alger, 1905), Trois-ème Partie ((suite)) : "Langues Musulmanes (arabe, persan et turc)" (Paris, 1908), pp. 3-132.

(5) T. Lewicki, "Notice sur la chronique ibadite d'ad - Dargini", *Roznik Orientalistyczny*, vol, 11 (Iwów, 1936)

(6) R. Rubinacci, "I Kit'ab al-Gaw'ahir di al-Barrdi, A.I.O.N.N. S vol 6 (1954-6) pp. 1-41

ومن أوائل الذين كتبوا في تاريخ الإباضية في شمال أفريقية المستشرق ستروثمان Strothma الذي قام بدراسة عن علاقة البربر بالحركة الإباضية⁽¹⁾. وجل اعتماده في هذا البحث على تاريخ ابن خلدون الذي لا يعطي معلومات موثوقة عن هذا الموضوع، وكثيراً ما يخلط بين الصفرية والإباضية، والحق أن ابن خلدون لا يقدم معلومات هامة عن الموضوع سوى تعريفه ببعض قبائل البربر ومناطق سكانها، وقد اعتمد ستروثمان أيضاً على المؤلفات الإباضية المطبوعة على الحجر مثل سير الشماخي، أو المترجمة للفرنسية مثل سير أبي زكريا الذي أسلفنا الحديث عنه، كما أنه استفاد من كتاب ابن الصغير المالكي عن الأئمة الرستميين، وعلى أي حال فإن المعلومات التي أوردها الباحث في مقالته لم تلق أي ضوء على نشأة الحركة الإباضية وتطورها في البصرة- وهذا مجال بحثنا- كما أنه لم يعط معلومات ذات شأن عن كيفية تسرب الأفكار والآراء الإباضية إلى بلاد المغرب، ولم يحلل بعق الظروف والأسباب التي أدت إلى اعتناق البربر لهذا المذهب.

وعلى أي حال فإن بحثه المختصر هذا كان مفيداً للطلبة (في النصف الأول من هذا القرن) الذين اهتموا بدراسة تاريخ المغرب الكبير رغم أن المعلومات جاءت فيه قد أصبحت الآن قديمة وخاصة أن كثيراً من المخطوطات قد اكتشفت، وإن معلومات جديدة قد ظهرت للعيان، وعلى أية حال فإن هذه الدراسة ليس فيها ما يفيدنا في بحثنا عن نشأة الحركة الإباضية في البصرة.

وقد درس شيخ بكري Ch.Bekri حركة الخوارج في شمال أفريقية بتفصيل أكثر وتحليل أدق من ستر وثمان إلا أنه لم يفرد بحثاً خاصاً بالإباضية، وكانت استفادته من المصادر الإباضية جيدة ألا أنه لم يفرد بحثاً خاصاً بالإباضية، وكانت استفادته من المصادر الإباضية جيدة إلا أنه ركز اهتمامه في حديثه عن فرقة الإباضية على تاريخ الدولة الرستمية في شمال أفريقية، ولم يتطرق للدور السري (مرحلة الكتمان) للحركة الإباضية، ولذا فإنه لم يذكر أية معلومات هامة لها علاقات بنشأة الحركة في البصرة سوى إشارته المقتضبة إلى حملة العلم الذين نشروا المذهب الإباضي في شمال أفريقية⁽²⁾.

وفي الآونة الأخيرة أهتم بعض المستشرقين بتاريخ الإباضية في عمان من خلال اهتمامهم بتاريخ الخليج العربي ومناطق شرق الجزيرة العربية الغنية بالبترول، وأشهر من ألف في هذا الموضوع هو المستشرق الإنجليزي ولكنسون Wilkinson الذي عمل دراسة عن تاريخ عمان موضعاً فيها استقرار القبائل العربية في ذلك القطر وعلاقة القبائل وتحالفاتها بالإمامة الإباضية هناك، وقد نال على هذا البحث درجة الدكتوراه من جامعة أكسفورد عام 1969م⁽³⁾، ثم نشر عدة مقالات في المجالات العلمية المعروفة حول الإباضية والتاريخ المحلي العماني، ويبدو أن هذه البحوث عبارة عن مقتطفات أو فصول من رسالة الدكتوراه، ومن هذه الدراسات: المقالة التي نشرها عن الأصول التاريخية لدولة عمان، وقد أشار فيها إلى الحركة الإباضية وأثرها في التاريخ العماني في العصور الإسلامية.

(1) R. Strothmann, "Berber and Ibaditen", Der Islam, vol. 21 (1928), pp. 28-279.

(2) C. Bekri, "le Kharijisme berber're", Annales de l'Institut d'Eudes Orientales, vol. 15 (1957), pp. 55-108.

(3) L C. Wilkinson, Arab settlement in Oman: The Origins and Development of the Tribal Pattern and its Relationship to the Imamate Unpublished D. Phil thesis, Oxford. 969

وبالرغم من إشارته المقتضبة لحركة الإباضية في مرحلة الكتمان في البصرة ودور التجار الإباضية في تمويل الدعوة إلا أنه لا يعطي أية تفاصيل, بل انه لا يوضح كيف أنتشر المذهب الإباضي في عمان, ولم يذكر أحد من الدعاة (حملة العلم) الذين أرسلهم أئمة الإباضية ومشايخها في البصرة إلى ذلك القطر في الجنوب الشرقي في الجزيرة العربية, وبناء على ذلك فإن هذه المقالة عديمة الفائدة لبحثنا عن أصول الدعوة الإباضية في دورها السري في البصرة, ومن ناحية أخرى فإن هذه الدراسة مهمة لكل من يريد البحث في التاريخ العماني وخاصة أنها تتضمن معلومات جيدة عن هجرة القبائل العربية واستقرارها في عمان ودور هذه القبائل في صنع تاريخ ذلك القطر, وقد اعتمد المؤلف في بحثه هذا على مخطوطة أنساب العرب للعوتبي بالإضافة إلى المصادر أخرى أقل أهمية⁽¹⁾.

وفي بحثه الذي نشره في عام 1976 عن آل الجلندی في عمان, ركز ولكنسون في حديثه على الفرع المعولي من هذه الأسرة⁽²⁾, وهو الفرع الذي حكم عمان حتى الربع الأخير من القرن الثاني الهجري, أي حتى تأسيس الإمامة الإباضية الثانية في عمان نحو عام 177هـ, ورغم حديثه عن الإمام الأول الجلندی بن مسعود فإنه يعط معلومات ذات شأن عن تأسيس الفرقة الإباضية في البصرة ودور إباضية البصرة في انتقال المذهب إلى عمان, ولكنه أشار باختصار إلى العلاقة الوثيقة بين الأزد والحركة الإباضية.

أما مقالته الأخيرة عن الإمامة الإباضية التي نشرها في مجلة معهد الدراسات الشرقية والأفريقية⁽³⁾ فتكاد تكون ترجمة لما ورد من معلومات عن الإمامة في مخطوطة كنز الأديب وسلافة اللبيب للصائغي المحفوظة في جامعة كمبردج⁽⁴⁾, والحقيقة أن ولكنسون قد تكلم في هذه المقالة عن الإمامة في وقت الظهور أي ما يسمى في المصادر الإباضية بإمامة البيعة أو إمامة الظهور, ولم يشر فيها إلى إمامة الكتمان وهي التي تهمنا في البحث عن نشأة الحركة الإباضية, ولما كانت اهتمامات ولكنسون محصورة - حتى الآن - في تاريخ عمان فإن الأمثلة التي أوردها في هذا المثال مأخوذة من تاريخ تطور الإمامة في ذلك القطر, ورغم عدم استقصاء المؤلف للمصادر الإباضية المختلفة التي عالجت هذا الموضوع فإن بحثه عن الإمامة مفيد لطالب التاريخ المحلي العماني ولأولئك الذين يبحثون في تاريخ الحركة الإباضية بعد انتصار دعوتها وتأسيس الدولة الخاصة بها.

ولم يقتصر اهتمام الأوربيين بدراسة تاريخ الحركة الإباضية على الناحية السياسية, بل التفتوا أيضا إلى دراسة العقيدة الإباضية من جوانبها المختلفة ومقارنتها بالمذاهب الإسلامية الأخرى, وأول من فتح الباب في هذا المجال هو المستشرق موتيلنسكي Motylinski الذي نشر في عام 1905م ترجمة بالفرنسية لكتاب عمرو بن جميع المتعلق بالعقيدة الإباضية⁽⁵⁾.

(1) L. C. Wilkinson, " The origins of the Omani state", In Arabian Peninsula, ed. P. H. Wood, London. 1972

(2) L. C. Wilkinson, " The Julanda of Oman", Journal of Omani studies, London- Muscat (1976). Pp, 97-108

(3) J. C. Wilkinson, " The Ibadi Imama", B.S.O.A.S. vol. 39, pp. 535-551.

(4) Salim b. Sa'id al-saighi, kanz al- Adid wa sulatat al – Labib Cambridge University Library, Ms, no. (Add. 2896)

(5) A. de C. Motylinski, " L' Aqide des Abadhites", Recueil de Me'moires et de Textes Publies en L'onneur du XIV congris des Orientalistes, Algier (1905)

وفي عام 1916 نشر المستشرق الإيطالي المعروف نللينو بحثاً عن تأثير المعتزلة في العقائد الإباضية مركزاً بحثه على إباضية شمال أفريقية، والبحث عبارة مقالة قصيرة بين فيها الكاتب العلاقات بين المعتزلة والإباضية من الناحية الفكرية، ولا يوجد في هذا البحث المختصر ما يفيدنا في حديثنا عن نشأة الحركة الإباضية في المشرق⁽¹⁾.

وفي عام 1928 كتب المستشرق Smogorzewski بحثاً عن العلاقة بين المذهبين المالكي والإباضي في شمال أفريقية، وقد اعتمد المؤلف في هذه الدراسة على ما جاء في قصيد إباضية مجهولة المؤلف⁽²⁾.

وفي عام 1964 نشر المستشرق الإيطالي Rubinacci بحثاً جيداً عن العقيدة الإباضية اعتماداً على كتاب عقيدة التوحيد للمؤلف الإباضي، أبي زكريا الجناواني⁽³⁾، وقد وضح هذا المستشرق العلاقة بين المذهب الإباضي (كما شرحه الجناواني) وبين المذاهب الإسلامية الأخرى، وأرفق الدراسة بترجمة إيطالية لكتاب الجناواني الآنف الذكر⁽⁴⁾.

ولكن المؤلف لم يعط معلومات هامة عن نشأة الحركة في البصرة، وقد أورد ملخصاً لهذه المعلومات في مقالته التي نشرها بالإنجليزية في كتاب الدين في الشرق الأوسط⁽⁵⁾، وقد نشر هذا العالم بحثاً آخر في الفقه الإباضي قارن فيه بين موضوع الطهارة عند الإباضية والموضوع نفسه عند أتباع المذاهب والفرق الإسلامية الأخرى⁽⁶⁾، وللمؤلف بحث آخر حول العلاقة بين الإباضية والخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان⁽⁷⁾، وقد أعتمد المؤلف في بحثه هذا على الرسائل التي بعث بها عبد الله بن أباض إلى الخليفة المذكور، وقد وردت هذه الرسائل (أو النصائح كما يسميها الإباضية) في كتاب الجواهر المنتقاة للبرادي، وفي كتاب كشف الغمة للأزكوي، ولعلها موجودة في مصادر أخرى لم أتمكن من الاطلاع عليها، على أن أهم من كتب عن الإباضية والذي يجب أن نغير بحوثه اهتماماً خاصاً هو المستشرق البولندي ليفتسكي Lewicki فقد نشر هذا العالم مقالات وبحوثاً عديدة حول مختلف أطوار الحركة الإباضية ونشاطاتها منذ بداية ظهورها حتى يومنا هذا⁽⁸⁾، ومعظم دراساته تتناول تاريخ الحركة في شمال أفريقية، ويؤخذ عليه التكرار في كثير من بحوثه فهو ينشر بحثاً مثلاً عن الإباضية في شمال أفريقية ثم يعود فيكرر المعلومات نفسها في مكان آخر وبعبارة أخرى يختص بجزء من شمال أفريقية مثل تونس أو غير ذلك، ورغم ذلك فإن بحوثه عن تاريخ الحركة الإباضية في شمال أفريقية تعد أفضل البحوث المنشورة إلى الآن⁽⁹⁾، ولعل مرد ذلك يعود إلى أنه زار المنطقة وعاش فيها مدة من الوقت - كما ذكرنا سابقاً - مما أتاح له الاطلاع على المصادر الإباضية، كما تعرف عن كثر على المجتمعات الإباضية وتنظيماتهم الخاصة بهم، هذا بالإضافة إلى أن ليفتسكي قد استفاد بشكل جيد من المخطوطات

(1) C. A. Nallino, "Rapporti fra la Dogmetico Mu'tazilite e quella degli Ib'aditi dell' Africa Settentrionale" R.S. O., Vol 7, pp. 455-460

(2) Z. Smogorzewski, "Un po'eme ab'adite sur certaines divergences enter les M'alikites et les Ab'adites" Reoknik Orientalistyezay, vol.2 pp 260 - 268

(3) طبع هذا الكتاب طبعة حجرية في الجزائر عام 1325هـ.

(4) R. Rubinacci, "La professione di fede di al-Gann'awuni" A.I.O.N, Vol 14, (1964) pp. 552-592

(5) R. Rubinacci, "The ib adis", Religion in the Middle East, vol. 2, pp. 302 317

(6) R. Rubinacci, "La purita rituale secondo gli Ib'aditi", A.I.O. N, N. S. vol. 6 (1954 -6) pp. 1-41.

(7) R. Rubinacci, "Il califfo 'Abd al- Malik b. Marwan e gli Ib'aditi" A.I.O. N.

(8) عن الدراسات التي قام بها هذا المستشرق أنظر قائمة المراجع الأجنبية المثبتة في نهاية بحثنا.

(9) هناك رسالة دكتوراه باللغة الفرنسية غير منشورة كتبها الدكتور إبراهيم فخار المدرس بف جامعة وهران بالجزائر، وهو نفسه إباضي وتتناول الرسالة دراسة المجتمعات الإباضية في شمال أفريقية منذ العهد الفاطمي وفضلهم على الدولة الرستمية عام 297هـ، وقد أشرنا للرسالة في الصفحات السابقة.

المحفوظة في بولونيا، كما انه يملك عددا من المخطوطات الإباضية مثل سير الوسياني والوارجلاني وغيرها، وعلى أية حال فإن أهم بحوثه التي تقيدها في موضوع دراستنا هو مقالته عن الإباضية في الطبعة الثانية من الموسوعة الإسلامية، ولعلها الدراسة الوحيدة الهامة باللغات الأوروبية التي تلقي ضوءاً على نشأة الحركة الإباضية في البصرة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، وقد كرر المعلومات الواردة في هذا البحث في مقالة أخرى نشرها في مجلة تاريخ العالم التي تساعد منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة على إصدارها⁽¹⁾.

ورغم أهمية دراسته عن نشأة الحركة الإباضية في البصرة في الفترة الأولى من تكوين فرقته فقد جاء بحثه ناقصاً في كثير من الجوانب نتيجة لعدم اطلاعه على بعض المصادر الإباضية، والتي تحوي معلومات جديدة ومفيدة حول هذا الموضوع، أضف إلى ذلك فإن ليفتسكي Lewicki لا يعير اهتماماً للمصادر السننية في بحوثه مما يؤدي به إلى أن يعطي آراء ينقضها بصراحة، المصادر السننية المتوافرة، من أمثلة ذلك قوله إن سلمة بن سعد، الداعية الإباضي في شمال أفريقية، كان من بين العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبد العزيز، لتعليم البربر مبادئ الدين الإسلامي، ولو رجع لقائمة العشرة الذين أرسلهم الخليفة المذكور والمثبتة أسماؤهم في المصادر السننية لما ظهرت هذه العبارة في دراسته⁽²⁾، في بعض الأحيان نراه يسيء فهم بعض النصوص الواردة في المصادر أو يتكلف كثيراً في استنتاجاته، كما فعل عندما أشار إلى إن يزيد ابن أبي مسيلم كاتب الحجاج بأنه من الخوارج⁽³⁾، لأنه كان على علاقات ودية مع جابر بن زيد، أمام الإباضية، وهذا يناقض مع الحقيقة المعروفة والمثبتة في كل المصادر، السننية منها والإباضية، بأن يزيد كان التلميذ والخادم المخلص لسيده، الحجاج، الذي قمع الخوارج بدون هوادة، ليس هذا فحسب بل أن يزيد نفسه قد لاقى حتفه على أيدي الخوارج عام 102هـ، عندما عين والياً على أفريقية زمن الخليفة يزيد بن عبد الملك⁽⁴⁾، بالإضافة إلى ما ذكرنا فإن هناك بحوثاً أخرى عن بعض جوانب تاريخ الحركة الإباضية أو تاريخ الأقطار التي انتشرت فيها تلك الدعوة، وتعتبر أقل أهمية من الدراسات التي أشرنا إليها في الصفحات السابقة، وسيروى القارئ ثبناً بعناوين تلك الدراسات والبحوث في قائمة المراجع الأجنبية المرفقة في هذا البحث.

يبدو من استعراض الدراسات الحديثة التي قام بها المستشرقون أنهم (باستثناء ليفتسكي) أهملوا الفترة الأولى من تاريخ الحركة، وهي فترة التكوين والتنظيم السري في البصرة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين، ولعل مرد إلى ندرة المصادر التي تتكلم عن هذا الموضوع وإلى صعوبة استقصاء المعلومات المتوافرة في المصادر الموجودة، وذلك لأن الباحث سيجد نفسه مضطراً لأن يكتب تاريخاً لحركة سرية معتمداً في ذلك على مصادر إباضية لم تفرد عناوين أو فصولاً خاصة بالموضوع، بل أن المؤلفين الإباضيين لم يخطر لهم أن من واجبهم الخوض في هذا الموضوع، وإجلاء غوامضه إلا من خلال الحديث عن مشايخ وأشخاص لهم مكانة خاصة في نفوس أتباع هذه الفرقة ومن هنا فإن على الدارس لهذه الفترة أن يجمع معلوماته ويرتبها من الروايات المتفرقة والمبعثرة في كتب الطبقات الإباضية، وأحياناً فإن عليه أن يحلل ويستنتج بناء

(1) قارن: T. Lewicki, "ibadiyya" E.I, and T. Lewicki: "The Ibadites in Arabia and Africa", Translated by Marianna Abahamowicz cahiers D'Histoire Mondiale, vol. 13, part I (1971) pp. 51-80

(2) عن هؤلاء العلماء العشرة الذين بعثهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز إلى شمال أفريقية أنظر: المالكي، رياض النفوس، ج1، ص64-76، أبو العرب، طبقات علماء أفريقية وتونس، ص84-87.

(3) T. Lewicki, "Ibadiyya, E. 1 (2).

(4) ابن خلدون، عبر، ج6، ص220-221.

على استقرار وتفحص عميق للأساطير والكرامات المنسوبة إلى بعض أئمة ومشايخ الإباضية حتى يكون صورة أقرب ما تكون إلى الوضوح عن هذا الموضوع الغامض، بالإضافة إلى ذلك فإن معظم المصادر الإباضية أما مخطوط أو مطبوع على الحجر، وبذلك يصعب على الباحث الاستفادة منها لعدم وجود الفهارس أو لعدم وضوح الخط، وعليه بالتالي أن يقرأ مجلدات بكاملها حتى يحصل على رواية مفيدة أو إشارة قد تنير له السبيل في هذا الشأن، والحقيقة، وبناء على تجربتي الخاصة، أن الباحث قد يقرأ مؤلفاً مخطوطاً مكوناً من عدة مجلدات ثم لا يخرج منه بشي مفيد في دراسته نشأة الحركة الإباضية في مرحلتها السرية، أما عن العقيدة والفقہ الإباضي فإن المعلومات كثيرة ومتوافرة ويمكن الحصول عليها، لأن الكتاب الإباضية المتأخرين قد اعتنوا بهذه المواضيع عناية كبيرة وكتبوا فيها أسفاراً ضخمة، اعتقاداً منهم بوجوب بحفظ عقيدتهم من الزوال، وكانت معظم هذه المؤلفات تحفظ في أماكن سرية حتى لا تتعرض للتدمير من جانب أعدائهم في المذهب كما حصل للمكتبة المعصومة في مدينة تاهرت الإباضية التي أحرقتها الفاطميون عندما استولوا على المدينة في عام 297هـ.

بالإضافة إلى العقائد والفقہ فإننا نلاحظ أيضاً توافر المعلومات فيما يتعلق بالإباضية في مرحلة الظهور، وبعد أن كونوا دولا خاصة في عمان وشمال أفريقية، والواقع أن هذه المعلومات يمكن الحصول عليها من المصادر السنية والشيعية أيضاً بالإضافة إلى المصادر الإباضية، ويمكن للباحث بعد التحليل والنقد أن يتوصل إلى نتائج مقبولة في هذا المضمار، وليس من الغريب بالتالي أن نرى معظم أبحاث الأوربيين قد انصبت على تاريخ الحركة الإباضية في شمال أفريقية ثم في عمان بعد تأسيس إمارة الظهور والدول الإباضية في تلك الأقطار، أما نصيب التنظيم السري (أو ما يعرف بمرحلة الكتمان) للفرقة الإباضية في البحوث والدراسات الأوروبية الحديثة فلا يعدو - كما رأينا - الإشارات العابرة المقتضبة للدعاة أو حملة لعلم الذين أرسلوا إلى الأمصار الإسلامية لنشر الدعوة فيها بعدا عن أنظار ومتناول السلطة المركزية في العراق.

أما الدراسات العربية عن الفرقة الإباضية في قليلة جدا، ومعظم ما كتب حول هذا الموضوع يتعلق بتاريخ الثورات والدول الإباضية في بلاد المغرب و عمان، وحتى السنوات الأخيرة فإن البحوث التي ظهرت في هذا الشأن عبارة عن أصول من كتب تعالج تاريخ منطقة معينة تضم عددا من الإباضية بين سكانها مثل بلاد المغرب، أو مقالات تعالج ثورات الإباضية ضد الولاة والحكام في العصور الإسلامية، ومن المؤلفات التي تناولت مثل هذه المواضيع كتاب تاريخ المغرب العربي للدكتور سعد زغلول عبد الحميد، أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإسكندرية، وقد تكلم فيها بإسهاب عن ثورات الإباضية ضد الولاة الأمويين والعباسيين، كما حصص الفصل الثاني من الباب الخامس للحديث عن تاريخ الدولة الرستمية الإباضية، وقد اعتمد المؤلف على المصادر السنية المطبوعة المخطوطة كما استفاد بشكل جيد مما ورد في كتاب السير للشماخي الإباضي المذهب، وتعد دراسته مرجعاً هاماً لطلاب المغرب العربي⁽¹⁾.

وفي عام 1973 نشر رفعت فوزي عبد المطلب كتابا بعنوان: الخلافة والخوارج في المغرب العربي: الصراع بينهما حتى قيام دولة الاغالبية، وقد تحدث فيها عن ثورات لخوارج الصفرية والإباضية في شمال أفريقية في الفترة المذكورة، وقد اعتمد في بحثه على بعض المصادر الإباضية مثل سير الشماخي بالإضافة إلى المصادر السنية المعروفة، وقد جاءت آراؤه

(1) د. سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، ص 281-398.

موضوعية ومتوازنة، ورغم أنه عرض في الفصل الأول من دراسته لنشأة الخوارج في المشرق إلا أنه ردد أقوال كتب الملل والنحل والآراء التقليدية حول هذا الموضوع، ولم يأت بجديد حول تكون الفرقة الإباضية في البصرة رغم إشارته المقتضية إلى حملة العلم الذين أرسلهم أئمة البصرة إلى بلاد المغرب لنشر المذهب الإباضي هناك⁽¹⁾.

وفي نفس العام (1973م) نشر الدكتور محمد إسماعيل عبد الرازق كتابه: الحركات السرية في الإسلام، رؤية عصرية، وقد أشار المؤلف إلى أن الحركة الإباضية كانت إحدى هذه الحركات السرية، كما لمح لدور علماء البصرة ومشايخها في تدريب الدعاة (حملة العلم) الذين افدوا إلى الولايات الإسلامية المختلفة للتبشير بالدعوة الإباضية، ولكن ما قاله في هذا الموضوع لا يعطي صورة واضحة عن نشأة الحركة الإباضية وتنظيماتها السرية، وقد أعترف الكاتب بأن الصورة التي رسمها حول هذا الموضوع هي «صورة باهتة» لعدم توافر المصادر الكافية⁽²⁾، وفي عام 1976 نشر المؤلف نفسه كتاباً آخر سماه: الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، وقد تحدث فيه بإسهاب عن حركات الخوارج ودولهم في شمال أفريقيا منذ بداية تسرب الآراء الخارجية لتلك المنطقة في أواخر القرن الأول الهجري حتى قضي على قوتهم السياسية كلياً على أيدي الفاطميين، وقد اعتمد الدكتور محمود إسماعيل في بحثه هذا على مصادر سنيو وشيعية وفيرة كما استفاد من بعض المخطوطات الإباضية المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة.

أما عن نشأة الحركة الإباضية في المشرق فلم يقدم أية معلومات ذات شأن، إلا أن المؤلف بذل جهداً مشكوراً في دراسة تاريخ الحركة في شمال أفريقيا ودرس بعمق تاريخ الدولة الرستمية من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية⁽³⁾.

أما كتاب الإباضية بالجريد الذي وضعه صالح باجي، فلا يزودنا بأية معلومات ذات قيمة عن نشأة الحركة في المشرق، وركز الباحث كلامه على تاريخ الإباضية في منطقة الجريد، جنوب تونس، أما حديثه عن تسرب الدعوة إلى بلاد المغرب فيبدو ولم يأت بجديد، كما أن خطة البحث مضطربة وأبواب الكتاب غير منسقة، رغم ذلك فإن اطلاع المهتمين، بدراسة تاريخ الحركة في شمال أفريقيا، على هذا الكتاب لا يخلو من الفائدة وخاصة أنه أسهب في الحديث عن تاريخ الحركة في تلك المنطقة من النواحي السياسية والاقتصادية والفكرية وأثر ذلك في تاريخ المغرب، ويعطي بعض المعلومات المفيدة عن علاقة الإباضية ببلاد السودان الغربي.

بإضافة إلى هذه الدراسات فإن الباحث في تاريخ الخوارج والإباضية في شمال أفريقيا يمكنه الاستفادة من مؤلفات الدكتور إحسان عباس⁽⁴⁾ والأستاذ الطاهر الزاوي⁽⁵⁾ وحسن حسني عبد الوهاب⁽⁶⁾ والدكتور حسين مؤنس⁽⁷⁾.

أما المؤلفات الحديثة التي كتبها أشخاص ينتمون إلى الفرقة الإباضية فجهلها تتصل بالعقيدة أو التاريخ المحلي للبلاد التي يعيشون فيها، وهب في محتوياتها لا تختلف عن الأمصار

(1) رفعت فوزي عبدالمطلب، الخلافة والخوارج في المغرب العربي، الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغلبية، القاهرة، 1973م.

(2) محمود إسماعيل عبدالرازق، الحركات السرية في الإسلام، رؤية عصرية، القاهرة، 1973م، ص 27، 30-32.

(3) محمود إسماعيل عبدالرازق، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، الدار البيضاء، 1967م.

(4) إحسان عباس، تاريخ ليبيا، بيروت، 1967م.

(5) الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، القاهرة، (بلا تاريخ).

(6) حسن حسني عبد الوهاب، ورفات في الحضارة العربية بأفريقية، تونس، 1966م.

(7) حسين مؤنس، ثورات البربر في أفريقيا والأندلس، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة (1948م) ج 10، ص 143-216.

الإباضية القديمة إلا في الأسلوب، ومن أهم هؤلاء المؤلفين الإباضيين المحدثين: أبو اسحق أطفيش وبيوض إبراهيم ابن عمر والراروني وعلى يحيى معمر ومحمد علي دبور من شمال أفريقية، ونور الدين السالمي والبياسي وسالم بن حمد الحارثي من عمان، وسأشير هنا إلى دراسات بعض هؤلاء المؤلفين التي تلقي بعض الضوء على موضوع بحثنا عن نشأة الحركة الإباضية في البصرة، ومن أهمها كتاب الإباضية في موكب التاريخ الذي وضعه الشيخ علي يحيى معمر⁽¹⁾، والكتاب في معظمه، عبارة عن معجم عن حياة وأعمال الأئمة والمشايخ والرجال البارزين من الإباضية في مختلف العصور وخاصة شمال أفريقية، بالإضافة إلى لمحات سريعة عن بعض المواقع الجغرافية المأهولة بالسكان الإباضيين في تلك المنطقة. ورغم أن المؤلف قد عرض في كتابه للحديث عن أئمة الإباضية في البصرة في المرحلة التي نحن بصدد الحديث عنها إلا أن معلوماته لا تعدو إن تكون اقتباسات مختارة من كتب الطبقات والسير الإباضية. وبالتالي فإن المؤلف لم يوضح الأسلوب ولا العمل الذي قام به مشايخ الإباضية في البصرة في سبيل نشر دعوتهم، ولا يخلو كتابه من تعصب واضح لفرقة رغم أنه لم يحاول الإساءة إلى الفرقة الإسلامية الأخرى.

أما في كتابه الثاني: الإباضية بين الفرق الإسلامية فقد عالج فيه روايات أصحاب المقالات من قدامى ومحدثين، وكذلك أقوال بعض المستشرقين وحاول تفنيدها، ولكنه لم يتحدث في مؤلفه هذا عن نشأة الفرقة التي ينتمي إليها، وحذا لو قام هذا العالم الإباضي بدراسة نشأة الحركة الإباضية في مرحلتها السرية في القرنين الأول والثاني الهجريين دراسة علمية موضوعية وخاصة أن بإمكانه الاطلاع على كثير من المخطوطات التي لا يتسنى لأحد غير إباضي الاطلاع عليها

ولما كان يحيى معمر يدعو في كتابه للتآلف والمودة بين جميع المذاهب الإسلامية، ويطلب من المفكرين السنيين الاطلاع على المؤلفات الإباضية وسبر أغوارها حتى يدركوا الحقيقة حول عقيدة الإباضية ودورها المجيد في التاريخ الإسلامي، فإن من واجبه العمل على تسهيل هذه المهمة، إذ أن الباحث المسلم- غير الإباضي- يلاقي عنتاً كبيراً وصعوبات لا حصر لها في سبيل الحصول على نسخة من كتاب إباضي مطبوع أو الاطلاع على مخطوطة إباضية محفوظة في المكتبات الإباضية الخاصة، وفي كثير من الأحيان فإن الاطلاع على مخطوطة محفوظة في دار كتب أجنبية معروفة يعتبر أكثر سهولة من الحصول على كتاب إباضي مطبوع في بلد عربي إسلامي خلال العقدين السادس والسابع من القرن العشرين، فهل يسهم عالمنا الإباضي بحل هذه المعضلة؟ أرجو ذلك!

وأما الباروني فقد ألف كتاب الأزهار الرياضية الذي يعتبر مرجعاً هاماً لمن يريد الكتابة عن تاريخ الدولة الرستمية وخاصة أن المؤلف قد اقتبس معلوماته من مصادر إباضية قديمة، والحقيقة أنه في معلوماته وأسلوبه لا يختلف عن كتاب إباضي مؤلف في العصور الإسلامية، ويشير في بعض الأحيان إلى مصادره وفي أحيان أخرى يسبق حديثه عن موضوع معين بكلمة «ممزوج» أي أن الرواية التي أوردها قد استخلصا من مجموعة روايات قديمة ووضعها بالشكل الذي ورد في كتابه، أما موضوع بحثنا فلا يورد معلومات ذات قيمة⁽²⁾.

(1) علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الطبعة الأولى، القاهرة، 1964م.

(2) سليمان بن الشيخ عبدالله الباروني النفوسي، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، القسم الثاني مطبعة الأزهار البارونية (بلا تاريخ).

وهناك مؤلف إباضي آخر من شمال أفريقية هو الأستاذ محمد علي دبوز، أستاذ الأدب والتاريخ في معهد الحياة الإباضي، في ميزاب، وقد ألف كتاباً أسماه: تاريخ المغرب الكبير، واتبع في تأليفه أسلوباً جديداً يختلف عن غيره من مؤرخي الإباضية ومفكرها واستعمل ألفاظاً عصرية مصنفاً الدول الإسلامية في بلاد المغرب في العصور الإسلامية إلى جمهورية وملكية، وفعل مثل ذلك في بعض إشارته إلى المؤرخين المسلمين القدامى، فهو يصف المؤرخين غير الإباضيين بالمؤرخين الملوكيين الذين يدسون أكاذيب مستوحاة من رغبات ساداتهم الحكام، ولا حاجة للإشارة إلى الصفحات التي استخدم فيها مثل هذه الألفاظ فهي موزعة في أبواب الكتاب ولا يخلو أي فصل من مثل هذه العبارات، وقد افاض في كتابه في الحديث عن الإباضية في شمال أفريقية وخاصة تاريخ الدولة الرستمية الإباضية، كما أشار إلى أئمة الإباضية ومشايخها في مرحلة لكتمان ولكن أسلوبه عبارة عن خطب إنشائية بعيدة عن الموضوعية والبحث العلمي الدقيق، ومع ذلك فإن الكتاب لا يخلو من فائدة لطلاب تاريخ المغرب العربي⁽¹⁾.

ويعتبر نور الدين السالمي أشهر مؤرخي عمان في العصر الحديث، وقد أصيب بالعمى وهو في الثانية عشر من عمره، وتوفي في أوائل العقد الرابع من عمره عام 1914، ورغم ذلك فقد أنتج ما ينيف على اثنين وعشرين كتاباً في التاريخ المحلي العماني والعقائد الإباضية، ويعد كتابه المعنون: تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان⁽²⁾، أشهر هذه الكتب وانفعها للباحثين، ويعتمد السالمي في كتابه هذا على كثير من المصادر القديمة التي يذكرها في ثنايا كتابه مثل كتاب أنساب العرب للعوتبي وسيرة أبي المؤثر وأبي سفيان محبوب بن الرحيل، بالإضافة إلى مصادر أخرى غير إباضية مثل المسعودي وابن الأثير وابن خلدون وغيرهما، ويذكر المستشرق ولكسون⁽³⁾ - بعد مقابله لما جاء في تحفة الأعيان بما ورد في المصادر التي نقل عنها - أن السالمي كان أميناً ودقيقاً جداً في اقتباساته، ولما كان الكتاب في معظمه عبارة عن اقتباسات (أحياناً بتصرف لا يخل بالمعنى الأصلي) فغن مؤلفه هذا يعتبر من المراجع الهامة لكل من يريد البحث في تاريخ عمان المحلي وعلاقاتها بجيرانها، بالإضافة إلى تطور الإمامة الإباضية التي تشكل أحد المظاهر الأساسية في تاريخ ذلك القطر منذ بداية القرن الثاني الهجري وحتى يومنا هذا، ويفيد الكتاب في إعطاء معلومات مختصرة عن انتشار المذهب الإباضي في عمان وأسماء حملة العلم الذين ساهموا في نقل الأفكار والمبادئ الإباضية من البصرة إلى عمان، بالإضافة إلى كتاب تحفة الأعيان فإن الباحث يحصل على معلومات متفرقة من كتب السالمي الأخرى وخاصة كتاب اللمة المرضية وكتاب تلقين الصبيان وشرح الجامع الصحيح.

أما كتاب العقود الفضية في أصول الإباضية⁽⁴⁾ الذي ألفه المؤرخ الإباضي المعاصر سالم بن حمد الحارثي العماني فهو من المراجع الهامة أيضاً في تاريخ الحركة الإباضية في المشرق والمغرب ويأخذ المؤلف معلوماته من مصادر قديمة مثل أبي سفيان محبوب بن الرحيل والدرجيني والشمأخي والمبرد وابن الأثير وغيرها، أما ما يتعلق بالإباضية في طورها الأول فهو يقتدي بكتب طبقات الإباضية ويخصص فصلاً لكل إمام، وإذا قارنا ما أورده من معلومات مع المصادر القديمة فإننا نجد أن حديثه عن مشايخ الإباضية القدامى: مثل جابر بن زيد وأبي عبيدة

(1) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، الطبعة الأولى القاهرة، 1963م، عن الإباضية أنظر بشكل خاص الجزء الثالث.

(2) نور الدين السالمي، تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان، الطبعة الخامسة، 1974م.

(3) Wilkinson, " Bio-Bibliographical Background to the Crisis Period in the Ibadi Imamate of Oman", art. Cit., P. 147

(4) سالم بن حمد الحارثي، العقود الفضية في أصول الإباضية، دار البقعة العربية في سوريا ولبنان (بلا تاريخ)، عن أئمة الإباضية في البصرة، أنظر الصفحات 93 وما بعدها.

يكاد يكون منقولاً عن طبقات الدرجيني, وهو ينقل بأمانة ولكن بتصريف ولذا فإن كتابه هذا يعطي بعض المعلومات عن الحركة الإباضية في طورها السري من خلال الحديث عن أئمة المذهب الأوائل, وقد أشرنا إلى هذه المعلومات في ثنايا هذا البحث.

يتبين من خلال هذا العرض التحليلي السريع لدراسات الحديثة حول الإباضية, أنها قد اهتمت بالمراحل المتأخرة من تاريخ الحركة الإباضية ولا تعطي معلومات هامة عن نشأة الحركة وتنظيماتها السرية في البصرة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين, والبحث الوحيد الذي أعار هذه القضية اهتماماً خاصاً هو بحث المستشرق البولندي Lewicki الذي أشرنا إليه في الصفحات السابقة.

الباب الثاني

الفصل الأول

تطور الخلافة وأثرها في ظهور الخوارج

كانت مشكلة الخلافة أول مسألة اشتد فيها الخلاف بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ، وخاصة أنه لم يرد في القرآن الكريم نص صريح يتم بموجبه اختيار رئيس الدولة، كما أن الرسول ﷺ لم يعين الشخص الذي سيتولى زعامة المسلمين بعده⁽¹⁾، ونظراً لذلك تشعبت آراؤهم حول منصب الخلافة وتمخض الخلاف في هذا الموضوع عن أهم الفرق الإسلامية في صدر الإسلام، كالخوارج والشيعة، ولفهم الظروف التي نشأت فيها تلك الفرق، لا بد من إعطاء لمحة سريعة عن تطور منصب الخلافة، وأثر ذلك في هذه الفرق وخاصة الخوارج أو المحكمة، الذين انبثقت عنهم الفرقة الإباضية.

وضعت وفاة الرسول ﷺ الأمة الإسلامية أمام مشكلة خطيرة ألا وهي مشكلة خلافة الرسول عليه السلام وقيادة الأمة، والإشراف على شؤونها من الناحيتين الدينية والدنيوية، أما الناحية الدينية فقد اكتملت قواعدها ورسخت جذورها، وقد أكد ذلك قول الله تعالى [اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً]، إلا أن هذا الدين لا بد له من يحميه ويعمل على انتشاره في مناطق جديدة لم تصل إليها الدعوة من قبل، وخاصة أن الدين الإسلامي دين عالمي ليس مقصوراً على العرب وحدهم ولا محدوداً بالجزيرة العربية، ومن الناحية الدنيوية لا بد للأمة من قائد وزعيم يحافظ على المكتسبات التي أحرزتها في ظل الإسلام، وتتمثل هذه المكتسبات في الوحدة في الوحدة والعدالة ونبذ العصبية الجاهلية، وقد حض الإسلام على التمسك بها في قوله تعالى [واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم]، والحفاظ على هذه المكتسبات وصيانتها تقتضي وجود زعيم يشرف على تطبيقها في الداخل، ويرد عنها غائلة الأعداء من الخارج.

وأدركت الأمة أن مصلحتها تحتم عليها أن تختار لنفسها زعيماً يقوم بحمل المسؤولية وتبدير شؤون الدولة الإسلامية الفتية، وقد رأى الأنصار أنهم أحق من غيرهم في هذه الزعامة، فأسرع بعض قادتهم ووجهائهم إلى سقيفة بني ساعدة ليختاروا من بينهم رجلاً كفواً خلفاً لرسول عليه السلام، معتقدين بأنهم أولى من غيرهم لتولي هذا المنصب، وحجتهم في ذلك أنهم هم الذين آووا الرسول ونصروه في زمن عسرتة، وأعزوه دينه ومنعوه وأصحابه ممن أراد بهم سوء، ورشحوا سعد بن عباد الخزرجي لمنصب الخلافة وقيادة الأمة الإسلامية، وعندما سمع المهاجرون بذلك سارع عدد منهم إلى السقيفة، من بينهم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة عامر ابن الجراح، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم، وعندما وصلوا السقيفة تكلم أبو بكر وقال بأحقية المهاجرين في الخلافة، لأنهم سبق الناس إسلاماً وأنهم أهل الرسول ﷺ وعشيرته، وقد تحملوا المشاق وتركوا أموالهم وبيوتهم وهاجروا بدينهم إلى المدينة، وذكر الأنصار بأهمية قريش بين القبائل العربية وقال: «إن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش وهم أوسط العرب داراً ونسباً»⁽²⁾، وأكد عمر بن الخطاب هذا المبدأ

(1) باستثناء الرواية الشيعية التي تدعي أن الرسول ﷺ قد أوصى لعلي بن أبي طالب بالخلافة.

(2) الطبري، ج3، ص205-206.

عندما قال مخاطباً الأنصار: « والله لا ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم، لكن العرب لا تمنع أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم، ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة والسلطان المبين، من ذا ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيرته»⁽¹⁾، ثم حدث نقاش وجدل بين الطرفين وانحازت الأوس إلى المهاجرين خشية أن تبقى الخلافة في الخزرج إن وليها أحدهم، وقد عبر زعيم الأوس، أسيد ابن حضير، عن ذلك عندما خاطب أصحابه قائلاً: « والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيباً أبداً...»⁽²⁾، ثم دب النزاع بين الخزرج أنفسهم عندما قام بشير ابن سعد، أبو النعمان بن بشير الخزرجي، وهو من زعماء الخزرج، فأكد حق المهاجرين وأفضليتهم، ودعا إلى عدم منازعتهم هذا الأمر⁽³⁾، وهكذا تطور النقاش في السقيفة لصالح المهاجرين وفازوا بما اعتبروه حقاً لهم، وأشار أبو بكر على المجتمعين أن ينتخبوا عمر بن الخطاب أو أبا عبيدة إلا إن الاثنين رفضا الأمر وناديا بمبايعة أبي بكر لأنه أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين»⁽⁴⁾، وتمتبيعة أبي بكر واستطاع المسلمون أن يتغلبوا على أول مشكلة هامة واجهتهم بعد فقد رسولهم وزعيمهم محمد p

ويلاحظ في علمية انتخاب أبي بكر امتزاج العادات والتقاليد العربية بالتعاليم الإسلامية. ففكرة الانتخاب وعدم قبول مبدأ الوراثة فكرتان مأخوذتان من التقاليد العربية التي كان العرب يستندون إليها في انتخاب شيخ القبيلة، وكذلك كبر السن والتجربة والخبرة فيهي عادات عربية تؤخذ بعين الاعتبار عند انتخاب الشيخ أو الزعيم ولم يلغها الإسلام لأنها لم تتعارض مع مبادئه، أما اشتراط موافقة المسلمين على عملية الانتخاب وعدم الاقتصار في ذلك على موافقة أسرة الرجل أو قبيلته فهي فكرة إسلامية وبذلك أصبح الخليفة زعم أمة ورئيس دوله وليس شيخ قبيلة.

وتمثل الاتجاه الإسلامي أيضاً بتفضيل السابقين في الإسلام ألا وهم المهاجرين ثم بتقديم أبي بكر رضي الله عنه9 لصحبته لرسول الله عليه السلام وأسبقيته وتقويض الرسول له بإمامة المسلمين في الصلاة أثناء مرضه⁽⁵⁾.

وعندما شعر أبو بكر بدنو أجله أحس بضرورة العهد من بعده حتى يجنب المسلمين الفتنة والاختلاف، وقد عبر ذلك بقوله: «اللهم إني لم أرد بذلك إلا إصلاحهم (المسلمين) وخفت عليهم الفتنة»⁽⁶⁾. ووجد أبو بكر - بعد تفكير عميق أن عمر بن الخطاب هو أكفأ الصحابة الموجودين لتولي قيادة الأمة الإسلامية في تلك الظروف التي كانت الجيوش الإسلامية فيها مشتبكة مع دولتي الفرس والروم فقد كان عمر أفضل الموجودين خبرة وأكثرهم نفوذاً في خلافة أبي بكر، هذا بالإضافة إلى أن خدماته الجلييلة للإسلام لا ينكرها أحد أضف إلى ذلك أنه لم يكن من فرع بارز من قريش وبذلك لن يخاف أحد من استبداد عشيرته وأقاربه في الحكم. ولم يشأ أبو بكر أن يستبد بالأمر ويفرض رأيه على المسلمين بل شاور كبار الصحابة الموجودين في المدينة ولقي تجاوباً

(1) الطبري، ج3، ص220-221.

(2) الطبري، ج3، ص221-222.

(3) الطبري، ج3، ص221.

(4) الطبري، ج3، ص221.

(5) الدوري، مقدمة، بيروت، 1960م، ص48.

(6) بلاذري، أنساب، ج2، ص243.

من معظمهم⁽¹⁾. وبعد ذلك أملى أبو بكر على عثمان بن عفان وثيقة عهده لعمر بن الخطاب وجاء فيها «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي فحافة في آخر عهده في الدنيا خارجاً منها، وعند أول عهده بالآخرة داخلها فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن المرتاب الفاجر ويصدق الشاك المكذب، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، فإنني لم آلا الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً، أردت ولا يعلم الغيب آلا الله.....»⁽²⁾ كان هذا العمل من جانب أبي بكر سنة جديدة فينتطور منصب الخلافة ذلك أنه اختار ولياً للعهد من غير أقاربه⁽³⁾. ولم يترك الأمر للمسلمين للتشاور فيه. وقام هو بنفسه بهذه الاستشارة في حدود طاقته وبالقدر الذي تسمح به الظروف التي كانت تمر بها الدولة. ولكنه حمل عمر المسؤولية في تنفيذ الأمانة، وحمل الأمة مراقبة منهجه في الحكم كما يتضح من العبارات المقتضبة التي أملاها أبو بكر على عثمان في وثيقة العهد.

ويبدو أن عمر بن الخطاب قد فكر قبل أن يتلقى طعنات خنجر أبي لؤلؤه الفارسي المسمومة فيمن يحمل المسؤولية بعده، وكانت تراوده فكرتان: الأولى أن يستخلف واحد من الصحابة ولكنه لم يكن مطمئناً لرجل بعينه⁽⁴⁾. والثانية أن يترك الأمر للمسلمين لاختيار من يريدونه⁽⁵⁾، وقعد إن طعن عمر في المسجد وحمل إلى بيته استقر رأيه - بعد إلحاح من الصحابة بضرورة لاستخلاف علي أن يجعل الأمر شورى. وقد حددها في ستة من الصحابة هم: علي بن أبي طالب، عثمان بن عفان، طلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام. وقد بين عمر أسباب اختياره لهؤلاء نفر من الصحابة بقوله: (إني نظرت فوجدتكم رساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر آلا فيكم، وقد قبض رسول الله وهو عنك راض»⁽⁶⁾. ثم أرفق قائلاً: (إني لا أخاف اختلاف الناس عليكم إن استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيختلف الناس...»⁽⁷⁾. وحدد عمر مدة الشورى بثلاثة أيام وعين صهيبي الرومي ليؤم الناس في الصلاة، ووكّل للأنصار مهمة مراقبة الشورى، وحث المؤتمرين على الألفة وعدم الاختلاف. واجتمع مجلس الشورى وطالت المناقشات ثم عهدوا إلى عبد الرحمن بن عوف ليقوم باستطلاع رأي المسلمين ممثلين بوجهائهم وقياداتهم في المدينة، وتشير بعض الروايات إلى أن عبد الرحمن بن عوف قد وسع نطاق مشاوراته حتى أنه استشار ضعفاء الناس ورعاهم⁽⁸⁾. واستقر ريه على إن قوى المرشحين المفضلين للناس هم علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان رغم أن أكثريتهم كانت تفضل عثمان. وربما كان ذلك ناتجاً عن دعاية قام بها الأمويون في المدينة - وهم كثر لصالح شيخهم عثمان، ومن المحتمل أن قريشاً لا تريد أن يتولى الخلافة أحد من بني هاشم حتى لا تبقى الخلافة فيهم. وقد عبر علي بن أبي طالب عن هذا الاتجاه لدى

(1) تردد قليل من الصحابة في قبول ترشيح عمر إما لأنهم يفضلون علياً أو لأن بعضهم رأى أن عمر شديد، وعلى أية حال فإن هذه المعارضة لم تنسجم بالتطرف والعنف. أنظر: بلاذري، ج2، ص243-244، الطبري ج3، ص433، الإمامة والسياسة، ج1، ص19، ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ص44-45.

(2) بلاذري، ج2، ص243. أنظر أيضاً: الطبري، ج3، ص429، ابن الجوزي، سيرة عمر بن الخطاب ص82، ابن أعم، ج1، ص152. (3) يورى عن أبي بكر أنه خاطب أصحابه وقال: «إني والله ما ألوت من جهة الرأي ولا وليت ذا قرابة»، أنظر: الطبري، ج2، ص428. (4) يظهر عدم اطمئنانه لاختيار واحد معين من بينهم من ملاحظاته على كل منهم: فقد كان يخشى من علي كونه رجلاً فيه دعاية وبطالة وفكاهة، ومن عثمان عصبية وحيه لأهله وقومه، وحملهم على رقاب الناس، أما عبد الرحمن بن عوف فإن فيه ضعف، وأما طلحة فيخشى كبريائه وزهوه، ويأخذ على سعد أنه صاحب حرب لا يصلح للسياسة، وأما الزبير فيخشى حدته وبعض الشج لديه، أنظر الماوردي، ص11-12، بلاذري، ج5، ص16-17، الإمامة والسياسة، ج1، ص24-25، اليعقوبي ج2، ص158-159، ابن أبي الحديد، ج1، ص185-186.

(5) بلاذري، ج1، ص542-543، ج5، ص15-18.

(6) الطبري، ج4، ص228.

(7) الطبري، ج4، ص288.

(8) الطبري، ج4، ص231-233، الإمامة والسياسة، ج1، ص26.

قريش بعد بيعه عثمان فقال : «إن بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم» (1).

جعل عبد الرحمن بن عوف العمل بكتاب اله وسنة نبيه وسيرة الخلفيتين من بعد أساس الترشيح (2). وفي اليوم الرابع من انعقاد مجلس الشورى اجتمع المسلمون في المسجد الجامع ، وتقدم عبد الرحمن بن عوف من علي وطلب منه أن يقسم بأنه سيعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفيتين الراشدين من بعده، ولكن علياً رفض ذلك وأعلن أنه سيعمل بكتاب الله وسنة نبيه وبمبلغ علمه وجهده وطاقته (3). ول يشأ أن يقيد نفسه بسياسة اتبعها أسلافه في ظروف مختلفة، حبذا العمل بكتاب الله وسنة رسوله والاجتهاد فيما يشكل عليه من أمور تكون وليده الظروف والتطورات التي تمر بها الدولة الإسلامية ووافق عثمان بن عفان على الشروط والأسس التي وضعها عبد الرحمن بن عوف وأعلن موافقته على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وأن يسير على سنة الخلفيتين من قبله (4). وتمت بيعه عثمان في ذي الحجة من عام 24هـ. وفي خلافته واجهت الأمة الإسلامية أخطر محنة مرت بها بعد حروب الردة، وهو ما عرف في التاريخ باسم الفتنة. وقد أسهبت المصادر الإسلامية في الحديث عن الفتنة وأسبابها واختلف المؤرخون في تفسيرها، ولا يتسع المجال للحديث عنها في هذه الصفحات لأن ذلك يخرج بنا عن نطاق البحث ، ويكن للقاري أن يعود آلي المصادر والمراجع المختلفة التي تتناول هذا الموضوع بالتفصيل والتحليل ثم ينكون لنفسه رأياً أو يتفق مع آخر، طبق لقناعاته واجتهاداته وفقاً لمقاييس العلمية والموضوعية التي يضعها لنفسه والأسس المنهجية التي يتبناها في محاولته الوصول إلى الحقيقة (5). ويبدو أن الثورة على عثمان لم تكن ثورة دينية بحتة ، كما أنها لم تكن موجهة ضد شخص عثمان بالذات وإنما ضد الخليفة كائناً من كان. لقد كانت ثورة القبائل العربية ضد قريش لاستئثارها بالسلطة والمال وهي أيضاً ثورة المقاومة ضد السياسة المالية التي انتهجها عمر بن الخطاب وسار عليها عثمان . وهي بالتالي ثورة الأمصار ضد سلطة الحجاز والمدينة وانتهت هذه الثورة بمقتل الخليفة الذي يمثل تلك السلطة.

لقد كان مقتل الخليفة عثمان سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام إذ أن فريقاً من الأمة اعترض على سياسة الخليفة، مستنداً إلى الفكرة الإسلامية التي توجب مراقبة الأمة على منهج الحاكم ومفسراً تلك الفكرة وذلك المبدأ بما يخدم أغراضه وأهدافه، وتطرف الثوار في أسلوب معارضتهم حتى أنهم اغتالوا الخليفة الذي توفي الرسول p وهو راض عنه، ونتج عن هذا الحادث الأليم المفجع حرب أهلية ذهب ضحيتها آلاف المسلمين . وكانت هذه الحادثة البذرة الأولى التي تفتقت منها الأحزاب والفرق الإسلامية التي نشأت في بادئ الأمر واختلفت حول منصب الخلافة ومنذ

(1) الطبري، ج4، ص233.

(2) كان عبد الرحمن بن عوف قد أعطى أصحابه الشورى عهداً بأن لا يخص ذا رحم ولا بال المسلمين، وأخذ عليهم بدوره العهد بأن يرضوه ويبياعوه لمن يختار، أنظر بلاذري، ج5، ص20-21، طبري، ج4، ص231، ص234-237، الماوردي، ص12.

(3) الطبري، ج4، ص232-233، 238، بلاذري، أنساب، ج5، ص22، الإمامة والسياسة، ج1، ص26-27، ابن أبي الحديد، ج1، ص53.

(4) بلاذري، ج5، ص22، طبري، ج4، ص238، ابن أبي الحديد، ج9، ص53، الإمامة والسياسة، ج1، ص26-27.

(5) من أهم الدراسات الحديثة عن موضوع الفتنة ما يلي:

الدوري، مقدمة، ص50-57، طه حسين، الفتنة الكبرى.

M. Hinds, " the Murder of the caliph Uthman", IJMES, vol. 3, (1973), pp. 9. idem, " kufan Political alignment and their background in the mid-seventh century A.D. " IJMES, vol. 2. (1972), pp. 346 Wellhausen. The Arab Kinodum, pp. 12ff. Gibb, "An interpretation of Islamic Hkstory" Journal of World History, Vol I(1953), p. 39-62 idem, studies on the Civilization of Islam, London, 1969, pp. 3-33 C. Brockelmann History of the Islamic Peoples, London, 1964. pp. 63-7. E.I, (1) Art. Othman b. Affan

ذلك الحين أصبح للسيف وزن في تقرير أمر الخلافة وقيادة الأمة الإسلامية. أضف إلى ذلك أن حادث اغتيال عثمان كان عاملاً رئيسياً في انقسام قريش على نفسها (رغم أن هذا الانقسام كان موجوداً ولكنه لم يتضح ولم يطف على السطح إلا بعد مقتل الخليفة الثالث) ذلك الانقسام الذي استمر زمن علي بن أبي طالب وطيلة العصريين الأموي والعباسي وتمثل في معارضة العلويين للأمويين، ثم بمعارضة العلويين للعباسيين وأبرز هذا الحادث أيضاً التيار القبلي والإقليمي داخل الدولة الإسلامية، وكانت الفتنة بالتالي هي الحادثة الكبرى الأولى التي عبرت فيها القبائل عن وجهة نظرها في سياسة الخليفة وأحقيته في البقاء في الحكم. ومنذ ذلك التاريخ أصبح للقبائل دور كبير في اختيار الخليفة وتثبيتته في منصبه بعد أن كان هذا الدور مقصوراً على أهل المدينة ممثلين بكبار الصحابة من المهاجرين والأنصار

بعد مقتل الخليفة عثمان اختير علي بن أبي طالب لتولي منصب الخلافة وقيادة الأمة الإسلامية، وأنيطت به مهمة إعادة الاستقرار والهدوء للولايات المضطربة. وكان اختياره قد تم بضغط من القبائل العراقية والمصرية التي اقتحمت المدينة وبتأييد من أهل العاصمة وخاصة الأنصار والهاشميين⁽¹⁾. وقد أدرك علي بن أبي طالب أن اختياره كان وليد فتنة قادها رجال القبائل من الأمصار خارج الحجاز. وتبعاً لذلك فقد تردد في بادئ الأمر في قبول منصب الخلافة⁽²⁾. وقد واجه في بداية حكمه مشكلتين أساسيتين: إحداهما إعادة الاستقرار والأمن للدولة وقام بإجراءات تنظيمية في الدولة منها عزل الولاة الذي تدمر منهم الناس في الأمصار واعتبروا وجودهم وساستهم عاملاً من عوامل النقمة على الخليفة والسلطة المركزية في الحجاز. وقد تم لعلي ما أراد ألا في بلاد الشام حيث كان معاوية بن أبي سفيان (ومن قبله أخوه يزيد) واليا منذ أيام عمر بن الخطاب. واستطاع بسياسته ولباقتة أن يجمع أهل الشام من حوله ولم يمثل لأوامر الخليفة علي بن أبي طالب وعصى أمره، وأعلن أنه ولي عثمان والمطالب بدمه.

وبينما كان علي بن أبي طالب يجهز الجيش للسير إلى بلاد الشام وإخضاع معاوية، والوالي الثائر، حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ ثار عليه طلحة والزبير وانضمت لهما عائشة أم المؤمنين. وانسحب الجميع إلى البصرة بحجة ملاحقة قتله الخليفة عثمان. وتختلف المصادر في أسباب حركة طلحة والزبير والأرجح أنهما خرجا اعتقاداً منهما بأن علياً قد اختير في ظروف غير عادية وبضغط من رجال القبائل الثوار الذين جاءوا من الأمصار وسيطروا على العاصمة بعد استشهاد عثمان، واعتبروا أن مبدأ الشورى لم يطبق بالشكل الصحيح في اختيار علي ولذا اعتقدا أنه لا بد من إعادة الأمر إلى أهل الحل والعقد من المسلمين في المدينة لاختيار خليفة للمسلمين دون إكراه أو ضغط من أحد. وقد عبر طلحة والزبير عن هدفهما بعد أن وصلا البصرة وأعلنا «أنهم جاءوا للطلب بدم الخليفة المظلوم وإقامة الحدود وإعادة الأمر شورى»⁽³⁾.

كان لخروجهم أثر كبير في موقف علي بن أبي طالب الذي اضطر لإعادة تقييم الموقف في ضوء الظروف الجديدة فهناك بالشام وال رفض الخضوع للسلطة المركزية التي يمثلها الخلية وأعلن حقه في ملاحقة قتله عثمان والثأر له معتمداً على تقاليد وأعراف قبلية بينما يتجه صوب العراق فريق ثائر يتولى قيادته أشخاص ممن تستمع الأمة إلى رأيهم وتستجيب لدعواهم وعلى رأسهم طلحة الخير بن عبيد الله والزبير حواري رسول الله ﷺ وعائشة أم المؤمنين. وقد رأى الخليفة إن اشتباك جيشه مع هذه الفئة سابقة خطيرة يلتقي فيها سلاح المسلمين بسلاح إخوانهم في

(1) الدوري، مقدمة، ص 57-58.

(2) بلاذري، ج 2، ص 172، 173، ابن أعثم، ج 2، ص 243-247، طبري، ج 4، ص 427-428، 429، 433، 435.

(3) بلاذري، ج 2، ص 174، 176.

الدين بعد أن كانوا جميعاً يدا واحدة ضد أي عدو يريد يهم سوءاً وبعد تفكير عميق وجد علي بن أبي طالب بصفته رئيس الدولة وخليفة المسلمين المسؤول عن شؤونهم والحامي لدينهم – أن من واجبه مواجهة المشكلة بحزم محاولاً حل المشكلة بالطرق السلمية وطبقاً للمبادئ الإسلامية وبما يتفق ومصلحة الأمة الإسلامية في ذلك الظرف العصيب أملاً أن يحول بين الثائرين وبينها ولكنه لم يستطع تحقيق ذلك حيث دخل الثوار البصرة وقتلوا عدداً ممن اعتبروهم شركاء أو محرضين على قتل الخليفة الثالث عثمان واستولوا من ثم على المدينة و أرسلوا إلى أهل الكوفة يدعونهم للانحياز إلى قضيتهم.

أتحه علي ومن معه – بعد أن فشل في اللحاق بالثوار - إلى الكوفة حيث انضم إليه بعض الكوفيين ثم سار إلى البصرة وحاول أن يقنع الثوار بالعدول عن موقفهم وتبادل الفريقان الوفود ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل وتطور الأمر إلى الاصطدام المسلح وتقابل الفريقان في معركة «الخريبة» أو «الجمل» وكان النصر فيها حليف علي بن أبي طالب وقتل طلحة والزبير أثناء المعركة وبعدها وأعيدت عائشة إلى الحجاز والتحق الأمويون الذين رافقوا الثوار بمعاقبة في الشام⁽¹⁾.

وعندما فرغ علي من أمر البصرة اتجه صوب الشام لإجبار معاوية على الخضوع وحاول علي - كما فعل مع ثوار البصرة - أن يحل المشكلة سلماً ودون إراقة دماء وأسل وفوداً إلى معاوية محاولاً إقناعه بالعدول عن رأيه والرجوع إلى الجماعة. ولكن معاوية أصر على موقفه معتمداً على تأييد أهل الشام له⁽²⁾. وتقابل الطرفان في صفين في ذي الحجة عام 36هـ.

واستمر القتال على شكل مناوشات بين الطرفين حتى محرم من عام 37هـ حيث تقف القتال، وأعاد علي محاولته لإقناع معاوية عله يثوب إلى الحق ولكن دون جدوى وفي صف رمن نفس العام تجدد القتال عنيفاً بين الطرفين وقتل عدد هائل من الفريقين ثم رفع أهل الشام المصاحف منادين بحفن الدماء وتحكيم كتاب الله⁽³⁾. وقد أدت هذه المكيدة من جانب الشاميين إلى نشوب الجدل والنزاع بين أتباع علي بن أبي طالب، إذ أن فريقاً منهم إن يرى وجوب الاستجابة لطلب أهل الشام واللجوء إلى تحكيم كتاب الله، وفريق آخر على رأسه علي بن أبي طالب رأى في رفع المصاحف خدعه من قبل الشاميين واحتدم الجدل والنقاش في الجانب العراقي واضطر علي في النهاية - تحت ضغط الأكثرية من جيشه - إلى قبول فكرة التحكيم⁽⁴⁾. ولكن الاختلاف بين العراقيين لم يقتصر على فكرة التحكيم فحسب بل تعداه إلى تعيين الشخصية التي تمثلهم في أمر التحكيم. وبعد نقاش حاد - ظهر فيه التنافس القبلي بين اليمنيين والقيسيين - اختير أبو موسى الأشعري ليمثلهم في التحكيم رغم إرادة علي بن أبي طالب الذي كان يحبذ اختيار عبدالله بن عباس. أما الشاميون فقد اختاروا عمر بن العاص. وكتب بين الطرفين كتاب التحكيم الذي ذكر فيه اسم علي بن أبي طالب مجرداً من لقبه أمير المؤمنين⁽⁵⁾.

بعد قراءة كتاب التحكيم ظهر النزاع من جديد بين العراقيين حول فكرة التحكيم وعارضه بعضهم بشدة مبررين ذلك بأنه لا حكم إلا حكم الله وأنه لا يجوز تحكيم الرجال في أمر من أمور

(1) أنظر عن هذه الحوادث: الطبري، ج4، ص

(2) بلاذري، ج2، ص182-183، منقري، ص29-30، 88-92، 108-110.

(3) طبري، ج5، ص48، منقري، ص481-487.

(4) بلاذري، أنساب، ج1، ص189، 190، 191، 192، طبري، ج5، ص48، 49-50، منقري، ص480-486، 489-491.

(5) طبري، ج5، ص52، منقري، ص508-509.

الله⁽¹⁾. واستمر النقاش والجدال بين صفوف العراقيين وهم في طريق العودة من صفين إلى الكوفة وقد عبر المؤرخون عن هذا الخلاف بقولهم : (وخرج الناس إلى صفين وهم أحباء متوادون ورجعوا وهم أعداء متباغضون يضطربون بالسياط)⁽²⁾. وقبل وصولهم إلى الكوفة انشق جماعة من جيش علي الرافضين للتحكيم ونزلوا قرية حروراء قرب الكوفة. ومن هنا أطلق المؤرخون عليهم اسم الحرورية أو المحكمة⁽³⁾. على أن هذه الانشقاق عن جيش علي لم يكن نهائياً ويبدو أن المناقشات قد استمرت بينهم وبين علي وتبادل الفريقان الوفود وجرت مفاوضات بين الطرفين أملاً في الوصول إلى حل يجمع شملهم على كلمة واحدة. ودخل قسم من المحكمة الكوفة وكانوا يصلون خلف علي في المسجد وكثيراً ما كانوا يقاطعونه في خطبه مرددين شعارهم « لا حكم إلا لله » واستمروا يدعون علياً لرفض التحكيم وعدم إنفاذ أبي موسى الأشعري. ولما رفض علي ذلك وأصر على عدم النكت بوعده، ينس المحكمة من إقناعه وتشاوروا في أمرهم , وانتخبوا عبدالله بن وهب الراسبي إماماً لهم, وكتبوا مؤيديهم في البصرة لملاقاتهم في النهروان بالقرب من المكان الذي بنيت فيه بغداد فيما بعد, وقد وافى البصريون إخوانهم في النهروان وكان عددهم 500 رجل بقيادة مسعر بن فدكي التميمي⁽⁴⁾. ولم يكذ الخوارج ينزلون النهروان حتى أتت الأنباء بفشل التحكيم. وكان ذلك بالفعل صدمة عنيفة لعلي بن أبي طالب وأعوانه الذين رفضوا نتيجة التحكيم وقرروا السير إلى الشام لحسم الأمر بالسيف مع معاوية وأهل الشام. وحاول علي استماله المحكمة الذين نزلوا النهروان ولكنهم رفضوا⁽⁵⁾. وعندما ينس علي من انضمامهم إليه قرر السير إلى الشام ولكن جماعته أصرروا على ملاقة المحكمة في النهروان قبل مواجهة معاوية وأهل الشام. واضطر علي للإذعان فصار إليهم وحاول أن يقنعهم بالعدول عن رأيهم والرجوع إلى الجماعة وتجنب القتال والفتنة. ويظهر أن قسم منهم قد عاد وانضم إلى علي, وقرر قسم آخر الحياد, وتقي الآخرون بقيادة عبدالله بن وهب الراسبي على رأيهم , فقاتلهم علي وانتصر عليهم في صف رفي عام 38هـ⁽⁶⁾.

رغم هذه الهزيمة التي أنزلها علي بن أبي طالب بأهل النهروان فإنه لم يقض على المحكمة. واتخذ الباقيون من المعركة النهروان ذكراً أليمة تحفزهم للنثار لمن قتل من أصحابهم. وتتابع ثوراتهم ضد علي بن أبي طالب ألا أن هذه الثورات كانت صغيرة وعدد أتباعها محدود واستطاع علي الانتصار عليهم في كل المعارك التي خاضوها ضده. ألا أنه في النهاية سقط شهيداً علي يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي. وكان الأخير قد فقد كثيراً من أقربائه في معركة النهروان⁽⁷⁾.

يبدو من أسماء القادة والأشخاص الذين تزعموا الحركة ضد التحكيم ثم قادوا أتباعهم في ثورات متلاحقة ضد علي بن أبي طالب (ومعاوية من بعده) أن معظمهم ينتمي إلى القبائل العربية الشمالية التي أسلمت متأخرة ولم يكن لها تراث حضاري في الماضي وظل أفرادها يمثلون النزعة البدوية التي لا تقبل الخضوع لسلطة مركزية وخاصة أن تلك السلطة كانت تتركز في قریش . ولا عجب أن تتمثل هذه النظرة القبلية عهد اتباع الخوارج الأوائل وخاصة أولئك

(1) طبري، ج5، ص66، بلاذري، ج2، ص191-192، منقري، ص512-514.

(2) بلاذري، ج2، ص192، طبري، ج5، ص57، 63.

(3) بلاذري، ج2، ص192، 194، 195-169، طبري، ج5، ص63-64.

(4) بلاذري، ج2، ص195، 196، 197-198، طبري، ج5، ص72، 73، 74-78.

(5) بلاذري، ج2، ص196-198، الطبري، ج5، ص78.

(6) بلاذري، ج2، ص196-199، الطبري، ج5، ص85-86، 88، وانظر أيضاً ص91.

(7) أنظر المسعودي، ج4، ص426-436.

الذين ينتمون إلى قبيلة تميم التي كانت من أكبر القبائل المصرية شأنًا وعدداً ألا أنها أسلمت متأخرة وابتدأت الرسول p في آخر الوفود وارتدد بعد وفاته وادعى أشخاص منها النبوة مثل سجاح⁽¹⁾. وقد خذل بنو تميم علي بن أبي طالب في معركة الجمل وحاربوا معه في صفين ولكنهم ما لبثوا أن كونوا العدد الأكبر من فرقة الخوارج وقد شكى الإمام علي من موقفهم فقال: (أليس من العجب أن ينصرني الأزدي وتخذلني مضر، وأعجب من ذلك تقاعد تميم الكوفة وخلاف تميم البصرة)⁽²⁾.

اتخذ الخوارج الأوائل من قبول علي للتحكيم مبرراً للقضاء على التقليد المتعارف عليه في انتخاب الخليفة. فقد جرت العادة - كما رأينا - أن يقوم أهل الحل والعقد من المسلمين في المدينة بانتخاب الخليفة ثم تبايعه الأمصار. ولكن زعماء الخوارج رأوا أن يحققوا حلمهم في التخلص من زعامة قريش، وأعلنوا أن الخلافة يجب أن لا تكون وقفاً على جماعة معينة وظهر ذلك في قولهم بعد انفصالهم في حرواء: (الأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)⁽³⁾. وعندما ثار الخريت بن راشد عام 38هـ خاطب أحد أصحاب علي وقال: (لم أرض صاحبكم إماماً ولم أرض سيرته فأريت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى من الناس. فإذا اجتمع الناس على رجل لجميع الأمة رضا كنت من الناس)⁽⁴⁾. لاشك أن مبدأ الشورى قد أكدته الإسلام وحض على اتباعه في كتابه الكريم. ورغم ذلك فمن المعتقد أن مناداة الخوارج بهذا المبدأ في تلك المرحلة لم يكن إلا مبرراً دينياً تبنيه للثورة على الخليفة الشرعي. وبالتالي كان مبرراً للثورة على سلطة قريش وزعامة المسلمين الأوائل المتمثلة بالمهاجرين والأنصار. والدليل على ذلك أنهم لم يتقيدوا بهذا المبدأ عندما نجحوا في تأسيس دول خاصة بهم. (دولة الرستميين الإباضية ودولة بني مدرار الصفرية مثلاً). ولعل المناداة بهذا المبدأ كان سبباً رئيسياً في انضمام عدد من الموالى إلى الحركة الخارجية منذ بدايتها وقد قاموا بدور بارز في بعض ثورات الخوارج الأول مثل ثورة أبي مريم التي كان جل اتباعها من الموالى⁽⁵⁾.

والمتتبع لهذه الثورات الخارجية والشعارات التي رفعها قادتها يجد أن بعضاً من الخوارج قد اتسم بالعنف والتطرف منذ بداية حركتهم. من ذلك البراءة من مخالفيهم واعتبارهم كافرين ألا إذا تابوا⁽⁶⁾. وتبعاً لذلك فقد اعتبر الخوارج كل من عارضهم في ضلال وأنهم وحدهم الذين يمثلون الحق ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وانطلاقاً من ذلك اعتبروا خروجهم بمثابة هجرة من دار الباطل والظلم إلى دار الحق والجهاد مشبهين ذلك بهجرة الرسول p من مكة إلى المدينة متأولين قول الله عز وجل: (وخرج منها خائف يترقب. قال رب نجني من القوم الظالمين). ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل» وكثرت الدعوة بين الخوارج للابتعاد عن بقية المسلمين والهجرة إلى مكان آخر حيث يقيمون «دولة الحق» ويستأنفون الجهاد ضد الكفار (بقية المسلمين) أنظر مثلاً على ذلك قول عبدالله بن وهب الراسبي مخاطباً أتباعه بعد إصرار علي على المضي في وعده في تنفيذ التحكيم: «إن هؤلاء القوم قد

(1) يقال أن شيث بن ربعي التميمي أحد زعماء الخوارج كان مؤذناً لسجاح حين ادعت النبوة، أنظر ابن قتيبة، المعارف، ص415.

(2) ابن أبي الحديد، ج1، ص352.

(3) بلاذري، ج2، ص194، طبري، ج5، ص63.

(4) طبري، ج5، ص120.

(5) بلاذري، ج2، ص215، يذكر روايتين، أحدهما عن المدائني والثانية بإسناد جمعي، ويشير المدائني إلى أن أبا مريم كان في أربعمئة من الموالى والعجم ليس فيهم من العرب إلا خمس من بني سعد وأبو مريم سادسهم.

(6) منقري، ص514، بلاذري، ج2، ص193-198، الطبري، ج5، ص78، المبرد، ج1، ص9، ج2، ص165، أخبار الدولة العباسية، ص39-40.

خرجوا لإمضاء حكم الضلالة، فخرجوا بنا رحمكم الله إلى بلدة نبعد بها عن مكاننا هذا فأنكم أصبحتم بنعمة ربكم أهل الحق»⁽¹⁾. وقال أيضا : «أخرجوا بنا معشر إخواننا من هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض السواد وبعض كور الجبل منكبين لهذه البدعة المكروهة»⁽²⁾. وانطلاقا من هذه النظرة لبقية المسلمين فقد أحل قسم منهم قتل مخالفيهم من المسمين باعتبارهم كفر مرتدين وأمنوا أهل الذمة وحموهم⁽³⁾. وبدأوا استعراض المسلمين وقتلهم. وتطورت هذه العادة القبيحة عند الأزارقة فيما بعد حتى أنهم جوزوا قتل النساء والأطفال الصغار⁽⁴⁾.

(1) بلاذري، ج2، ص196، البرادي، الجواهر، ص129-132.

(2) بلاذري، ج2، ص196.

(3) بلاذري، ج2، ص196، 197، 198، طبري، ج5، ص82-83، 117-118.

(4) عن آراء الأزارقة: أنظر الدجيلي، فرقة الأزارقة، ص79-90.

الباب الثاني

الفصل الثاني

«تفسير الإباضية لنشأة الخوارج»

(مستمدًا من المصادر الإباضية)

يرى الإباضية أن كلا من أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما قد سار في سياسته طبقا لكتاب الله الكريم وسنة رسوله محمد p , وحكم المسلمين بالعدل والإحسان. ويعتبر أتباع هذه الفرقة أن فترة حكمهما كانت أفضل العهود التي عاشتها الأمة الإسلامية بعد وفاة الرسول p ويرون أن عثمان بن عفان كان دون الشيخين في مكانته وسياسته رغم أنه بريع من قبل المسلمين وعمل بالحق خلال السنين الست الأولى من خلافته. وقد بقي المسلمون له مطيعين ومؤازرين ثم أحدث بدعا أنكرها المسلمون عليه, وخالف فيها ما كان معروفا من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وسيرة الشيخين, أبي بكر وعمر, من بعده وتشير المصادر الإباضية باسهاب إلى ما يعتبره الإباضية مأخذ على عثمان وسياسته. والمتتبع للاتهامات التي توردها هذه المصادر ضد عثمان لا يرى خلافا كبيرا بينها وبين ما يرد من روايات في بعض المصادر السنية والشيعية حول هذا الموضوع, ألا أن المصادر الإباضية تنطب كثيرا فيما تسميه مساوئ عثمان وتقرّد فصولا للحديث عن هذا الموضوع⁽¹⁾.

ويرى الإباضية أن الثورة على الخليفة الراشدي الثالث كانت مشروعة وقتله كان واجبا, ويعتبرون هذا العمل من خير ما فعله المسلمون. ليس هذا فحسب بل انهم يعتقدون أن مقتل عثمان كان مساويا من حيث الأهمية لانتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى⁽²⁾. وتشير المصادر الإباضية إلى اشتراك علي بن أبي طالب ومن كان موجودا في المدينة من المهاجرين والأنصار في الثورة على الخليفة عثمان⁽³⁾. ويعتبر الإباضية أنفسهم أتباعا وأحفاد لأولئك الثوار الرواد الذين تصفهم المصادر الإباضية بجماعة المسلمين, وهو الاسم الذي تطلقه الإباضية فيما بعد على نفسها وتعتبره وقفا على أتباعها دون غيرهم, أما بقية المسلمين فيصفونهم بالموحدين⁽⁴⁾.

ولما قتل عثمان اجتمع المسلمون في مسجد رسول الله p فبايعوا علي بن أبي طالب «على طاعة الله ورسوله, وأن يتبع سنة رسول الله p ويسير بسيرة الخلفيتين المرضيين, أبي بكر وعمر رضي الله عنهما, بعد أن تردّدوا عليه أياما وهو يأبى عليهم»⁽⁵⁾. وتذكر المصادر الإباضية أن عليا بدأ عهده بخطبة من على منبر مسجد رسول الله وجه فيها نقدا صريحا للخليفة المقتول

(1) القلّهاتي، ورقة 85، وما بعدها، البرادي، الجواهر، ص53، وما بعدها، الأزكوي، ورقة 112، شماخي، سير، ص30 وما بعدها.

(2) القلّهاتي، ورقة 89، 91.

(3) يقول القلّهاتي أن علي بن أبي طالب «كان في مسجد رسول الله p وهو يحرض الناس على القتال... ويقول في مكان آخر: «فن زعم أهل الشك والريب أن المسلمين من المهاجرين والأنصار والتابعين لم يرضوا بقتل عثمان، وإنما قتلته محمد بن أبي بكر في نفر معه، وعامة المسلمين كانوا لقتله (قيل) لهم فلم لا يؤازرونه وينصرونه وهو بين أظهرهم لم يقتل غيلة، وإنما هو حصر شهراً أو دونه، أو كيف يجعلون علياً أميراً على أنفسهم ولم يشهد بذلك ولم يرض به؟ أم كيف يجوز لعلي أن يصحب قتلة عثمان ولا يقيم عليهم حد الله ورسوله؟ أم كيف جاز له أن يحارب ويمنع من طلب بدمه؟ بل لقد علم أهل البصائر وأولوا الألباب أن المسلمين اجتمع رأيهم على قتله بما استوجب عندهم من بغيه وأحداثه ووضع الأمور في غير مواضعها...» أنظر القلّهاتي ورقة 94-95، أنظر أيضاً شماخي، سير، ص38، البرادي، الجواهر، ص103.

(4) القلّهاتي، ورقة 90، 91.

(5) القلّهاتي، ورقة 94.

عثمان وقال: «ألا أن كل قطيعة قطعها عثمان ومال أعطاه من مال الله فهو مردود على المسلمين في بيت مالهم، فإن الحق قديم ولا يبطله شيء . والله لو وجدته قد تزوج عليه النساء، وتفرق البلدان لرددته، فإن لكم في العدل سعة ومن ضاق عليه العدل فإن الجور عليه أضيق»⁽¹⁾.

ولم يلبث علي بن أبي طالب طويلاً بعد أن بايعه الناس بالخلافة حتى خرج عليه طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بعد أن بايعاه. وترى المصادر الإباضية أنهما أتيا عائشة، أم المؤمنين بمكة وأقنعاهما بأن علياً استأثر بالأمر دون مشورة من الناس، «وان عثمان قتل مظلوماً بعد أن تاب، وخدعاهما عن رأيها وبصيرتها في عثمان بعدما كانت تخرج المصحف من حجرها وتقول: أشهد بالله لقد كفر عثمان بما في هذا المصحف. فلم يزالا بها حتى أخرجها عن بيتها» وقبلت بمرافقتهم إلى بلاد العراق وسار الجميع إلى البصرة ودخلوها وقتلوا عدداً من أهلها⁽²⁾.

لما بلغ علياً أمر طلحة والزبير خرج لحاق بهم. فنزل الكوفة وخرج معه فريق من أهلها واتجهوا صوب البصرة واشتبكوا مع طلحة والزبير في معركة الجمل المشهورة وانتصر علي وقُتل طلحة والزبير. «واستتب الناس يومئذ من ولاية عثمان وطلحة والزبير، ورجعت عائشة تائبة نادمة». ودخل أهل البصرة في طاعة علي⁽³⁾.

ولما استقر الأمر لعلي خرج معاوية بن أبي سفيان في أهل الشام يدعو لمحاربة علي زاعماً أنه يطلب بدم عثمان. والتقى الطرفان في صفين واقتتل الفريقان قتالاً شديداً وكثر القتل في الفريقين حتى قيل إن عدد القتلى بلغ سبعين ألفاً. ولما كثر القتل في أهل الشام وخاف معاوية أن يستولي القتل في أصحابه استشار عمرو بن العاص الذي أشار عليه برفع المصاحف على أسنة الرماح، وإن يكاتب علي بن أبي طالب سرا، جاعلاً كتاب الله حكماً في الخلاف بينهما، فقبل علي بذلك رغم معارضة بعض أصحابه ومن بينهم الصحابي الجليل عمار بن ياسر الذي استمر يقاتل معاوية وأهل الشام حتى لاقى حتفه، وتسهب المصادر الإباضية بهذه المناسبة في الحديث عن عمار بن ياسر وتورد أحاديث كثيرة منسوبة إلى الرسول ﷺ وتشير إلى أن عمار - الذي أصر على القتال كان على حق وأن قاتليه وهم أهل الشام كانوا على باطل. ولذا لا تجوز موادعتهم ألا أن يتوبوا ويخضعوا لسلطان علي الخليفة الشرعي⁽⁴⁾. وتمضي المصادر الإباضية بعد ذلك فتقول أن علياً رجع إلى الكوفة وجرت مراسلات سرية بينه وبين معاوية ابن أبي سفيان قبل علي فيها أن يحول لقبه، أمير المؤمنين في مراسلاته نزولاً عند طلب معاوية، ولما بلغ أصحابه ما فعل خاطبوه وقالوا: «ما حملك أن تخلع نفسك من اسم سمالك به المسلمون؟ ألسنت أمير المؤمنين ومعاوية أمير الكافرين؟ فتب مما صنعت فتاب من ذلك»⁽⁵⁾. ثم أن معاوية كاتب علياً سرا وطلب منه إمضاء العهد الذي أخذه على نفسه في التحكيم فاختر من جنده: أبا موسى الأشعري واختار معاوية عمر بن العاص ليحكم بينهما فيما اختلف فيه. ولما علم المسلمون (المحكمة) ذلك وتحققوا منه الحكومة بعد التوبة فارقوه ونزلوا أرضاً من أرض الكوفة يقال لها حروراء. واجتمع فيها يومئذ عشرة آلاف من خيار الصحابة ورؤساء المسلمين وفقهائهم وقرائهم وعلمائهم».

(1) القلھاتي، ورقة 93، البرادي، الجواهر، ص 97-98.

(2) القلھاتي، ورقة 95، أنظر أيضاً شماخي، سير، ص 41-44.

(3) القلھاتي، ورقة 96، شماخي، سير، ص 44-45، البرادي، الجواهر، 102.

(4) القلھاتي، ورقة 98، شماخي، سير، ص 45، هذه الأقوال محاولة من جانب الخوارج على أن علي بن أبي طالب قد أخطأ طبقاً لوجهة نظرهم، في قبول فكرة التحكيم.

(5) القلھاتي، ورقة 98، البرادي، الجواهر، ص 125.

واجتمعوا في بيت عبدالله بن وهب الراسبي فعرضوا الإمامة على حرقرص ابن زهير فأبى فعرضوها على عبدالله بن وهب الراسبي فقال : «هاتوها , أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرارا من الموت» فبايعوه وجعلوا الموعد بينهم النهروان⁽¹⁾. وتشير المصادر الإباضية إلى أن معاوية بن أبي سفيان عندما بلغه خروج أهل النهروان من عسكر علي بن أبي طالب كتب إلى علي : «أنه قد بلغني أن طائفة من عسكرك خالفوك وخرجوا من عسكرك وقد تعلم أن الأمر بيننا لا يتم إذا كان لنا منازع فإن كان ذلك منهم عن غير رأيك وأحببت أن أكفيكم ففعلت»⁽²⁾. ويذكر المؤرخ الإباضي، القلھاتي أن عليا أراد أن يولي معاوية القيام بهذه المهمة , ولكن أصحابه نصحوه بعدم الأقدام على مثل هذا العمل لان ذلك سيكون سابقة خطيرة تبرز لمعاوية التدخل في شؤون العراق وفي زرع الخلاف والنزاع بين العراقيين وخاصة أصحاب علي نفسه⁽³⁾.

أثناء ذلك اجتمع الحكمان فخلع الاشعري عليا وثبت عمرو بن العاص صاحبة معاوية وندم علي بعد سماع النبأ على قبوله فكرة التحكيم. وكتب إلى أهل النهروان يطلب منهم العودة لمعسكره والرجوع لحرب معاوية وأهل الشام. وهذا نص رسالة علي لأهل النهروان كما تورده المصادر الإباضية : «بسم الله الرحمن الرحيم. من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى زيد بن حصن وعبدالله بن وهب ومن معهما من المسلمين : سلام عليكم , فإني أحمد إليكم الله الذي لا اله الا هو أما بعد , فان الحكمين نبذا كتاب الله وراء ظهورهما وحما بغير ما أنزل اله فبرئ الله منهما ورسول وأنا منهما بريء . فلهما نعظم الرضاء. ونرجع إلى الأمر الأول الذي طلبتموه مني ونقاتل عدونا وعدوكم حتى يحكم بيننا وهو خير الحاكمين». فكتبوا إليه جوابا هذا نصه: بسم الله الرحمن الرحيم. من أمام المسلمين عبدالله بن وهب الراسبي وزيد بن حصن ومن معهما من المسلمين إلى علي بن أبي طالب الخالع لنفسه: سلام على من اتبع الهدى وتجنب متآلف الردى. أما بعد فأنا نحمد الله الذي لا اله الا هو. وقد علمنا , فالحمد لله أن أمرهما كان مخالفا للحق من أوله , وأنت بتحكيملك إياهما أعظم جرما منهما. وذكرى أنك ترجع إلى الحق وتعطي الرضا وترجع إلى الأمر الأول فلسنا نرد عليا توبتك فان كنت صادقا فادخل فيما دخل فيه المسلمون من طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أمام المسلمين عبدالله بن وهب الراسبي, فقد بايعناه بد خلعنا إياك لاستحقاقك منا أن نخلعك ولا يسعنا آلا ذلك والسلام⁽⁴⁾.

رغم هذه اللهجة القاسية التي عبر فيها المحكمة عن رأيهم في علي بن أبي طالب فان المصادر الإباضية تشير إلى أن عليا حاول مرة أخرى الوصول إلى تقاهم معهم فأرسل عبدالله بن عباس لمناظرتهم أملا منه في أن يقنعهم بالعدول عن موقفهم. وجرت بين عبدالله بن عباس وبينهم مناقشات طويلة وكانت النتيجة عكس ما توخاه علي بن أبي طالب حيث يذكر المؤرخون الإباضيون أن ابن عباس قد اقتنع بوجهة نظر المحكمة وعاد وأخبر عليا بما حدث واعترف له بأنهم خصموه «ونقضوا عليه ما جاء به مما احتج به عليهم» وطلب من ابن عباس أن يعينه على قتلهم ولمن الأخير رفض وقال : «لا والله, لا أقاتل قوما خصموني في الدنيا , وانهم يوم القيامة لي اخصم, وعلي أقوى وان لم أكن معهم لم أكن عليهم»⁽⁵⁾. ثم اعتزل من بيت مال البصرة

(1) القلھاتي، ورقة 99، البرادي، الجواهر، ص129.

(2) القلھاتي، ورقة 100.

(3) القلھاتي، ورقة 100.

(4) القلھاتي ورقة 100.

(5) من المناظرة بين المحكمة وابن عباس أنظر: القلھاتي، ورقة 100-106، البرادي، الجواهر ص119-122، الأزكوي، ورقة 206-

ويذكر الإباضية أنا بن عباس رد عليه وقال : «قد علمت أخذي المال من قبل قولي في أهل النهروان، ولم كان أخذي المال باطلا كان أهون من أن أشرك في دم مؤمن فكف عن القوم» (1).

بعد فشل المفاوضات بين علي والمحكمة جرت معركة النهروان بين الطرفين وانتصر فيها علي وقتل من المحكمة 4000 رجل. وتشير الروايات الإباضية إلى أن بعضهم كان ذا سابقة في الإسلام وصحبة لرسول الله ﷺ كما تذكر أن معظم القتلى كانوا من القراء والفقهاء وأهل اشرف في الدين والرأي. وتسهب المصادر الإباضية في ذكر مناقب بعض هؤلاء الأشخاص مثل حرقص بن زهير السعدي ، وتورد أحاديث نوبة إلى الرسول ﷺ تشير إلى أن قاتليه هم الفئة الباغية (2). وتشير المصادر نفسها أيضا إلى أن علي بن أبي طالب قد ندم فيما بعد على حربه لأهل النهروان وكان يقول : «بئس ما صنعنا.....قتلنا خيارنا وفقهاءنا» (3).

وتوضح الروايات الإباضية أن أصحاب علي اختلفوا عليه بعد معركة النهروان وفارقه قسم كبير منهم وبقي يلاقي الخذلان تلو الخذلان حتى لاقى حقه على يد عبد الرحمن بن ملجم المرادي الذي مدحه عمران بن حطان فيما بعد وقال:-

يا ضربة من تقي ما أراد بها ألا ليبلغ من ذي العرش رضوانا (4)

إني لأذكر يوما فأحس به أوفى البرية عند الله مـيزانا

مما مر يمكن أن نلخص آراء الإباضية في التطورات التي حدثت في صدر الإسلام وأدت إلى نشء حزب الخوارج بما يلي:-

1- يرى الإباضية أن عثمان بن عفان رضي الله عنه حاد عن الطريق القويم في الفترة الأخيرة من خلافته، ولذا وجبت البراءة منه وبالتالي أحل سفك دمه وقتله.

2- أن الذي اشتركوا في الثورة على عثمان كانوا على حق، ويعتبرها الإباضية من رواد حركتهم الأوائل، ويزعمون أن المهاجرين والأنصار في المدينة قد ساهموا في الثورة وحرصوا الثوار على قتل الخليفة والخلص منه. وكان على رأس هؤلاء المحرضين علي بن أبي طالب.

3- يرى الإباضية أن الثوار انتخبوا علي بن أبي طالب خليفة للمسلمين لقناعتهم بأنه أفضل الموجودين لتولي المنصب في تلك الظروف وخاصة أنه شايعهم في وجوب التخلص من عثمان. وانضموا تحت رابته والتزموا بطاعته وحاربوا معه أصحاب الجمل الذين اعتبروا، من وجهة نظرهم مخالفين كافرين (كفر نعمة ليس شرك).

4- تجمع المصادر الإباضية على أن عائشة أم المؤمنين كانت شريكة لطلحة والزبير في الخلاف ولكنها ندمت على فعلها وتابت وقبل المسلمون توبتها.

5- أن المسلمين تولوا علي بن أبي طالب وساندوه حتى قبوله التحكيم مع معاوية بن أبي سفيان. وبعد ذلك رأوا أنه أخطأ فيما عمل وحكم الرجال في أمر من

(1) القلھاتي، ورقة 106.

(2) المصدر نفسه، شماخي، سير، ص54، البرادي، الجواهر، ص134.

(3) القلھاتي، ورقة 106، شماخي، سير، ص54، البرادي، الجواهر، ص134.

(4) القلھاتي، ورقة 107، الدرجيني، ورقة 97.

أمر الله، وخلع نفسه من منصبه الشرعي الذي بايعه عليه المسلمون، ولذا وجبت البراءة منه ومحاربته وخاصة بعد رفضه إعلان التوبة والانضمام للمحكمة الذين انتخبوا عبدالله بن وهب الراسبي إماماً لهم.

-6

أن المحكمة الأوائل قد خصموا عبدالله بن عباس، رسول علي إليهم، في مناظرتهم معه. وأن ابن عباس اعترف بذلك وصارح به علياً واعتزل معسكرة وفارقه. وهذا يفسر لنا اتخاذ ابن عباس قدوه ومثلاً لهم، حتى أن معظم الأحاديث المروية في الكتب الإباضية إنما تأتي عن طريق ابن عباس. كما أن الإباضية يعتبرون جابر بن زيد الأزدي مؤسس مذهبهم الفقهي، تلميذاً لعبدالله بن عباس. والواقع أن هذا الأمر ينسحب على الصفرية الذين يجلسون ابن عباس. واعتبوا رجالهم البارزين في الفتيا والحديث تلاميذ لابن عباس. ومن أبرز الأمثلة عكرمه مولى ابن عباس الذي أدى نشاطه إلى نشر المذهب الصفري في شمال أفريقية، وأثمرت جهوده بتأسيس دولة صفرية هناك هي دولة بني مدرار في سبلماسة.

-7

يرى الإباضية أن علي بن أبي طالب قد ندم لمحاربته أهل النهروان واعترف أنهم ليسوا مشركين ولا منافقين بل كانوا من خيار المسلمين في الدين والرأي وبهذا يكون خصمهم شاهداً على صدق نواياهم وصلاح عقيدتهم.

-8

يفهم من المصادر الإباضية أن الخروج الحقيقي للمحكمة قد بدأ بالمسير إلى النهروان ولي قبل ذلك. وأن المحكمة الأوائل لم يفارقوا علياً وهو في طريق العودة من صفين إلى الكوفة بل بعد أن تأكدوا من إصراره على إنفاذ الحكومة بعد رجوعه إلى الكوفة، ففارقوه ونزلوا حروراء حيث انتخبوا إماماً لهم ثم تواعدوا على اللقاء في النهروان حيث بقيت الاتصالات والمفاوضات مستمرة بين الطرفين حتى انتهت بالفشل ويئس كل طرف من إقناع الفريق الآخر وأدت التطورات التي فصلناها سابقاً إلى معركة النهروان. وهذا يتفق إلى حد كبير مع بعض الروايات الواردة في المصادر غير الإباضية التي تشير إلى أن العلاقة بين علي والمحكمة لم تنقطع إلا بعد وصل المحكمة النهروان وإصرارهم على أن يتوب علي ويخضع لسلطة إمامهم عبدالله بن وهب الراسبي⁽¹⁾.

(1) يمكن للباحث أن يجد ملخصاً لمعظم الآراء في هذا الفصل في رسالة عبدالله بن أباض إلى الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان. أنظر: البرادي، الجواهر، ص156-167، الأزكوي، الباب السابع والعشرون، ورقة 200 وما بعدها.

الباب الثالث

ظهور الخوارج المعتدلين – القعدة

كانت معركة النهروان المعركة الأولى والأخيرة التي اجتمع فيها الخوارج تحت قيادة واحدة ضد عدو واحد، وبعد ذلك تفرق شملهم وقامت جماعات منهم بثورات متعددة ضد السلطة القائمة في الكوفة والبصرة، ألا إن نشاطهم العسكري في الكوفة لم يستمر طويلاً، ولم يأت عام 59هـ إلا وكن قد قضي عليهم وباءت حركاتهم هناك بالفشل، وتعود أسباب ذلك إلى أن الكوفة كانت تميل إلى التشيع لآل البيت ولم يجد الخوارج مساعدة تذكر من سكان الكوفة. يضاف إلى ذلك أن ثوراتهم كانت متفرقة وكان عدد أتباعها محدداً، ولم يجتمعوا تحت قيادة واحدة، وافتقروا إلى التنظيم والتخطيط مما أدى إلى انهيارهم والقضاء عليهم على أيدي ولاية الكوفة.

وقد قام خوارج البصرة بين عامي 41 – 64هـ بعدة ثورات مشابهة ولم يحالف النجاح أيها منها لافتقارها للوحدة والتنظيم ولتطرف أتباعها مما أثار أهل البصرة ضدهم. وكان للسياسة الشديدة القاسية التي اتبعتها الولاية ضدهم، وخاصة زياد بن أبيه وابنه عبيد الله، دور فعال وأساس في إحباط جهودهم وعدم إتاحة الفرصة لنجاح حركاتهم.

لقد اتخذ زياد بن أبيه (45 – 53هـ) أشد الإجراءات ضدهم، وكان يفرض على أهل البصرة أن يقتلعوا الخوارج من بين أظهرهم. وقد اتبع إجراءات حازمة لتحقيق أهدافه وذلك بتهديده للسكن الذين يقومون بإيواء الخوارج أو يتعاونون في محاربتهم، ويروى عن زياد أنه كان يخطب في أهل البصرة ويقول: «يا أهل البصرة والله لتكفني هؤلاء (الخوارج) أو لأبدانكم. والله لئن أفت منهم رجل لا تأخذون من عطائكم درهما». كما هدد القبائل العربية في البصرة بإجلائها وقطع عطائها أن لم تساهم في قال الخوارج وكان ينذر القبائل ويتوعده ويقول: «إن أي خارجة خرجت من قبيلة فلم تقاتلها حرمتها العطاء وأجليتها»⁽¹⁾. واتبع زياد أسلوباً قاسياً مرعباً تجاه الخوارج من النساء، فإذا ظفر بامرأة منهن كان يقتلها ويعريها ويصلبها وقد أدى هذا الأسلوب إلى وضع حد لخروج النساء، حتى صرن إذا دعين للاشتراك في ثورة أو تمرد ضد السلطة يجبن جميعاً (لولا التعرية لسارعا)⁽²⁾. وقد أشارت بعض المصادر إلى ما فعله زياد ببعض النساء الخارجيات مثل إزالة وأم سريع⁽³⁾.

بينما كان الخوارج المتطرفون يقومون بثوراتهم وحركاتهم ضد الأمويين وولاتهم ويتعرضون من جراء ذلك للقتل والتشريد ويواجهون السخط والاستتكار من قبل السكان، كانت هناك جماعة انشقت بعد النهروان واتخذت مدينة البصرة مقراً لها، وآثرت السلم وعدم اللجوء للسيف لفرض آرائها، وقد تزعم هذه الجماعة أبو بلال مرداس بن أدية التميمي، وكونت هذه الجماعة البذرة التي انتحت ما عرف في التاريخ الإسلامي بالفرقة الإباضية.

شهد أبو بلال زعيم هذه الجماعة، معركة صفى مع علي بن أبي طالب وأنكر التحكيم، واشترك في معركة النهروان مع المحكمة ضد علي بن أبي طالب، ويبدو أنه لم يكن مرتاحاً لما حدث من خلاف وفتنة بين المسلمين وصعق لما حل بأقاربه وأقرانه من قتل وتشريد علي أيدي إخوانهم في الدين ورأى إن القتل بين العقيدة الإسلامية السمحة بهذه الطريقة الشرسة أمر لا

(1) الطبري، ج5، ص238.

(2) الميرد، ج3، ص246.

(3) الدرجيني، ورقة93.

يصح، فانسحب مع نفر من أصحابه وأقام مع أبناء عمه من قبيلة تميم الذين كانوا يشكلون جزءاً هاماً من سكان البصرة آنذاك⁽¹⁾. وكان ينتمي إلى هذه القبيلة أبرز الشخصيات السياسية والفكرية والدينية في البصرة ويتزعمها الأحنف بن قيس السعدي التميمي (ت 87هـ - 686م) المشهور بحكمته وسداد رأيه⁽²⁾ وقد كان الأحنف من أنصار علي بن أبي طالب وحارب معه في النهروان ولكنه تخلى عنه بعد ذلك، ربما أسفاً منه لما حل بأقاربه من بني تميم من موت وهلاك في معركة النهروان. وعلى الرغم من ذلك فإن الأحنف لم يعط ولاؤه لمعاوية بل على العكس من ذلك وقف ضد ابن الحضرمي الذي قام بحركته في البصرة موالاة لمعاوية، ومن المحتمل أن الأحنف كان متعاطفاً مع الخوارج المعتدلين القعدة، أصحاب أبي بلال مرداس بن أدية التميمي رغم موقفه العدائي من متطرفي الخوارج. ويذكر بعض المؤرخين الإباضيين⁽³⁾. أن الأحنف كان أحد أسلافهم، ولكن سلوك الأحنف فيما بعد ينفي هذه التبعية للخوارج. وربما كان الإباضيون مدفوعين في ثنائهم عليه ومدحهم له بما لاقاه أسلافهم، أتباع أبي بلال، من حماية عندما لجأوا إلى البصرة بعد وقعه النهروان. وفي ظل هذه الحماية التي لقيها أبو بلال مرداس وأتباعه عند بني تميم وزعيمهم الأحنف بن قيس، أخذ مرداس ينشر آراءه وأفكاره مؤثراً طريق الإقناع والمناقشة على الحرب، وأنكر قتل المخالفين واستعراض الناس على طريقة متطرفي الخوارج. ودعا أتباعه بأن لا يجردوا سلاحاً ولا يقاتلوا أحداً إلا إذا تعرضوا للعدوان وأجبروا على القتال⁽⁴⁾. وبلغ من حسن سيرته أن عدداً من الفرق والجماعات الإسلامية فيما بعد – كالشيعة والمعتزلة – ادعت نسبته إليها واعتبرته واحداً من أبرز أتباعها⁽⁵⁾. وقد نشط مرداس في البصرة لنشر دعوته وأفكاره وكان يعقد المجالس والمناظرات لإقناع الناس بآرائه فانضم إليه عدد كبير من الناس جلهم من بني تميم. ثم أخذ عدد أنصاره يزداد ويتعاضد حتى أنهم ابتنوا لهم مسجداً خاصاً في البصرة⁽⁶⁾. ويبدو إن دعوته قد لاقت آذاناً صاغية واستجابة كبيرة جعلت عبيد الله بن زياد، والي العراق يقول: «لكلام هؤلاء (مرداس وأتباعه) أسرع إلى القلوب من النار إلى اليراع»⁽⁷⁾. ويعود نجاح مرداس لأسباب منها حماية قبيلته، تميم، له وللمن تبعه. كما كان لسيرته الحسنة وصدق اجتهاده وحلاون منطقة أثر كبير في انضمام الناس إليه. أضف إلى ذلك أن سياسة زياد بن أبيه تجاه الخوارج المعتدلين أو القعدة، أتباع مرداس كانت لينة ومتسامحة فقد كان لا يجرد سيفه ضد أحد منهم إلا إذا هم بالخروج. ليس هذا فحسب بل إنه كان يخطب ودهم ويداريهم حتى يتفرغ لقتال خوارج المتطرفين الذين كانوا يغيرون على القرى ويقتلون الناس ويسبونهم ويضايقونهم في عيشتهم. وقد روي عن زياد أنه كان يعطي الخوارج العقدة في البصرة ويغدق عليهم الهبات ويدعو بعضهم للسمر في مجلسه. وكان يولي أناساً منهم بعض أعماله. وقد نجحت سياسته تجاههم فم يثوروا عليه ولم يحاولوا إيذاءه في بين الطرفين. فقد بلغ زياداً أن رجلاً يدعى أبو الخير كان سيري رأيهم (مرداس وأتباعه) فدعاه وولاه جند يسابور وأعمالها، ورزقه أربعة آلاف درهم في شهر وجعل عمالته مئة ألف درهم في السنة. فكان أبو الخير بعد ذلك يقول: «ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين الجماعة»⁽⁸⁾.

(1) الدرجيني، ورقة 93، البرادي، الجواهر، ص 167.

(2) من الأحنف بن قيس أنظر أيضاً: Ch. Pellat, "al-Ahnaf b. Kais", E. 1 (2).

(3) الدرجيني، ورقة 97، شماخي، سير، ص 81.

(4) الدرجيني، ورقة 93، طبري، ج 5، ص 238، المبرد، ج 3، ص 250.

(5) الدرجيني، ورقة 92-93، المبرد، ج 3، ص 214-215.

(6) بلاذري، أنساب، ج 5، ص 94.

(7) الدرجيني، ورقة 93.

(8) المبرد، ج 3، ص 260-261.

وقد أنكر الخوارج المتطرفون قعود أقرانهم (أتباع مرداس) عن الثورة فلقبوهم - احتقارا - بالقعدة , أي الذين قعدوا - طبقا لوجهة نظرهم - عن الجهاد في سبيل الله ومحاربة الولاة الظالمين. أما أهل السنة في البصرة فكانوا يسمونهم الحرورية, نسبة إلى حروراء, تجنباً لما يؤذيهم من ألقاب وعلامة رضا عن تصرفاتهم التي لا تؤذي الآخرين. وأحيانا كانوا يطلقون عليهم اسم المحكمة كما كان يسمى هؤلاء أنفسهم, وكانوا يسمون أنفسهم أيضا الشراة⁽¹⁾

لما ولي عبيد الله بن زياد العراق سنة 55هـ اتبع سياسة مغايرة لسياسة والده تجاه الخوارج المتطرفين والمعتدلين. ويذكر المبرد أن عبيد الله «كان لا يلبث الخوارج يحبسهم تارة ويقتلهم تارة, وأكثر ذلك يقتلهم, ولا يتغافل عن أحد منهم»⁽²⁾. وقد رفض عبيد الله الشفاعة بشأن أي منهم فذا كلم في أحدهم في رفض الاستجابة مبررا ذلك بتصميمه على تحاضي الشر قبل وقوعه وكان يردد العبارة التالية: (اقمع النفاق قبل أن ينجم), وتمشيا مع هذه السياسة فقد لجأ عبيد الله في مطاردتهم وحبسهم⁽³⁾. واضطر الخوارج المعتدلون (القعدة) إلى تبني التنظيم السري , وكانوا يعتقدون اجتماعاتهم سرا للدعوة لمذهبهم والنظر فيما يعينهم ويساعد على تحقيق أهدافهم ولكن عبيد الله لمي بغض الطرف عنهم وأخضعهم لمراقبة شديدة وكان يبث العيون والجواسيس لتعقبهم وكثيرا ما كانت الشرطة تداهم بعضهم وتلقي القبض عليهم في سراديبهم السرية والتي أقاموها لتكون مراكز لدعوتهم وتعليم مذهبهم⁽⁴⁾. وكانت هذه الإجراءات الشديدة تقض مضاجعهم وتلقي الرعب في قلوبهم, ولذلك فقد كانوا يأتون مجالسهم متشبهين بالنساء لدفع الريبة عنهم وهم في طريقهم إلى مكان اجتماعهم وكانوا أحيانا ينتحلون صفة التجار والباعة المتجولين حتى يصلوا مقصدهم⁽⁵⁾. ولم يكتف ابن زياد بمطاردتهم والتككيل بهم بل لجأ إلى أسلوب آخر يرمي إلى زرع الفرقة والخلاف وزعزعة الثقة بينهم, أملا في القضاء عليهم من الداخل نتيجة الانقسام والنزاع, فقد كان يحبس الجماعة منهم ثم يأمرهم بقتل بعضهم بعضا, ومن قتل رجلا عفا عنه وأخرجه من السجن, وقد حدث بالفعل أن قتل بعضهم زملاءهم في السجن فأطلق سراحهم. ولم يلبثوا أن ندموا على فعلهم وحاولوا التكفير عن خطيئتهم بدفع الدية لذوي القتلى ولكنهم رفضوا ثم عرضوا رقابهم للذبح وكن دون جدوى. وتبرأ منهم أصحابهم ولم يجدوا طريقة يكفرون بها عن فعلهم القبيح ألا بالثورة ضد ابن زياد متمثلين بالآية الكريمة [ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم]⁽⁶⁾. فخرجوا بقيادة شخص يدعى راف بن علاق فقتلوا جميعا في عبد الفطر من عام 58هـ⁽⁷⁾. وبنفس الأسلوب حاول عبيد الله بن زياد أن يوقع الفتنة بين العرب والموالي من الخوارج المعتدلين وخاصة أن دعوة أبي بلال قد استهوت عددا من الموالي الذين كانوا يقطنون البصرة فتبعوه واعتنقوا مبادئه. وقد سجن إن زياد عددا من الخوارج المعتدلين وكانوا عربا وموالي , فأمر المالي بضرب أعناق العرب فأبوا وقالوا: «لا نقتل أهل ولايتنا وأهل نعمتنا»⁽⁸⁾. ثم أمر العرب بضرب أعناق الموالي ففعلوا فأخلى ابن زياد سبيلهم وكان بينهم رجالان يدعى أحدهم قريب والأخر زحاف. وتشير المصادر الإباضية⁽⁹⁾ إلى

(1) الدرجيني، ورقة 92-93، شماخي، سير، ص 66-67.

(2) المبرد، ج3، ص260.

(3) الدرجيني، ورقة 93، ج5، ص313، المبرد، ج3، ص248-249.

(4) الدرجيني، ورقة 105.

(5) المصدر نفسه.

(6) سورة النمل، آية 111.

(7) بلاذري، أنساب، ج4، ق1، ص154، ابن الأثير، ج3، ص327، الدرجيني، ورقة 99.

(8) الدرجيني، ورقة 99.

(9) المصدر نفسه، ورقة 99.

أنهما كانا أوين بينما تذكر المصادر السنية أنهما ابني خالة⁽¹⁾. وقد ندم الرجلان على عملهما وتبرا منهما أصحابهم من القعدة واعتبروهما من المخالفين ولم يسمحوا لهما بحضور مجالسهم رغم أنهما كانا من خيار القعدة الشائن وقد حاول قريب وزحاف استعطاف شيوخ القعدة في البصرة وأبديا استعدادهما لتقبل قرارهم فيهما سواء بدفع الدية أو مواجهة الموت تكفيراً عن عملهما. ولما يقبل شيوخ فخرجا من البصرة وتبعهما سبعون رجلاً وأخذوا يستعرضون الناص وتبرا منهم أبو بلال شيخ القعدة علناً وكان يذكرهما ويقول: «قريب لا يقربه الله من الخير، وزحاف لا عفا الله عنه ركبها عشواء مظلمة»⁽²⁾ يريد اعتراضهما الناس. وف رواية أخرى أنه كان يقول: «قريب لا يقربه الله وأيم الله لأن أقع من السماء أحب إلي من إن اصنع ما مصنع يعني الاستعراض»⁽³⁾. وكان القعدة في البصرة ينكرون الاستعراض ويحرمون أموال المسلمين خلافاً لما كان يفعله متطرفوا الخوارج. وقد قتل قريب وزحاف في اشتباك مع القوات الأموية⁽⁴⁾. وتشير المصادر الإباضية إلى أن حركة قريب وزحاف قد حثت في النصف الثاني من القرن الأول الهجري. ولما كانا قد ثارا في عهد ابن زياد وقبل ثورة أبي بلال مرداس، وكان الأخير قد ثار عام 61هـ كما سنرى فالراجح أنهما ثارا قبل هذا التاريخ وربما كانت ثورتهم في عام 60هـ أي قبل سنة واحدة من حركة أبي بلال. أما رواية عمر بن شبة⁽⁵⁾. التي تذكر أنهما ثارا في عهد زياد بن أبيه وفي عام 50هـ فواضح عدم صحتها.

بعد حركة قريب وزحاف اشتد ابن زياد في ملاحقة القعدة في البصرة وحبس شيخهم أبا بلال ولكنه أطلق سراحه فيما بعد⁽⁶⁾. ولا تشير المصادر المتوافرة إلى سبب عفوه عن أبي بلال. وربما كان ابن زياد مدفوعاً في ذلك بخوفه من إثارة تميم، قبيلة أبي بلال، التي كان لها آنذاك وزن كبير في البصرة من الناحيتين العددية والفكرية، ومن المحتمل أيضاً أن ابن زياد كان يأمل في أن يستعمل أبو بلال مرداس نفوذه لدى أتباعه ليخففوا من نشاطهم ودعايتهم ضد الأمويين وولائهم. وعلى أي حال فإن هذا الموقف المتسامح تجاه أبي بلال لم يشمل أتباعه وبقي ابن زياد يلاحقهم ويشدد في طلبهم.

واتبع ضد النساء منهم أسلوب التعرية والصلب، وقد كان والده من قبل قد فعل مثل ذلك ولكنه اقتصر على من ثار منهم، - أما عبيد الله ف قد تتبع الجميع بما في ذلك المعتدلات من الخوارج. وتذكر بعض المصادر أنه أتى بالثجاء (البلجاء؟)، وكانت على رأي أبي بلال ومن مجتهديات القعدة فقطع رجليها ويديها ورمى بها في السوق كما قتل من بقي في سجنه من أصحاب أبي بلال⁽⁷⁾. وكان لهذا الاضطهاد أثر كبير في نفس مرداس فقرر أن يترك البصرة إلى مكان آخر، أملاً في أن يأمن شر بن زياد وينشر آراءه ومذهبه بحرية أكثر وفي مناطق لم تصل إليها دعوته. فسار ومعه نحو أربعين رجلاً من أتباعه حتى نزلوا أسك⁽⁸⁾. وقد أعلن مرداس بأنه وأصحابه لن سيخيفوا أحد أو يجردوا سيف ولا يقاتلوا إلا من بدأهم بالقتال. وأثناء خروجه استولى على مال لابن زياد فم يأخذ إلا عطاءه وعطاء أصحابه فخاطبه أحد أتباعه قائلاً: (فعلام

(1) الطبري، ج5، ص218، المبرد، ج3، ص344، ابن الأثير، ج3، ص463.

(2) المبرد، ج3، ص245.

(3) الطبري، ج5، ص238، أنظر أيضاً: بلاذري، ج4، ق1، ص151.

(4) الدرجيني، ورقة 99، الطبري، ج5، ص237-238، المبرد، ج3، ص245-246.

(5) الطبري، ج5، ص237.

(6) الدرجيني، ورقة 93، الطبري، ج5، ص313، المبرد، ج3، ص248، ص249.

(7) الدرجيني، ورقة 93، ص94، أنظر أيضاً: المبرد، ج3، ص247-248، ابن الأثير، ج3، ص518-519.

(8) بلاذري، أنساب، ج4، ق1، ص159، المبرد، ج3، ص251، وما بعدها، الدرجيني، ورقة 92، ابن الأثير، ج3، ص519-520.

ندع الباقي؟ فقال : انهم يقسمون هذا الفيء كما يقيمون الصلاة فلا نقاتلهم⁽¹⁾. وعلى الرغم من ذلك فان ابن زياد حشي نشاطه وانتشار دعوته فندب إليه أسلم بن زرعة في ألفي مقاتل وتقابل الطرفان في أسك ولكن لم يجر بينهما قتال، ورجع أسلم وجماعته مؤثرين السلامة والعافية. ورغم شجاعة الخوارج المعروفة في شتى معاركهم التي خاضوها إلا انه من الصعب أن يصدق المرء ما تذكره بعض الروايات من أن أسلم وجنده الآلاف قد هزمهم أربعون رجلاً أو اقل عدداً أو أنهم خافوا مواجهة هذا العدد الضئيل. ومن المحتمل أن أسلم قد اقتنع بعد النقاش الذي دار بينه وبين مرداس وأصحابه - بوجهة نظر مرداس ولكن دون أن يغير ولائه لابن زياد والأمويين. بعد عودة أسلم وجه ابن زياد لمرداس وأتبعه عباد بن علقمة المازني المعروف بعباد بن أخضر (أخضر زوج أمه) على رأس قوة مكونة من أربعة آلاف رجل . وانتصر على مرداس وصحبه وأبادهم جميعاً وكان ذلك عام 61هـ⁽²⁾.

كان لمقتل مرداس على أيدي القوات الأموية صدى عميق في نفوس أتباعه وأثار نقمة شديدة ضد ابن زياد كما انبرى شعراء الخوارج بمن ذي ذلك المتطرفون منهم يمدحونه ويعدون مآثره ويصفون عمله بالقدرة الحسنة التي على المرء أن يتمثل بها ليصل إلى رضا الله ورسوله . وأصبح مرداس بسلوكه وعمله واجتهاده (واستشهاده) المثل الأعلى لاتباعه ولمن شايعهم فيما بعد. ولكن مرداس لم يكن شخصاً عادياً بين أتباعه لتركوا دمه يذهب هذا بل كان إمامهم وزعيمهم لذلك صمموا على الأخ بئاره واستطاع نفر من أتباعه اغتيال عباد بن علقمة المازني، قائد الجيش الذي أباد مرداس وأصحابه⁽³⁾. ومنذ ذلك الوقت أصبح الاغتيال السري وسيلة هامة لدى القعدة، والإباضية فيما بعد للتخلص من كل شخص يحاول إيذاءهم⁽⁴⁾. وكان ذلك سبباً في ازدياد نقمة ابن زياد ضد القعدة في البصرة فزج قسماً منهم في السجون وقتل عدداً آخر من بينهم عروة بن أدية التميمي، أخي مرداس⁽⁵⁾. وعاض القعدة في البصرة فترة قلق وهلع شديدين، واضطروا للتستر والاختفاء خوفاً من بطش الوالي، ولجأوا - كما ذكرنا - إلى طريقة الاغتيالات السرية للقضاء على أي شخص يتسبب في قتل أحد منهم أو يسيء إليهم⁽⁶⁾.

وعندما ثار ابن الزبير في الحجاز معلناً معارضته للحم الأموي ولمبدأ الوراثة في الخلافة الإسلامية، ترك بضع الخوارج المعتدلين (القعدة) البصرة وذهبوا إلى الحجاز حيث انضموا لابن الزبير وأبدوا شجاعة وحماسة فائقة في مقاتلة الجيش الشامي أثناء حصاره لابن الزبير في مكة. وبعد موت يزيد بن معاوية ورحيل الجيش الشامي ظهر الخلاف بين الخوارج وابن الزبير فهجروه وعادوا إلى البصرة حيث تلقفهم ابن زياد وأودعهم السجون. وقد بقوا في السجن مع غيرهم ممن كان ابن زياد قد زج بهم في السجن حتى ضعف سلطان ابن زياد في البصرة - اثر التطورات التي حدثت في الدولة الأموية بعد وفاة يزيد بن معاوية - فخرج من كان في سجنه⁽⁷⁾.

(1) الدرجيني، ورقة 94، ابن الأثير، ج3، ص519، ياقوت، بلدان، ج1، ص62.

(2) أنظر من ثورة مرداس: الدرجيني، ورقة 92، الطبري، ج5، ص313، 471، ابن الأثير، ج3، ص519-520، ج4، ص94-95، المبرد، ج3، ص251-255، ياقوت، بلدان، ج1، ص62، بلاذري، أنساب، ج4، ق1، ص159.

يجدر بنا أن نشير إلى أن عدد أتباع مرداس الأربعين قد اتخذ فيما بعد من قبل الشراة رقماً واجباً لمن أحب الشراء والخروج ضد السلطة القائمة ولا يحق لأي منهم الخروج دون أن يبلغ أصحابه أربعين على الأقل.

(3) الدرجيني، ورقة 93، الطبري، ج5، ص472، ابن الأثير، ج4، ص5، المبرد، ج3، ص257.

(4) أنظر الفصل..

(5) الدرجيني، ورقة 92، الطبري، ج5، ص312-313، المبرد، ج3، ص258-260.

(6) الدرجيني، ورقة 92، 98، الدجيلي، فرقة الأزارقة، ص41-44.

(7) بلاذري، أنساب، ج4، ص116-117، 111، ص79، الطبري، ج5، ص567، تختلف الروايات حول كيفية خروج المحبوسين من السجن ولكنها كلها تجمع على أنهم خرجوا بعد ضعف نفوذ عبيد الله بن زياد بعد موت يزيد بن معاوية، واضطراب الأحوال في الدولة الأموية بشكل عام، وفي البصرة بشكل خاص.

ولم تلبث البصرة إن أعلنت ولائها لابن الزبير. ويبدو أن الخوارج القعدة في هذه الأثناء قد أخذوا يتناقشون فيما بينهم حول الخطوة التالية التي يجب أن يتبعوها والموقف الذي يرون اتخاذه إزاء ابن الزبير وإزاء الأحداث التي تمر بها الدولة الإسلامية آنذاك. وقد رأى جماعة منهم وعلى رأسهم نافع بن الأزرق أنه لا يجوز المقام بين أظهر المشركين (مخالفهم) ويبدو أن نقاشاً حاداً جرى بينه وبين من أثر القعود وانتهى إلى أن كفر نافع وأتبعه القعدة واعتبروهم مشركين مخالفين كبقية المسلمين وبالتالي فإن أصحابه أطوا دماءهم وأموالهم⁽¹⁾. وبهذا بدأ الانقسام النهائي بين الخوارج المتطرفين والمعتدلين أو القعدة الذي حث حوالي عام 64 هـ هو الذي حدا ببعض المؤلفين إلى الاعتقاد بأن الخوارج قد انقسموا إلى أربع فرق وهي الأزارقة والنجدية والصفورية والإباضية. والحقيقة أن ما حدث فعلاً هو انقسام نهائي بين المتطرفين من الخوارج وبين القعدة الذين أثروا العقود وحبذوا الدعوة لمذهبهم بالطرق السلمية، أما القعدة فلم ينقسموا إلى إباضية وصفورية إلا في وقت لاحق كما سنرى في الفصول القادمة من هذا البحث.

ويبدو أن زعيم القعدة من الخوارج بعد موت مرداس وأثناء الانقسام الأنف الذكر كان الشاعر المعروف عمران بن حطان، إذ إن المصادر الإباضية تذكر صراحة بأنه كان رئيس القعدة بعد وفاة مرداس⁽²⁾. وتشير بعض المصادر الأخرى⁽³⁾ إلى أن عمران كان رئيس للقعدة الصفورية⁽⁴⁾ ولكنها لا تذكر متى كان ذلك و بينما تكتفي مصادر أخرى بالإشارة إلى أنه كان من دعاة الشراة والمعدمين في مذهبهم⁽⁵⁾. والواقع أن هذه الروايات كلها صحيحة رغم ما يبدو فيها من تناقض للقارئ في أول الأمر، فالإباضية والصفورية كانوا فرقة واحدة قبل انقسامهم، وكانوا يشكلون معاً جماعة القعدة من الخوارج. ولما انقسموا في فترة لاحقة صار أتباع كل فرقة يجلون رؤساءهم ومقدميهم قبل الفرقة والانقسام، وتولى أتباع الفرقتين عبدالله بن وهب الراسبي وحر قوص بن زهير السعدي ومرداس بن أدية التميمي وعمران بن حطان. وتبعاً لذلك فقد ادعت كل فرقة نسبة عمران إليها. وكان عمران آخر رئيس لهم قبل انقسامهم. ومما يدل على أن عمران كان رئيساً للفرقتين قبل الانقسام أن المصادر الإباضية تصفه بأنه كان رئيس القعدة في البصرة بعد مرداس وأنه كان من أئمة الإباضية⁽⁶⁾. ولو كان عمران رئيس للصفية فقط لما ادعت المصادر الإباضية مثل ذلك وخاصة أنها حريصة بأن لا تذكر أياً من مخالفهم من الخوارج بالتبجيل والاحترام. ويعود السبب في وصف المصادر غير الإباضية لعمران بأنه كان رئيساً للقعدة من الصفورية إلى جهل هذا المصادر بتطور حركة الخوارج القعدة في تلك الفترة وإلى إن الصفورية بعد انفصالهم عن الإباضية اعتبروا عمران مؤسس مذهبهم الفقهي بينما اعتبر الإباضية جابر بن زيد مؤسساً لمذهبهم⁽⁷⁾.

وعلى أية حال فإن الفترة التي أعقبت موت مرداس والتي تزعم عمران فيها جماعة القعدة اتسمت بالهدوء والسكينة. واتجه القعدة نحو الدراسة والتعمق في الدين وما يتصل به من علوم. وجدير بالذكر أن عمران نفسه كان محدثاً وعالماً وفقهاً. وسار على منوال أبي بلال في نشر دعوته وإنكار الاستعراض وتحريم أموال بقية المسلمين ودمائهم.

(1) أنظر من آراء الأزارقة: الأشعري، مقالات، ص 86، وما بعدها، الشهرستاني، ملل، ج 1، ص 163-164، الدرجيني، ص 97-110.

(2) الدرجيني، ورقة 97، شماخي، سير، ص 77.

(3) البغدادي، ص 71.

(4) الجاحظ، البيان، ج 1، ص 47، المبرد، ج 3، ص 262.

(5) أبو الفرج، الأغاني، ج 16، ص 152-153.

(6) الدرجيني، ورقة 97، شماخي، سير، ص 77.

(7) Schacht, The Origins of Muhammadan Jurisprudence, P. 260

ويبدو إن القعدة قد عاشوا فترة سلام وهدوء أثناء حكم ابن الزبير للبصرة، ولا تذكر المصادر الإباضية والسنية والشيعية أي احتكاك مسلح بين الطرفين. ومن المعتقد إن العلاقات بينهما كانت طيبة حتى أن مصعب بن الزبير كان يحترم زعماءهم ويمسي في جنازة من يموت منهم⁽¹⁾. ولا تشير المصادر المتوافرة إلى أسباب وجود هذه العلاقة الحسنة بين الطرفين رغم اختلافهما في كثير من البادئ والأهداف. ومن المحتمل أن القعدة قد أدركوا عدم قدرتهم على القيام بأي نشاط علني يؤلب عليهم الولاة، وآثروا اللجوء إلى الهدوء والاكتفاء بالدعاية لمذهبهم سرا وبطريقة لا تسبب غضب عمال ابن الزبير، وخاصة أن القعدة كانوا يفضلون حكم ابن الزبير على الحكم الأموي، وعلى الرغم من معارضته لمبادئهم وخاصة ما يتعلق منها بنظرتهم لعثمان وعلي وبعض الصحابة الآخرين ومن بينهم أبيه الزبير بن العوام الذي تبرأ منه الخوارج المتطرفون والمعتدلون، ومن جهة أخرى فإن الزبيريين أرادوا تجنب استثارة القعدة وخاصة أنهم كانوا يواجهون أعداء كثيرين مثل الأزارقة والشيعية والأمويين. وقد ضمن ولاة ابن الزبير بموقفهم المتسامح من القعدة عدم قيام القعدة بالمعارضة العلنية لكم ابن الزبير وبكلمة فقد كانت العلاقات السلمية بين القعدة والزبيريين لمصلحة الطرفين وقد أدرك كل منهما ذلك ولم يحاول استنزاف الطرف الآخر.

وبعد أفول شمس ابن الزبير وإعادة العراق لحظيرة الحكم الأموي ونشط القعدة من جديد وابدوا معارضتهم العلنية (دون اللجوء إلى العنف والسلاح) للحكم الأموي. وقد تمثلت هذه المعارضة في الدعاية الجادة النشطة ضد حكمهم. وعندما تولى الحجاج العراق عام 75هـ اشتدت دعوتهم حتى أن الحجاج قد اشتكى لعبد الملك بن مروان من نشاط عمران بن حطان، زعيم القعدة آنذاك. واستأذنه بحرية التصرف تجاه عمران وأصحابه بحجة أن عمران قد أفسد عليه أهل العراق⁽²⁾. ولما كان عمران شاعرا موهوبا وخطيبا بليغا فقد وظف هذه المواهب في خدمة مذهبه، فلا عجب إذن أن يبدي الحجاج قلقه منه وخوفه من انتشار أفكاره وإفساد الناس عليه وتآليبهم ضد سياسته ومنهجه في الحكم. لذلك قام بحبس عمران ولكنه لم يلبث أن أطلقه، ربما بإيعاز من عبد الملك بن مروان في محاولة لكسب ود القعدة والتفرغ لمحاربة الخوارج المتطرفين كالأزارقة والنجدية⁽³⁾.

كانت هذه الخطوة من جانب الوالي الأموي منطلقا لتحول خطير في تاريخ حركة الخوارج القعدة. فقد أدى إطلاق سراح عمران من السجن وموقفه من الحجاج بعد ذلك إلى جدل عنيف ونقاش حاد بين جماعة القعدة، إذ تذكر المصادر الإباضية أن أصحاب عمران قد اجتمعوا إليه بعد خروجه من الحبس فقالوا: (إنما أطلقك الله لما رأى لنا في رجوعك إلينا، فهلم إلى محاربة الحجاج فقال هيهات! غل يدا مطلقها، واسترق رقبه معتقها، والله لا حاربتة أبدا....)⁽⁴⁾. وقد أدى هذا الموقف إلى انقسام في الرأي عميق بين أصحاب عمران من القعدة واختلّفوا حول الخطوة التالية الواجب اتخاذها إزاء التطورات التي حدثت نتيجة لسياسة الحجاج إزاءهم ولموقف عمران من الوالي. وانتهى الجدل والنقاش بينهم إلى انقسام القعدة إلى فرقتين الصفرية وكانت ترح الخروج والثورة ولكنها لا تكفر من قعد كما فعل الأزارقة ومن قبل، والإباضية وهي التي

(1) شماخي، سير، ص81.

(2) أبو الفرج، أغاني، ج16، ص153.

(3) عن حبس عمران، أنظر: الدرجيني، ورقة 97، شماخي، سير، ص77، المبرد، ج3، ص167-172.

(4) الدرجيني، ورقة 97.

آثرت الاستمرار في القعود حتى تحين الفرصة المناسبة للانقضاء على الحكم القائم وتأسيس الإمامة طبقاً لمبادئهم.

أما عمران نفسه فيبدو أنه استاء من النتيجة التي انتهى إليها الجدل بين جماعته وقرر ترك البصرة، وأخذ يتنقل بين أحياء العرب في العراق والشام وعمان منتحلاً أسماء مختلفة ومنتسباً في كل مرة نسباً جديد يقربه من القوم الذين استضافوه. واستقر أخيراً في عمان حيث وجد أهلاً يعظمون أبا بلال مرداس ودعوته فأظهر أمره بينهم وبقي هناك حتى مات⁽¹⁾.

(1) الدرجيني، ورقة 97، شماخي، سير، ص77، المبرد، ج3، ص171-172.

الباب الرابع

الفصل السادس

عبدالله بن إياض وتطور الحركة الإباضية

على الرغم من اضطراب المعلومات الواردة في المصادر حول تسمية الإباضية وتاريخ نشأتها وكيفية ذلك، إلا أن معظم المصادر غير الإباضية تشير إلى أن هذه الفرقة سميت بهذا الاسم نسبة إلى عبدالله بن إياض الذي ينتمي إلى قبيلة تميم⁽¹⁾.

أما الملطي فينسب الإباضية إلى شخص اسمه إياض بن عمر، ويذكر أن أتباعه قد خرجوا من سواد الكوفة فقتلوا وسبوا الذرية، ويضيف إلى أن بقاياهم كانت موجودة في تلك المنطقة حتى منتصف القرن الرابع الهجري⁽²⁾، إلا أن هذه المعلومات التي أوردها الملطي لا يمكن الركون إليها، لأنها تخالف جميع الروايات الواردة في المصادر الأخرى المعروفة لدينا، كما أن المؤلف يورد أخباراً وأعمالاً منسوبة إلى الإباضية لا تقرها أيضاً المصادر المتوافرة التي تتكلم عن نشأة الإباضية ومبادئها وسلوك أتباعها تجاه الآخرين، فقد عارض الإباضية منذ البداية استعراض الناس وسبي الذرية التي زعم الملطي أنهم قاموا بها، أما السمعاني⁽³⁾ فيرى أن الإباضية تنسب إلى شخص يدعى الحارث الإباضي ويسمي فرقته بالحارثية، وكذلك المقدسي فإنه ينسبهم إلى رجل يدعى الحارث بن إياض⁽⁴⁾، ويرد اسم الحارث هذا وفرقته عند بعض مؤلفي المقالات مثل الأشعري وابن حزم⁽⁵⁾، ولكننا لا نجد ذكراً لهذا الرجل ولا لفرقته في المصادر الإباضية مما يدل على خطأ هذا القول، فلو صح أن الحارث الإباضي كان أحد رجال الإباضية البارزين وأئمتهم المشهورين لوجدنا له ترجمة في كتب طبقات الإباضية وسيرها، ولكننا لم نعثر على مجرد إشارة عابرة لهذه الشخصية في تلك المؤلفات، وقد أوضح الشيخ علي يحيى معمر المؤرخ الإباضي المعاصر، أن مثل هذه الشخصية لا وجود لها على الإطلاق في تاريخ الحركة الإباضية، كما أن الآراء المنسوبة إليه وإلى فرقته بعيدة كل البعد عن آراء الإباضية ومبادئها⁽⁶⁾.

ومهما تعددت الروايات وتناقضت فإن معظم المصادر بما فيها الإباضية تشير إلى أن اسم الفرقة الإباضية مشتق من اسم عبدالله بن إياض⁽⁷⁾، أما عبدالله بن إياض نفسه فلا نعرف عنه إلا معلومات يسيرة لا تكفي لتوضيح دوره في نشأة الحركة الإباضية وتطورها، ولا تذكر المصادر المتوافرة على اختلافها وتنوعها، شيئاً من حياة ابن إياض الأولى، ولا عن مكان ولادته وتاريخها كما أنها تغفل تماماً ذكر أية معلومات عن كيفية انضمامه للحركة، ولا يرد اسمه في المصادر

(1) ابن قتيبة، المعارف، القاهرة، 1960، ص622، المبرد، ج3، ص275، البغدادي، الفرق بين الفرق، بيروت، 1073م، ص82، الرازي، أبو حاتم أحمد بن حمدان، الزينة في الكلمات الإسلامية، تحقيق عبدالله السامرائي، 1972م، ص54، الحنفي، أبو محمد عثمان بن عبدالله، الفرق المعتزلة بين أهل الزيغ والزندقة، أنقرة، 1961م، ص14، أنظر أيضاً ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، القاهرة، 1962م، ص207، ابن عدي، العقد، ج3، ص346-347، أبو المظفر الأسفرايني، التبصير، 1955م، ص56، مؤلف مجهول، كتاب الأديان، مخطوط، ورقة 98.

(2) الملطي، التنبيه، بيروت، 1968م، ص25، القاهرة، 1949م، ص55.

(3) السمعاني، أنساب، حيدر آباد، 1962م، ص87.

(4) المقدسي، البدء والتاريخ، باريس، 1916م، ص138.

(5) الأشعري، ص189، ابن حزم، ج4، ص188-189.

(6) علي يحيى معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية، ص22-23، ص47.

(7) أنظر ملاحظة رقم 1 وأيضاً الدرجيني، ورقة 93، شماخي، سير، ص77، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 19، الأزكوي، ورقة 244، القلهاتي، ورقة 197.

قبل اشتراكه في محاربة الجيش الشامي بجانب ابن الزبير عام 36هـ، ويرى كل من المفكر الإباضي المعاصر محمد بن يوسف أطفيش، والمستشرق الإيطالي روبيناتشي Rubinacci أن عبدالله بن إياض قد ارتحل إلى البصرة من نجد، ولكن العالمين لا يذكران متى حدثت هذه الرحلة وما هي أسبابها، وهل ارتحل إلى البصرة منفرداً أم مع مجموعة من قبيلته التي استوطنت البصرة بعد الفتح الإسلامي⁽¹⁾، ويشير أطفيش إلى أن عبدالله بن إياض كان صحابياً لفترة قصيرة من الوقت⁽²⁾، وما دمنا لا نعرف بالضبط تاريخ ولادته ومكانها، كما نجهل تاريخ وفاته أيضاً فمن الصعب أن نقطع بصحة هذه المعلومات، ما لم تظهر لنا مادة جديدة تلقي ضوءاً على هذا الموضوع، ومن جهة أخرى فإن المصادر الإباضية⁽³⁾ تجعله من رجال الطبقة الثانية من التابعين، أي الذين ماتوا قبل عام 100هـ، ويذكر بعض المؤرخين الإباضية أن ابن إياض قد «نشأ في زمن معاوية بن أبي سفيان، وعاش إلى زمن عبدالملك بن مروان»⁽⁴⁾، بينما يذكر ابن إياض نفسه في رسالته إلى عبدالملك بن مروان أنه أدرك معاوية وأنكر عليه أشياء كثيرة⁽⁵⁾، مما يدل على أنه لم يكن حدثاً إبان خلافة معاوية (41هـ/661م-60هـ/680م) وأنه كان في وضع فكري وثقافي مكنه من نقد سياسة معاوية، ومن هنا فإن كلمة النشؤ التي أشار إليها بعض المؤرخين إنما تعني النشؤ الفكري وليس الحياتي، ولكننا لا نملك دليلاً على أن ابن إياض قد اشترك في الحرب الأهلية الإسلامية التي انتهت باعتلاء معاوية عرش الخلافة الإسلامية، وأول إشارة صريحة موثوقة عن اشتراك ابن إياض في الحياة العامة كانت اشتراكه في الدفاع عن الكعبة المشرفة إلى جانب ابن الزبير ضد الجيش الأموي بقيادة الحصين بن نمير السكوني الذي خلف القائد الأموي مسلم بن عقبة عام 63هـ/682م، وكان قد ذهب إلى مكة مع بعض قادة المحكمة مثل نجدة بن عامر الحنفي ونافع ابن الأزرق وغيرهم مدفوعين برغبتهم وحماسهم في الدفاع عن البيت الحرام، على الرغم من اختلافهم في المبادئ، مع ابن الزبير⁽⁶⁾، وبذلك يقول البلاذري: «وكانوا (المحكمة) غضبوا للبيت فقاتلوا مع ابن الزبير وهم لا يرون نصره ولكنهم احتسبوا في جهاد أهل الشام»⁽⁷⁾، وعندما انسحب الجيش الشامي وعقب وفاة يزيد بن معاوية حاول ابن إياض ومن معه من المحكمة إقناع ابن الزبير بوجهة نظرهم، ووعدوه بالنصرة والمساعدة أن وافقهم وتبرأ من عثمان وعلي وطلحة ووالده الزبير بن العوام.

ومن المحتمل أن هؤلاء القادة من المحكمة قد أثروا أن يجدوا لهم زعيماً من قريش التي لا تزال رغم احتجاج بعض القبائل في الأمصار على احتكارها للزعامة- تتمتع بمكانة خاصة لدى بعض المسلمين، كما أن الناس قد تعودوا أن يروا خليفته من رجال هذه القبيلة التي كانت لها مكانتها الخاصة بين القبائل قبل الإسلام وتشرفت ببعثة الرسول الكريم منها، ومن المرجح أيضاً أن المحكمة أرادوا أن يخضعوا للزعامة القرشية لإرادة القبائل ومصالحها ولكن رفض ابن الزبير لآرائهم بدد أحلامهم وجعلهم يفقدون الأمل وبالتالي يصرفون النظر كلياً عن الزعامة القرشية.

(1) محمد بن يوسف أطفيش، رسالة شافية في بعض التواريخ، الجزائر، طبعة حجرية، 1299هـ، ص49، Rubinacci, "The Ibadis", Loc. Cit

(2) محمد بن يوسف أطفيش، رسالة شافية، ص49.

(3) الدرجيني، ورقة 92، شماخي، سير، ص77، الأزكوي، ورقة 244.

(4) الأزكوي، ورقة 244، الحارثي، العقود الفضية، ص121 (عن الرقيشي).

(5) أنظر نص الرسالة في البرادي، الجواهر، ص156-167، الأزكوي، ورقة 200-207، الحارثي ص122، وما بعدها، (من كتاب السير العمانية القديمة).

(6) الطبري، ج5، ص563، 566.

(7) البلاذري، أنساب، ج4، ق2، ص102.

على أثر الخلاف بين ابن الزبير والمحكمة الذين اشتركوا معه في قتال الشاميين ترك المحكمة مكة المكرمة وعاد بعضهم، ومن بينهم عبدالله بن إياض، إلى البصرة في عام 64هـ، بينما اتجهت طائفة أخرى منهم إلى اليمامة وبايعوا فيما بعد نجدة بن عامر الحنفي إماماً لهم، وسموا تبعاً لذلك بالنجدات، ونادوا بأراء متطرفة مخالفة لما كان معروفاً من اعتدل آراء القعدة في البصرة⁽¹⁾.

بعد عودة المحكمة من الحجاز إلى البصرة دار بينهم نقاش حاد حول الخطوة التالية الواجب اتخاذها، وكانت المسألة الهامة التي جرى الجدل والنقاش حولها هو الموقف من التطورات التي مرت بها الدولة الإسلامية آنذاك، وهل الخروج واجب أم أن البقاء بين أظهر المسلمين والتعايش معهم هو المحبذ في تلك الفترة، وقد استقر رأي زعمائهم على الخروج ومن بينهم نافع بن الأزرق وعبدالله بن إياض وغيرهم، ولما جن الليل سمع عبدالله بن إياض «دوي القراء ورنين المؤذنين وحنين المسبحين، فقال لأصحابه: أعن هؤلاء أخرج معهم؟ فقرر القعود ورجع وكنتم أمره»⁽²⁾، وأياً كان الصحيح فمن الثابت أن ابن إياض لم يقتنع بالخروج، وأنه فارق ابن الأزرق وأتباعه، وبدأ فصل جديد في تطور حركة الخوارج تميز بالفرقة والنزاع وتكفير بعضهم بعضاً، وانقسموا كما ذكرنا في صفحات سابقة إلى قسمين أحدهما غال متطرف، والآخر مسالم معتدل، وقد مثل الجانب الأول نافع بن الأزرق بينما مثل الفريق الآخر من أثر القعود ومن أبرزهم عبدالله بن إياض، وقد أدى هذا الانقسام في الموقف السياسي إلى تباين فكري وعقائدي واضح، فقد نادى الذين أثروا الخروج بأراء متطرفة وتبنوا مواقف غالية جداً تجاه بقية المسلمين بمن فيهم أقرانهم من الخوارج القعدة، وقد أحل ابن الأزرق دماء المسلمين وأموالهم وأوجب الاستعراض ووصف بقية المسلمين بالمشركين، ونادى بعدم التعامل معهم، أو جواز مناكحتهم وموارثتهم، وحاول بعد خروجه إقناع من حبذ القعود بالحق به وكتب إليهم كتاباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد، فإن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون، والله إنكم لتعلمون أن الشريعة واحدة والدين واحد، فقيم المقام بين أظهر الكفار؟ ترون الظلم ليلاً ونهاراً، وقد ندبكم الله إلى الجهاد، فقال: [وقاتلوا المشركين كافة]، ولم يجعل في التخلف عذراً في حال، فقال: [انفروا خفافاً أو ثقلاً]، وإنما عذر الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون، ثم فضل عليهم مع ذلك المجاهدين فقال: [لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدين في سبيل الله] فلا تغتروا ولا تطمئنوا إلى الدنيا..»⁽³⁾ ولما قرأ ابن إياض رسالته رد عليه بقوله: «قاتله الله، أي رأي رأي، صدق نافع!، لو كان القوم مشركين كان أصوب الناس رأياً، وكانت سيرته كسيرة النبي في المشركين ولكنه قد كذب فيما يقوله، أن القوم براء من الشرك، ولكنهم كفار بالنعم والأحكام، ولا يحل لنا إلا دماؤهم، وما سوى ذلك فهو حرام علينا»⁽⁴⁾.

ويبدو أن القعدة قد اختاروا ابن إياض ليكون المجادل باسمهم ضد الأزارقة وغيرها من الفرق المتطرفة من الخوارج، ولكننا لا نسمع عن ابن إياض منذ رده على نافع بن الأزرق حتى وقت متأخر، وبالضبط في أيام خلافة عبدالملك بن مروان، وربما كان ذلك في بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري، أي بعد قدوم الحجاج إلى العراق والياً عليها، ويبدو أن القعدة في هذه الفترة بين عامي 64هـ و 75هـ، وقد اختاروا عمران بن حطان الشاعر الموهوب، والخطيب البليغ

(1) الطبري، ج5، ص566.

(2) البرادي، الجواهر، ص155، الحارثي، العقود الفضية، ص123.

(3) الميرد، ج2، ص290، الطبري، ج5، ص568، الدجيلي، ص76 وما بعدها.

(4) الميرد، ج2، ص290، الطبري، ج5، ص568، الحارثي، العقود الفضية، ص123.

والعالم بالدين ليقوم بدحض آراء مخالفيهم ومن هنا فقد وصفته المصادر الإباضية بأنه رئيس القعدة في البصرة⁽¹⁾.

وعلى أي حال فإن بعض المصادر تدعي بأنه في هذه الفترة التي تزعم فيها ابن إياض حركة المعارضة ضد متطرفي الخوارج تكونت الفرقة الإباضية ونسبت تكوينها إلى ابن إياض نفسها، واعتبرته رئيس الفرقة ومؤسسها⁽²⁾.

أما المصادر الإباضية فتنسب إلى عبدالله بن إياض دوراً ثانوياً بالمقارنة مع جابر بن زيد الأزدي الذي تعتبره إمام الإباضية (جماعة المسلمين) ومؤسس فقهم ومذهبهم، وتذكر أن ابن إياض كان يصدر في كل أفعاله وأقواله عن جابر بن زيد⁽³⁾، ولكنها في الوقت نفسه تذكر أنه كان إمام أهل التحقيق، ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأمصار⁽⁴⁾، وتضيف هذه المصادر وتقول أنه الشخص الذي ناظر الخوارج (المتطرفين) والقدرية والمعتزلة والمرجئة والشيعة⁽⁵⁾، ورغم أن بعض هذه الجماعات لم تكن قد اكتمل تكوينها بعد، وأن المصادر لم تذكر طبيعة النقاش والجدل بين ابن إياض وبين هذه الفرقة إلا أن في القول دلالة على أن ابن إياض كان المناظر حقاً، والمدافع قوياً عن آراء القعدة من الخوارج، ولكن الصعب في الأمر هو التوفيق بين كون ابن إياض إمام أهل التحقيق، ورئيس القعدة ورئيس من بالبصرة وغيرها من الأقطار من جهة، وبين كونه لا يصدر في أفعاله إلا بأوامر جابر بن زيد الذي تعتبرها المصادر الإباضية المؤسس الحقيقي لدعوتهم.

ومن المحتمل أن جابراً كان الإمام الروحي وفقه الإباضية ومفتيهم وكان بالفعل هو الشخص الذي بلور الفكر الإباضي، بحيث أصبح متميزاً عن غيره من المذاهب الإسلامية، وكان ابن إياض المسؤول عن الدعوة والدعاة في شتى الأقطار، ولذلك سمته المصادر رئيس القعدة في البصرة وغيرها من الأمصار، وتاريخ الدعوة الإباضية يشير إلى اشتراك بعض الأشخاص البارزين والمجتهدين في المسؤولية إلى جانب الإمام الأكبر لهم، وقد حدث مثل ذلك زمن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي أناط المهام المالية والعسكرية والإشراف على سير الدعوة خارج البصرة إلى أبي مودود حاجب الطائي، ولما كان أبو عبيدة آنذاك معروفاً لدى الناس بأنه شيخ الإباضية وزعيمها في البصرة فإن المصادر لم تخلط بينه وبين حاجب الطائي، كما فعلت مع جابر وابن إياض، وذلك لأن جابراً كان قد أخفى معتقده، واستعمل التقية الدينية فلم يخطر على بال أحد أنه زعيم القعدة ومؤسس مذهبها، وخاصة أنه لم يكن معروفاً لدى البصريين إلا بكونه أحد التابعين المحدثين الثقات، وأهم فقيه في البصرة بعد الحسن البصري، ولذا فإن المصادر السنية أسهبت في الحديث عنه اعتقاداً منها أنه لا ينتمي إلى أي فرقة من الفرق الإسلامية التي ظهرت للوجود في القرن الأول الهجري، والواقع أن جابراً كان ذا علاقة وثيقة بحركة الخوارج القعدة منذ وقت مبكر، وأصبح أحد مفكريها البارزين منذ بداية النصف الثاني للقرن الأول الهجري، وقبل مقتل أبي بلال مرداس عام 61هـ، وقد اكتسب ثقة أقرانه لعلمه ودينه، فكانوا لا يصدرون في شيء إلا بعد مشورته، ولكن ذلك قد خفي على مخالفيهم ولم يعرفوا له هذا الدور، ولذا نسبوا الفرقة إلى ابن إياض، وهو الشخص الذي قدموه لينظر أعداءهم ويتكلم باسمهم علناً، وكان بذلك هو المعروف لدى عامة الناس فغلب اسمه على من اتفق معه في الرأي، كما أن مراسلاته مع الخليفة الأموي

(1) أنظر فوق، ص72.

(2) ابن حزم، جمهرة، ص207، الذهبي، لسان الميزان، ج2، ص248، البغدادي، ص82.

(3) شماخي، سير، ص177، محمد بن يوسف أطفيش، رسالة شفاوية، ص43، (عن ابن وصاف).

(4) الدرجيني، ورقة 92، شماخي، ص177، البرادي، الجواهر، ص155، (يصفه بأنه رأس القعدة وإمام القوم).

(5) الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 38، الأزكي، ورقة 199، الدرجيني، ورقة 92، الحارثي، ص123.

عبد الملك بن مروان قد أفتعت كثيراً من معاصريه بأنه هو إمام الإباضية ومؤسسها، ومن حق القارئ أن يسأل لماذا لم يقيم الإمام الحقيقي جابر بن زيد، بالمراسلة مع الخليفة بدلاً من ابن إياض؟ والجواب يكمن في مؤسسها ومنظم دعوتها مستوراً حتى لا يبطش به الأعداء والولاة، وبذلك يقول الرقيشي: «.. فقد بلغنا أن أبا بلال مرداس بن حدير وغيره من أئمة المسلمين لم يكونوا يخرجون إلا بأمر إمامهم في دينهم جابر بن زيد العماني رحمه الله ومشورته، ويحبون ستره عن الحرب، لئلا تموت دعوتهم وليكون رداءً لهما⁽¹⁾»، ويقول قاسم بن سعيد الشماخي: «كان (ابن إياض) المجاهد علناً، المناضل علناً، في سبيل تحقيق الحقائق، وتصحيح قضايا العقول، فيما أحدثه أهل المقالات والبدع من الزور والافتراء في شريعة ربنا، وكان شديداً في الله تعالى، وله مناظرات مع أهل التتطس والتفلسف، كان الحجة الدامعة التي يخنس أمامها كل ثرثار، وله كلام مع عبد الملك بن مروان يهضم نفس كل حائر جبار، تغلب على المسلمين أصحابه، الذين يقولون بقوله الإباضية، وتسمى المذهب باسمه على هذا المعنى، وإنما كان الإمام القائد، والوسيلة الراشد، أس المذهب وحاميه، مرجع الفضل في تدوينه وتشبيده مبانيه، إنما كان جابر بن زيد رضي الله عنه⁽²⁾»، أما المؤرخ الإباضي المعاصر محمد علي دبوز فيرى أن الأمويين هم الذين أطلقوا عليهم هذا الاسم، نسبة إلى عبد الله بن إياض لأن الأخير كان من علمائهم وشجعانهم والمناظر باسمهم، كما أن الأمويين لا يريدون نسبة هذه الفرقة إلى جابر حتى «لا يجذبوا إليهم الأنظار، ولا يبدون في هالة جابر المشرقة، فتميل إليهم النفوس، فنسبوههم إلى عبد الله بن إياض، وهو أقل منزلة من جابر في العلم، وإن كان لا يقل عنه في التقوى والورع والصلاح⁽³⁾»، والدليل على صحة هذه الأقوال التي يوردها مؤرخوا الإباضية أن أتباع الفرقة لم يطلقوا على أنفسهم هذا الاسم في تلك المرحلة، وكانوا يصفون أنفسهم باسم «المسلمين أو جماعة المسلمين أو أهل الدعوة»، وأحياناً كانوا يقبلون لفظ الخوارج ولكنهم كانوا يميزون أنفسهم عن المتطرفين منهم بإطلاق لقب خوارج الجور على المتطرفين، وإذا تفحص الباحث المصادر الإباضية الأولى فإنه لا يجد فيها هذا الاسم، أي الإباضية، بل غالباً ما يجد لفظ جماعة المسلمين، أو أهل الدعوة للتدليل على أتباع الفرقة، وإذا رجعنا إلى هذه المؤلفات التي كتبها أئمة الإباضية مثل مدونة أبي غانم الخراساني، وكتاب الزكاة لأبي عبيدة والآثار الأخرى الباقية المنسوبة إلى جابر بن زيد فإننا لا نعثر فيها على كلمة إباضية، ولكن يبدو أنهم مع مرور الزمن وإصرار مخالفيهم على تسميتهم بهذا الاسم قد قبلوا به وخاصة أنهم لم يجدوا فيه ما يؤذيهم أو يسيء إلى سمعتهم، وقد ظهر لأول مرة في المؤلفات الإباضية المغربية في الربع الأخير من القرن الثالث الهجري.

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو: لماذا قدم الإباضية ابن إياض فيجادل باسمهم علناً وينظر مناوئهم ويكشف عن بعض مبادئهم في الوقت الذي كانت فيه الحركة تمر فيما عرف بطور الكتمان، أو السرية التامة، يبدو أن الإباضية في تلك المرحلة رأوا أنه لا بد لهم من الإفصاح عن آرائهم ومعتقداتهم وخاصة ما يتعلق منها بوجهة نظرهم نحو متطرفي الخوارج ونحو بقية المسلمين، حتى لا يتعرضوا للسخط من بقية المسلمين الذين اعتبروا الخوارج المتطرفين، مثل الأزارقة، مارقين تجب محاربتهم والقضاء عليهم، ولذا كان لا بد للقعدة الإباضية ممن يفصح عن رأيهم حتى لا توجه إليهم تلك الاتهامات التي وسم بها متطرفو الخوارج، وكان ابن إياض هو المؤهل للقيام بهذه المهمة الدعائية، لأنه بالإضافة إلى قدرته على المناظرة والمجادلة، ينتمي إلى

(1) الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 20.

(2) علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، ج1، ص150-151، (عن الشماخي).

(3) محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج2، ص398-399.

قبيلة تميم، إحدى أهم قبائل البصرة آنذاك ومن الصعب على الولاة أن يتعرضوا له بأذى خوفاً من إغضاب قبيلته، ومن هنا فإنه وصف عثمان بن عفان وخلفاء بني أمية بالظلم والفساد ومخالفة المبادئ الإسلامية في مراسلاته مع عبد الملك بن مروان، ولم يخاطب عبد الملك نفسه بل لقب أمير المؤمنين أو خليفة المسلمين، بل خاطبه باسمه مجرداً من أي لقب، ورغم ذلك فإن عبد الملك لم يتخذ ضده أية إجراءات، وهذا دليل على أن ابن إياض الذي ينتمي إلى قبيلة تميم كان آنذاك يتمتع بحماية قبيلته مما جعل اضطهاده أمراً صعباً، وخاصة أنه لم يحمل السيف ولم يجرد السلام ضد الحكام الأمويين، وعلى أي حال فإن الرسالة التي بعث بها إلى عبد الملك تعد وثيقة هامة للكشف عن الخطوط العريضة للأراء والمبادئ الإباضية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الحركة كما أنها تلقي ضوءاً على نظرة لمحكمة للتطورات التي حدثت في صدر الإسلام ابتداء من موت رسول الله ﷺ وحتى فترة حكم عبد الملك بن مروان، ونظراً لأهميتها فقد ألقناها في نهاية الكتاب.

ويبدو أن عبدالله بن إياض قد اكتسب نتيجة لهذه المناظرات- سمعة واسعة حتى أن فرقاً غير إباضية ادعت نسبته إليها مثل الفرقة العمرية⁽¹⁾، كما أن الحارثية أتباع حارث بن مزيد الإباضي قد ادعوا نسبته إليهم، وزعموا «أنه لم يكن لهم إمام بعد المحكمة الأولى إلا عبدالله بن إياض وبعده حارث بن مزيد الإباضي»⁽²⁾.

أما عن نشاط ابن إياض بعد مراسلاته مع عبد الملك بن مروان فلا تذكر المصادر معلومات موثوقة يمكن الاطمئنان إليها، ويزعم كل من الشهرستاني والقزويني أن عبدالله بن إياض قد اشترك في ثورة طالب الحق التي بدأت في حضرموت واليمن في عام 129هـ، ضد مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين⁽³⁾، إلا أن هذه المعلومات لا تؤكد المصادر الأخرى الأقدم زمناً، كما أن المصادر الإباضية لا تذكر ذلك مطلقاً، ولو اشترك ابن إياض في هذه الثورة لورد اسمه بين الأشخاص البارزين في الثورة، ولأكدت المصادر الإباضية دوره، أضف إلى ذلك أن المصادر غير الإباضية التي تسهب في الحديث عن ثورة طالب الحق مثل أنساب البلاذري وتاريخ خليفة ابن خياط وتاريخ الطبري وأغاني الأصفهاني لا تشير إلى اشتراك ابن إياض في تلك الثورة، وقد مر معنا أن بعض المؤرخين الإباضيين يذكرون أنه قد عاش حتى زمن عبد الملك بن مروان رغم أنها لا تذكر متى توفي⁽⁴⁾، وإذا صحت هذه المعلومات وأن ابن إياض قد توفي خلال فترة حكم عبد الملك فإن ذلك يعتبر نفيًا قاطعاً لاشتراكه في تلك الثورة، زد على ذلك أن كتب الطبقات الإباضية تجعله من رجال الطبقة الثانية، أي الذين عاشوا خلال النصف الثاني من القرن الأول الهجري وماتوا قبل عام 100هـ، ولما كانت ثورة طالب الحق قد بدأت عام 129هـ فمن غير الممكن إذن أن يكون ابن إياض قد اشترك فيها أو حتى عاصرها، بالإضافة إلى ما ذكرنا فإن كلاً من القلهاتي والأزكوي يورد قائمة لرجال الإباضية الأوائل ويذكر فيها أن عبدالله بن إياض، كان من تلاميذ عبدالله بن وهب الراسبي وجابر بن زيد الأزدي، وكان أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي تلميذاً لعبدالله بن إياض بينما كان عبدالله بن يبي طالب الحق وقائده المختار بن عوف الأزدي (أبو حمزة الشاري) تلميذاً أبي عبيدة، وليس هناك أية إشارة لاشتراك عبدالله بن إياض وعبدالله بن يحيى طالب الحق في نشاط واحد في زمن واحد⁽⁵⁾، أضف إلى ذلك فإن أيّاً من المصادر الإباضية لا يذكر إطلاقاً إي

(1) محمد بن يوسف أطفيش، رسالة شفاهية، ص51.

(2) البغدادي، الفرق، بيروت، 1973م، ص84، يذكر البغدادي بهذه المناسبة أن الفرقة الحارثية قد وافقت المعتزلة في القدر وقد تبرأ منهم سائر الإباضية.

(3) الشهرستاني، ملل، ج1، ص212-213، قزويني، آثار البلاد، ج1، ص37.

(4) أنظر فوق، ص76.

(5) أطفيش، ورقة 178، الأزكوي، ورقة 244.

نشاط أو حتى إشارة عابرة لابن إياض إبان زعامة أبي عبيدة الذي خلف جابر بن زيد في إمامة الإباضية في البصرة نحو عام 95هـ، كما سنرى، وفي عهده جرت ثورة طالب الحق في حضرموت واليمن، ولعل السبب في إشارة الشهرستاني والقزويني إلى اشتراك عبدالله بن إياض في ثورة طالب الحق هو تشابه الاسمين الأولين لكلا الرجلين، فحدث الالتباس تبعاً لذلك.

أما الرواية التي يوردها ابن حوقل والتي تشير إلى أن ابن إياض وعبدالله بن وهب الراسبي قد ارتحلا إلى جبل نفوسة وماتا هناك، فواضح عدم صحتها⁽¹⁾، إذ أن من المؤكد والمعروف أن عبدالله بن وهب الراسبي قد لاقى حتفه في معركة النهروان عام 37هـ.

مما مر يتبين لنا ندرة المعلومات واضطرابها حول هذه الشخصية التي نسبت إليها الفرقة الإباضية التي أسست دولا كان لها دور هام ومجيد في التاريخ الإسلامي، والتي لا يزال أتباعها موجودين إلى وقتنا الحاضر في سلطنة عُمان وبعض أنحاء البلاد المغرب العربي.

على الرغم من ذلك فإن الباحث يستطيع بعد استقصاء المصادر الإباضية وغيرها، أن يلخص المعلومات الموثوقة حول هذه الشخصية بالنقاط التالية:

- 1- أن عبدالله بن إياض ينتمي إلى قبيلة تميم التي كانت في صدر الإسلام من أهم قبائل البصرة وأكثرها عدداً.
- 2- أن ابن إياض قد تتلمذ على بعض زعماء المحكمة مثل عبدالله بن وهب الراسبي أول إمام للمحكمة وقائدهم في النهروان.
- 3- أن المصادر لا تشير على الإطلاق إلى أنه اشترك في حروب المحكمة ضد علي بن أبي طالب.
- 4- إن أول مشاركة صريحة واضحة حول ظهور ابن إياض على المسرح السياسي كان اشتراكه مع بعض المحكمة في الدفاع عن الكعبة مع ابن الزبير ضد الجيش الشامي زمن يزيد بن معاوية.
- 5- أن القعدة من الخوارج بعد رجوعهم إلى البصرة من الحجاز قد اختاروا ابن إياض ليكون المتكلم باسمهم والمجادل علناً ضد مناوئهم وبخاصة ضد متطرفي الخوارج، وعلى رأسهم نافع بن الأزرق وأتباعه.
- 6- ظهر ابن إياض على المسرح السياسي مرة أخرى بعد انقسام القعدة إلى ما سمي بالصفورية والإباضية في أوائل الربع الأخير من القرن الأول الهجري واختارته الفرقة الثانية التي كان أتباعها يسمون أنفسهم آنذاك أهل الدعوة أو جماعة المسلمين، ليكون المناظر باسمهم ضد مناوئهم من الخوارج وغيرهم من الفرق، كما فعل مثل ذلك مع السلطة الأموية الحاكمة ممثلة بالخليفة عبدالملك بن مروان حيث احتفظت لنا المصادر برسائله، أو ما تسميه المصادر الإباضية نصائحه إلى عبدالملك بن مروان.
- 7- بعد ذلك اختفى ابن إياض فجأة ولا تذكر المصادر المتوافرة معلومات موثوقة عن مكان وفاته.

(1) ابن حوقل، ص43، لقد أخطأ المستشرق البولندي ليفتسكي في فهم النص الذي أورده ابن حوقل خلال الحديث عن جبل المذيخرة في اليمن تبعاً لذلك فقد زعم أن عبدالله بن إياض قد توفي هناك، أنظر: (2) T. Lewicki, "Ibadiyya", E.I.

8- إن المصادر الإباضية تجمع على أن ابن إياض لم يكن إمامهم الحقيقي ومؤسس دعوتهم وإن كان من علمائهم ورجالهم البارزين في التقوى والصلاح.

ولهذا السبب فإنها أغفلت الحديث عن كثير من جوانب حياة ابن إياض ونشاطه، ويعتبر الإباضية القدامى منهم والمحدثون جابر بن زيد إمامهم الأكبر ومؤسس دعوتهم، ولم يكن ابن إياض إلا واحداً من أتباع فرقته ولم يصدر في شيء من أفعاله وأقواله إلا بأمر ذلك الإمام وإرشاده، ومن هنا فإن الإباضية لم يسموا أنفسهم بهذا الاسم ولم يرد في مصادرهم إلا في وقت متأخر كما أسلفنا القول في الصفحات السابقة.

بعد اختفاء ابن إياض أفلح الإباضية عن المناقشة العلنية والجدل الكلامي مع مناوئهم ومخالفهم، ولجأوا إلى السرية المطلقة في تنظيم دعوتهم، وكان لجابر دور تنظيمي كبير في هذه المرحلة التي تعرف في التاريخ الإباضي بطور الكتمان.

الباب الخامس

جابر بن زيد الأزدي

مر معنا أن المؤرخين الإباضيين القدامى منهم والمحدثين يؤكدون على أن جابر بن زيد هو المؤسس الحقيقي لدعوتهم والمنظم الأول لحركتهم، وسوف نحاول في هذا الفصل التعرف على هذه الشخصية، ودورها في بلورة الفكر الإباضي وفي تنظيم الدعوة في مرحلة الكتمان.

هو أبو الشعثاء⁽¹⁾ جابر بن زيد الأزدي الجوفي البصري من قبيلة اليعمد الأزدية في عمان، وقد عرف بالجوفي نسبة إلى درب الجوف في البصرة، حيث استقر مع أسرته فيما بعد⁽²⁾.

ولد جابر في مدينة الفرق بالقرب من مدينة نزوى في عمان⁽³⁾، وتسمى المنطقة التي تقع فيها الفرق باسم جوف الحميلة⁽⁴⁾، ولعل هذا الاسم هو الذي اشتق منه اسم درب الجوف في البصرة، حيث استقر الأزدي بعد نزوحهم إلى المدينة فسموا المكان باسم المنطقة التي جاءوا منها.

أما السنة التي ولد فيها جابر فلا تعرف على وجه التحديد، وتعطي المصادر تواريخ مختلفة إلا أنها كلها محصورة بين عامي 18 و22 هـ⁽⁵⁾، ولا تذكر المصادر المتوفرة أيضاً تاريخاً لقدمه إلى البصرة، ويبدو أنه جاء في وقت مبكر من حياته طلباً للعلم حيث كانت البصرة آنذاك أهم مركز فكري في العالم الإسلامي، واستقر بين أقاربه من الأزدي الذي سكنوا أحد أحياء البصرة⁽⁶⁾.

وفي البصرة أخذ جابر يتزود بالعلم والمعرفة، وخاصة ما يتعلق منها بعلوم القرآن والحديث، وما يتصل بهما، وقد تتلمذ جابر على أيدي كثير من الصحابة والتابعين، وأخذ عنهم الحديث والتفسير وعلوم اللغة والأدب، ويروى عن جابر أنه كان يقول: «أدركت سبعين بدرياً فحويت ما عندهم إلا البحر»⁽⁷⁾، أي عبدالله بن عباس على أن الأخير لم يكن من أهل بدر، وفي القول دلالة على أن جابراً قد أخذ عن مجموعة من الصحابة الذين رافقوا رسول الله ﷺ ونقلوا عنه علمه وسنته الشريفة، ومن أهم العلماء الذين أخذ عنهم جابر: عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر وعبدالله بن مسعود وأنس بن مالك وغيرهم، إلا أنه كان أكثر ملازمة لعبدالله بن عباس من غيره، وكان من أنجب تلاميذه، وكان عبدالله بن عباس يقول عنه: «لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً عما في كتاب الله»⁽⁸⁾، وفي رواية أخرى أنه كان يحيل رسائله إلى تلميذه جابر ويقول: «اسألوا جابر بن زيد، فلو سأله أهل المشرق والمغرب لوسعهم علمه»⁽⁹⁾، وعندما كان يسأله أناس من أهل البصرة كان يبادره بقوله: «كيف تسألوني وفيكم جابر بن زيد (أو

(1) الشعثاء ابنته، وقبرها موجود ومعروف إلى الآن ببلدة الفرق من أعمال نزوى من عمان، أنظر: الحارثي، العقود الفضية، ص94.

(2) البخاري، التاريخ الكبير، ج1، ق2، ص204، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج2، ص38، ياقوت، بلدان، ج2، ص244.

(3) الحارثي، العقود الفضية، ص94، تذكر بعض المصادر أنه ولد في مكان يدعى الحرثة، ولعل ذلك تحريفاً لكلمة الفرق، أنظر ابن حبان، مشاهير علماء الأمصار، القاهرة، 1959م، ص89.

(4) ياقوت، بلدان، ج2، ص158.

(5) البرادي، الجواهر، ص155، الحارثي، العقود الفضية، ص93، محمد بن يوسف أطفيش، شرح القصيدة، ص132.

(6) يذكر نور الدين السالمي أن جماعة كبيرة من الأزديين قد اشتركت في فتح فارس مع جيش عثمان بن أبي العاصي، ويقال أن شخصاً يدعى جابر بن حديد اليمامي، من أسرة جابر بن زيد، هو الذي قتل قائد الجيش الفارسي شاهراك، وبعد ذلك استقر الجيش في توج ثم ارتحل إلى البصرة، إبان ولاية عبدالله بن عامر في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان، أنظر السالمي، تحفة، ج1، ص68-69.

(7) الدرجيني، ورقة 88، الحارثي، العقود الفضية، ص94، علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، ج1، ص144، محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص140.

(8) البخاري، التاريخ الكبير، ج1، ق2، ص204، أبو نعيم، حلية الأولياء، ج3، ص85، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج2، ص38، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص68، الدرجيني، ورقة 88، شماخي، سير، ص70، أنظر أيضاً ابن سعد، ج7، ق1، ص130-131.

(9) الدرجيني، ورقة 87-99، شماخي، سير، ص73.

أبو الشعثاء»⁽¹⁾ وقد وصفه عبدالله بن عمر بن الخطاب بأنه من فقهاء أهل البصرة البارزين⁽²⁾، بينما قال عنه قتادة بن دعامة السدوسي أنه «عالم العرب وأعلم أهل الأرض»⁽³⁾.

ولم يكتف جابر بن زيد بعلم من التقى بهم في البصرة بل كان يرتحل إلى أماكن أخرى طلباً لمزيد من العلم، ولا يترك فرصة يتزود فيها بالعلم إلا واغتنمها، وكان يتردد على الحجاز ويلتقي بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، ويأخذ عنها العلم، ويسألها عن سنة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ويناقشها في كثر من المسائل ومما يتعلق بحياة الرسول الخاصة أملاً منه في أن يجعل من تلك السيرة قدوة لأصحابه ولمن طلب فتواه مدلاً على رأيه بأمثلة من سيرة النبي العظيم محمد⁽⁴⁾.

مما مر يتبين لنا بوضوح أن جابر بن زيد قد اكتسب علماً واسعاً بعد إقامته في البصرة، وأنه أصبح من أبرز التابعين الأوائل في علم الحديث والتفسير والعلوم الدينية بشكل عام، وقد أهلت معرفته العميقة لأن يصبح أبرز مفت في البصرة بعد الحسن البصري، وعندما كان الأخير يخرج للجهاد في الثغور أو يغيب عن البصرة كان يكل مهمة الفتوى إلى جابر بن زيد، الذي كان صديقاً له، ومما يدل على طول باعه في ميدان الفتوى والاجتهاد أن عمرو بن دينار، وهو أحد العلماء اللامعين في البصرة آنذاك وأحد التابعين من رواة الحديث كان يذكر جابر بن زيد ويقول: «ما رأيت أحد أعلم بالفتيا من جابر بن زيد»⁽⁵⁾، أما إياس بن معاوية قاضي البصرة في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز فكان يقول: «أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد من أهل عمان»⁽⁶⁾، أما الحسن البصري فيثني على جابر وعلمه الغزير ويصفه «بالفقيه العالم»⁽⁷⁾.

ولم يكتف جابر بالرواية الشفوية عن أساتذته ومعاصريه، بل كان يسجل الأحاديث التي سمعها من شيوخه، كما سمح لتلاميذه بتدوين الأحاديث التي رووها عنه⁽⁸⁾، وقد ألف كتاباً أسماه الديوان ضمنه الأحاديث التي رواها وأودع في صفحاته آراء وفتاويه في كثير من أمور العقيدة، ويقال أن ديوانه كان من الضخامة بحيث يعجز عن حمله البعير، ويقع في عشرة أجزاء كبيرة، وكانت نسخة منه موجودة في إحدى مكتبات بغداد الكبرى في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد⁽⁹⁾، ويذكر المؤلف الإباضي الوسياني أن نسخة من الديوان قد بقيت بعد موت جابر في حوزة خليفته أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، ثم توارثها أئمة الإباضية في البصرة، وفي عهده استنسخت المخطوطة في مكة⁽¹⁰⁾، ولكن المؤلف لم يذكر اسم الناسخ ولا الهدف من نسخها، وربما قام بهذا العمل جماعة من إباضية شمال أفريقية في وقت مبكر، ويروى أن أحد علماء الإباضية من جبل نفوسة في ليبيا ويدعى النفات فرج بن نصر — وهو مؤسس الفرقة النفاثية

(1) أبو نعيم، ج3، ص86، ابن حجر، تهذيب، ج2، ص38، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص72.

(2) البخاري، التاريخ الكبير، ج1، ق2- ص204، أبو نعيم، ج3، ص85، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص68.

(3) الدرجيني، ورقة 87، أبو نعيم، ج3، ص86، ابن حجر، تهذيب، ج2، ص38، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص68، ابن كثير، بداية، ج9، ص94.

(4) الدرجيني، ورقة 88، شماخي، سير، ص73، يقول المؤرخ الإباضي أبو سفيان محبوب بن الرحيل: دخل جابر بن زيد على عائشة رضي الله عنها فأقبل يسألها عن مسائل لم يسألها أحد عنها حتى سألتها عن جماع النبي ع كيف كان يفعل، وأن جبينه ليتصب عرقاً وهي تقول: «سل يا بني..» ليس لدينا ما يثبت صحة هذه الرواية ولكن فيها دلالة واضحة على أن جابراً قد أخذ بعض علمه من أم المؤمنين وعن أنه كان يحاول دوماً أن يعرف دقائق الأمور عن حياة الرسول الخاصة جاعلاً منها قدوة ومثلاً للمسلمين في العصور اللاحقة.

(5) البخاري، التاريخ الكبير، ج1، ق2، ص204، أبو نعيم، ج3، ص86، ابن كثير، بداية، ج9، ص94.

(6) أبو نعيم، ج3، ص86، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص68، ص72.

(7) الدرجيني، ورقة 88، شماخي، سير، ص73.

(8) ابن سعد، ج7، ق1، ص31، الذهبي، ميزان الاعتدال، ج3، ص93، الخطيب البغدادي، تقييد العلم، دمشق، 1949م، ص109.

(9) أبو زكريا، سير، مخطوطة دار الكتب، ص30، السالمي، اللعة المرضية، 1326هـ، ص184.

(10) الوسياني، سير، ورقة 16.

الإباضية- استطاع أن يحصل على نسخة كاملة من ديوان جابر بن زيد، وأتى بها إلى جبل نفوسة، ولما كان فناناً عدواً للإمام الرستمي في تاهرت ولعامله في جبل نفوسة فقد دمر المخطوطة حتى لا يستطيع مناوئوه الحصول عليها، أو حتى استنساخها⁽¹⁾، وجدير بالذكر أن حاجي خليفة قد أشار في كتابه كشف الظنون إلى ديوان جابر بن زيد، ولكنه لم يعط أية تفاصيل عنه، ولم يشر إلى المصدر الذي استقى منه معلوماته حول هذا السفر الضخم⁽²⁾، وإذا صحت هذه المعلومات حول ديوان جابر فإن الباحث يستطيع أن يقرر بأن الإباضية كانت أول المدارس الإسلامية التي عيّنت بتدوين الحديث، ولعل بعض المؤلفات -والتي لا تزال مخطوطة- المروية عن جابر بن زيد أو المنسوبة عليه إنما هي قطع من هذا الكتاب الكبير⁽³⁾.

ويبدو أن جابر بن زيد قد اتبع أسلوباً خاصاً في حياته بعد قدومه إلى البصرة، مما ساعده على اكتساب المعارف، والإحاطة بالعلوم السائدة في عصره وخاصة العلوم الدينية، فقد عاش حياة زهد وتقشف وانصرف عن لهو الدنيا وترفها، وكان يقول: «سألت ربي عن ثلاث فأعطانيهن، سألت عن زوجة مؤمنة، وراحلة صالحة ورزقاً كفافاً يوماً بيوم»⁽⁴⁾، وكان يخاطب أصحابه ويقول: «ليس منكم رجل أغنى مني، ليس عندي درهم وليس علي دين»⁽⁵⁾، ويذكر ابن سيرين أن أبا الشعثاء جابر كان مسلماً عند الدينار والدرهم، أي أنه كان ورعاً تقياً لا يهتم بجمع المادة واكتنازها⁽⁶⁾، والواقع أن المصادر السنية والإباضية تسهب في الحديث عن زهد جابر وانصرافه إلى الدرس والتحصيل حتى أصبح بعلمه مرجعاً لكل سائر في أمور الفتيا والفقه الإسلامي، وكان بعض الناس ممن يسكنون خارج البصرة يكتبون إليه مستفسرين عن مسائل ومشاكل فقهية فيجيبهم عليها⁽⁷⁾، وتبعاً لذلك فقد وصفه أتباعه بأنه «بحر العلم وسراج الدين»⁽⁸⁾.

مما تقدم يظهر لنا بوضوح أن جابراً قد اكتسب علماً غزيراً بعد هجرته إلى البصرة، وأصبح من الفقهاء البارزين الذين أسدوا خدمات جليلة للعقيدة والفكر الإسلاميين، ولا شك أنه وظف علمه ومواهبه في خدمة مبادئه التي آمن به واقتنع بصحتها، ولكي نفهم دوره في نشأة الفرقة الإباضية وتطورها لابد لنا من التعرف على بدء علاقته بحركة الخوارج القعدة ثم جهوده المتواصلة في سبيل إنجاح الدعوة الإباضية بعد أن أصبح رئيسها وزعيمها.

لسنا نعرف على وجه التحديد متى بدأت علاقة جابر بن زيد بالخوارج القعدة، على الرغم من أن المعلومات التي توردها المصادر الإباضية تشير إلى قدم هذه العلاقة، وإلى أن جابراً قد انضم إلى الحركة في وقت مبكر.

أما ما يورده بعض مؤرخي الإباضية المحدثين⁽⁹⁾، من أن جابر بن زيد كان زعيم الحركة بعد وفاة عبدالله بن وهب الراسي مباشرة، فيصعب تصديقه، لأن جابراً آنذاك كان لا يزال شاباً صغيراً يتراوح عمره بين السادسة عشرة والعشرين سنة فقط، ومن غير المحتمل أن يكون في هذا السن قد اكتسب العلم اللازم والخبرة الضرورية ليقدمه أصحابه زعيماً ومرشداً لهم، أضف إلى ذلك

(1) أبو زكريا، سير، ورقة 16، علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، ج1، ص149.

(2) حاجي خليفة، كشف الظنون، ج1، ص781.

(3) أنظر: A. Ennami, art.cit, pp. 67ff.

(4) شماخي، سير، ص77.

(5) الدرجيني، ورقة 90.

(6) ابن سعد، ج7، ص131، أبو نعيم، ج3، ص88.

(7) أبو نعيم، ج3، ص86، ذهبي، تذكرة الحفاظ، ج1، ص62، الحارثي، العقود الفضية، ص97.

(8) شماخي، سير، ص70.

(9) الباروني، ص28، محمد علي دبور، ج2، ص392.

أننا لا نملك أي دليل على أن جابر بن زيد كان ذا علاقة مباشرة مع عبدالله بن وهب الراسب أو أنه اشترك في معركة النهروان التي قتل فيها الراسبي، ولا تشير المصادر إلى أن نشاط لجابر بن زيد في تلك المرحلة من عمر الحركة الخارجية، ومن المحتمل أن يكون اتصال جابر بن زيد بالخوارج قد بدأ بعد النهروان وبعد لجوء مرداس بن أدية التميمي وأصحابه للبصرة في أواخر العقد الرابع من القرن الأول الهجري، ويستنتج من المعلومات الواردة في المصادر الإباضية المتوافرة أن جابر بن زيد قد انضم إلى القعدة إبان ولاية عبيدالله بن زياد للعراق (56/57هـ-64هـ) وكان جابر يصلي الجمعة في المسجد الجامع في البصرة خلف ابن زياد، ربما إمعاناً منه في الحفاظ على سرية معتقده، وإبعاداً للتهمة عنه، وعندما كان أصحابه من القعدة يعاتبونه على ذلك كان يجيبهم بقوله: «إنها صلاة جامعة وسنة متبعة»⁽¹⁾، وتشير المصادر الإباضية إلى أن جابر بن زيد كان يتردد على مكة ويلتقي فيها بعبدالله بن عباس ليأخذ عنه العلم والحديث، وكان يصحبه صديق له حميم يدعى أبو فقاس الأسود بن قيس، وكان يرى رأي الإباضية، ويبدو أن الرجلين كانا يرتحلان سنوياً إلى مكة، ربما في موسم الحج، وكانا يلتقيان بابن عباس، وفي إحدى السنين قدم جابر منفرداً إلى مكة فلقى ابن عباس الذي استغرب غياب ابن فقاس، صاحب جابر، وسأل جابراً عنه فأخبره بأنه في سجن ابن زياد، فقال ابن عباس: وإنه لمتهم؟ قال جابر: نعم، فأضاف ابن عباس: اللهم بلى!، وخاطب جابراً وقال: أو ما أنت متهم؟ قال جابر: اللهم بلى!⁽²⁾.

وفي رواية أخرى يقول أبو سفيان محبوب بن الرحيل، المؤرخ والإمام الإباضي المعروف، أن شيخاً من الإباضية يدعى أبو سفيان قنبر قد أخذه عبدالله بن زياد وجلده ليدل على أحد من المسلمين (الإباضية) فلم يفعل، قال جابر بن زيد، وكنت قريباً منه، وما كنت أنتظر إلا أن يقول هذا هو فعصمه الله⁽³⁾، بالإضافة إلى ما سبق فإن الروايات الإباضية تشير إلى علاقات متينة وودية بين جابر بن زيد وأبي بلال مرداس بن أدية التميمي، شيخ القعدة في البصرة بعد معركة النهروان، وكان الرجلان يخرجان إلى مكة سنوياً ويلتقيان بابن عباس وعائشة أم المؤمنين، ويذكر أبو سفيان محبوب بن الرحيل أن جابر بن زيد وأبا بلال مرداس دخلا مرة على عائشة رضي الله عنها فعاتبها على ما كان منها يوم الجمل، قال: فاستغفرت الله تعالى وتابت مما كانت قد دخلت فيه⁽⁴⁾، ومهما كانت صحة هذه الرواية فإنها، بدون شك تدل بوضوح على أن العلاقة بين جابر ومرداس بن أدية كانت وثيقة، ويبدو أن العلاقات بين الرجلين كانت تزداد وتتوثق بسرعة، وأخذ مرداس يدرك مدى علم جابر وذكائه فكان يتردد عليه آناء الليل وأطراف النهار ليغرف من معرفته الواسعة وعلمه الغزير، وذكر مؤلف كتاب بيان الشرع عن أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي أنه قال: «لقد كان أبو بلال رحمه الله يبكي في جوب الليل حتى ما يطيق أن يقوم، ولقد كان من تشوقه إلى إخوانه أنه يخرج من عند أبي الشعثاء جابر بن زيد بعد العتمة، ثم يأتيه قبل الصبح فيصلي معه فيقول له جابر: يا أخي أشققت على نفسك، فيقول: «والله لقد طال ما هبت نفسي بلقائك شوقاً إليك حتى أتيتك»⁽⁵⁾.

مما مر يتبين لنا أن جابر بن زيد كان قد انضم إلى حركة الخوارج القعدة منذ أيام عبيدالله بن زياد، ولكن الباحث لا يستطيع أن يقرر سنة بعينها لتاريخ الانضمام، ويبدو من الروايات أن نجم جابر أخذ يتألق في سماء تلك الحركة قبل عام 61هـ وهو العام الذي قتل فيه أبو بلال مرداس بن أدية

(1) الحارثي، العقود الفضية، ص97.

(2) شماخي، سير، ص96، (عن أبي سفيان محبوب بن الرحيل).

(3) المصدر نفسه، ص93.

(4) الدرجيني، ورقة 88.

(5) الحارثي، العقود الفضية، ص107، (عن كتاب بيان الشرع عن أبي عبيدة المتوفى في القرن الثاني الهجري).

التيمي، حتى أن بعض الروايات تجزم على أن أبا بلال لم يقيم بعمله إلا بعد مشورة من جابر بن زيد، وقبوله منه⁽¹⁾، وإذا صحت هذه الروايات فإن القعدة قد اتفقوا على أن يتولى جابر بن زيد أمرهم وتنظيم دعوتهم منذ المراحل الأولى لتطور الدعوة في البصرة إيماناً منهم بذكائه واعتماداً منهم على اطلاعه الواسع وتحصيله العميق في العلوم الدينية وخاصة ما يتعلق بالتفسير وعلم الحديث، ولعل ذلك كان السبب في اعتراف أبي بلال له بالزعامة قبل وفاته، حتى أنه لم يصدر في عمله إلا بأمر جابر ومشورته.

وعلى الرغم من تبوء جابر بن زيد لزعامة القعدة منذ ذلك الوقت المبكر فإنه لم يشترك في الأحداث السياسية التي جرت في تلك الفترة من التاريخ الإسلامي، ولم يبد لزعامة سكان البصرة أن جابراً كان إماماً وزعيماً للقعدة، أو حتى أنه كان على علاقة معهم، وذلك لأنه أخفى معتقده وساعده أصحابه على ذلك، لأنهم كانوا يحبون ستره من الحرب والهلاك، حتى لا تموت دعوتهم في مهدها⁽²⁾، وبناء على ذلك فقد كان القعدة ثم الإباضية يقدمون أحد أعلامهم لينطق باسمهم ويناطر أعداءهم، وكان يختار عادة من ذوي العلم والمنطق والحجة، وممن لهم عصبية حتى لا يبطش به الولاة، وكان ابن إباض أحد هؤلاء المقدمين ولذلك ظن معاصروه أنه زعيم الإباضية وإمامها.

وعلى أية حال فإن ابن إباض يعد آخر الأشخاص الذين قدمهم الإباضية ليناطر باسمهم، وبعد اختفائه من البصرة أثر الإباضية الخلود إلى الهدوء كلياً وانصرفوا إلى التنظيم السري الدقيق بزعامة جابر بن زيد وأقلعوا عن المناظرات العلنية مع مخالفيهم، حتى لا ينكشف أمرهم، وتتم تصفيتهم قبل بلوغ أهدافهم التي ترمي إلى تأسيس إمامة الظهور وتعيين خليفة المسلمين من بين أتباعهم، وسنفضل الحديث عن نشاط الإباضية في المرحلة السرية في الصفحات القادمة، ولكن قبل الكلام عن هذا الموضوع لا بد من مناقشة الروايات التي توردها المصادر السنية والتي تنفي علاقة جابر بن زيد بأهل الدعوة (الإباضية) معتمدة على أقوال منسوبة إليه وإلى بعض أصحابه.

إن الروايات التي وصلتنا في المصادر السنية التي تتكرر علاقة جابر بن زيد بالإباضية تعود في إسنادها إلى روايتين هما عزرة وثابت البناني⁽³⁾، وكانا معاصرين لجابر بن زيد، وعاشا في النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وتتلخص رواية عزرة في أن الأخير قد زار جابر بن زيد وقال: «.. إن الإباضية يزعمون أنك منهم، قال: أبرأ إلى الله منهم»⁽⁴⁾، أما رواية ثابت البناني فتتكلم عن نقاش دار بين جابر، وهو على فراش الموت، وبين الحسن البصري، يقول ثابت: «دخلت على جابر بن زيد، وقد ثقل، قال: فقلت له: ما تشتهي؟ قال: نظرة من الحسن، قال: فأنتيت الحسن وهو في منزل أبي خليفة، فذكرت ذلك له، فقال: أخرج بنا إليه، قال: قلت إنني أخاف عليك، قال: إن الله سيصرف عني أبصارهم، قال: فانطلقنا حتى دخلنا عليه، قال: فقال له الحسن: يا أبا الشعثاء! قل لا إله إلا الله، قال: فقال يوم يأتي بعض آيات ربك، قال: فتلا هذه الآية⁽⁵⁾، قال: فقال له الحسن: إن الإباضية تتولأك، قال: فقال: أبرأ إلى الله منهم، قال: ثم خرجنا من عنده»⁽⁶⁾، بالإضافة إلى ذلك فإن أبا نعيم يرود رواية لهند بنت المهلب تذكر فيها أن جابراً قد دعاها إلى الإباضية وتقول: «كان جابر بن زيد أشد الناس انقطاعاً إلي وإلى أمي، فما أعلم شيئاً كان يقربني إلى الله إلا أمرني به، ولا شيئاً يباعدني عن الله Y إلا ونهاني عنه، وما دعاني إلى الإباضية قط، ولا أمرني

(1) الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 19، محمد بن يوسف أطفيش، رسالة شافية، ص34.

(2) الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 20.

(3) ابن سعد، ج7، ص131-132، أبو نعيم، ج3، ص89، ابن حجر، تهذيب، ج2، ص38.

(4) ابن سعد، ج7، ق1، ص132، أنظر أيضاً ابن حجر، تهذيب، ج2، ص38.

(5) نص الآية: [يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا] سورة 6 آية 158.

(6) ابن سعد، ج7، ق1، ص132.

بها، وإن كان ليأمرني أن أضع الخمار، ووضعت يدها على الجبهة»⁽¹⁾، ويمكن عدم الاطمئنان إلى هذه المعلومات للأسباب التالية:

1- أن الحسن البصري الذي كان صديقاً لجابر بن زيد لابد وأنه كان يعرف آراء جابر ومعتقداته قبل زيارته له وهو على فراش الموت، وليس ذلك الوقت المناسب لأن يطرح البصري على جابر مثل هذه التساؤلات.

2- أن ثابت البناني، صاحب الرواية، يورد أيضاً روايتين إضافيتين عن قصة زيارة الحسن البصري لجابر وهو مريض ولا يذكر في تلك الروايتين أي شيء عن الإباضية ولم يشر إطلاقاً إلى أن الحسن البصري قد سأل جابراً عن علاقته بالإباضية وأهل النهروان⁽²⁾.

3- أن المصادر الإباضية تورد أيضاً روايات ثابت البناني والتي تشبه في محتواها ما ورد في المصادر السنية مع اختلاف طفيف، ولكنها لا تشير إلى سؤال الحسن البصري لجابر، ومن المفيد أن نورد الرواية كما وصلت في المصادر الإباضية حتى تتضح الصورة للقارئ، قال أبو سفيان: «لما حضرت جابر بن زيد وفاته، أتاه ثابت البناني فقال: يا أبا الشعثاء هل تشتهي شيئاً؟ قال: إني لأشتهي أن ألقى الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد، قال: فخرج ثابت البناني، فدخل على الحسن فأعلمه بقول جابر بن زيد، قال: وكان الحسن إذ ذاك مستخفياً (من الحجاج) قال: فقال كيف لي بذلك؟ قال: أركب بغلي على السرج وأنا أرتد خلفك وأعطيك طيلساناً، وأرجو ألا يعرض لنا، قال: ففعل ودخل على أبي الشعثاء وهو مضطجع، فانكب عليه الحسن وهو يقول: يا أبا الشعثاء قل لا إله إلا الله، فرفع جابر عينيه فيقول: أعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار، قال فيقول له الحسن: يا أبا الشعثاء قل لا إله إلا الله، قال: فيقول أعوذ بالله من غدو أو رواح إلى النار، ثم قال له: يا أبا سعيد (يعني الحسن) يوم يأتي بعض آيات ربك، الآية، قال فقال له الحسن: هذا والله الفقيه العالم⁽³⁾.

4- بالإضافة إلى ذلك فإن المصادر الإباضية تجمع على أن جابر بن زيد هو مؤسس المذهب الإباضي وإمام الإباضية بدون منازع⁽⁴⁾، وقد سجنه الحجاج بن يوسف الثقفي ثم نفاه إلى عمان لعلاقته بالإباضية⁽⁵⁾.

5- يذكر كل من الأشعري وابن أبي الحديد أن الإباضية يعتبرون جابر بن زيد أحد أسلافهم ولم يحاول أي منهما دحض هذا القول⁽⁶⁾، وهذا دليل من هذين المؤلفين، غير الإباضيين، على أن جابراً كان ذا علاقة بالإباضية ولو ملكاً الدليل والبرهان على خطأ هذا الرأي لقاما بتفنيده.

6- حتى لو صحت الرواية الواردة في بعض المصادر السنية وأن جابراً أنكر علاقته بالدعوة الإباضية، فيجب أن لا يؤخذ ذلك على علته، فربما فعل جابر ذلك على سبيل التقية الدينية

(1) أبو نعيم، ج2، ص89.

(2) ابن سعد، ج7، ق1، ص132-133.

(3) درجيني، ورقة 88-89، شماخي، سير، ص72-73، الحارثي، العقود الفضية، ص99-100.

(4) إن المعلومات حول هذا الموضوع متوافرة في جميع المصادر والمراجع الإباضية سواء كانت كتب تاريخ وسير وطبقات، أو كتب فقه وعقائد، ولا مجال لحصرها هنا، ويمكن للقارئ على سبيل المثال أن ينظر: الدرجيني، ورقة 88، شماخي، سير، ص70، الحارثي، العقود الفضية، ص94، على يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الأولى، ص143، محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير، ج3، ص138 وما بعدها.

(5) الدرجيني، ورقة 89، شماخي، سير، ص77، الحارثي، العقود الفضية، ص99.

(6) الأشعري، ص151، ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، ج5، ص76.

التي استعملها جابر في مناسبات عديدة كما استعملها غيره من أئمة الإباضية، وتعتبر مشروعة في المذهب الإباضي في طور الكتمان.

7- أما الرواية التي تذكر بأن هند بنت المهلب، المعروفة بولائها المذهب الإباضي، قد أكدت بأن جابر لم يدعها لاعتناق المذهب الإباضي فلا تعتبر دليلاً على عدم وجود علاقة بين جابر والإباضية، لن أتباع الفرقة آنذاك لا يسمون أنفسهم بهذا الاسم، كما وضحنا ذلك في صفحات سابقة، بل يسمون أنفسهم جماعة المسلمين أو أهل الدعوة، ولهذا فإن هند بنت المهلب كانت صادقة في قولها بأن جابر أكان يعلمها مبادئ الإسلام وشرائعه، أي اعتقادات المسلمين، ولم يدعها للإباضية، أضف إلى ذلك فإن هند بنت المهلب كانت معاصرة لجابر بن زيد ولخلفه أبي عبيدة أي أنها كانت تعيش والحركة الإباضية لا تزال في طور السرية والكتمان، ومن غير المعقول أن تقوم بفضح أسرار الدعوة وكشف أسماء أصحابها عندما تسأل عن ذلك، ومن الطبيعي أن ننكر علاقتها وعلاقة أستاذها جابر مع الإباضية إذا استجوبت من قبل مخالفيها حول هذا الموضوع، وجدير بالذكر أن أهل الدعوة كانوا قد أوجبوا اغتيال كل من يقوم بكشف أسرار دعوتهم أو الإساءة إليهم، فهل يمكن إذن لامرأة مخلصنة ومتقانية في سبيل الدعوة أن تقوم بمهمة الإساءة لأصحابها؟ وهل يعتبر بالتالي إنكارها لعدم دعوة جابر إليها للانضمام للحركة أساساً يمكن الاعتماد عليه للتدليل على براءة جابر من الإباضية ومن أهل النهروان كما ورد في رواية البناني السالفة الذكر؟.

8- بعد هذا العرض والتحليل يبدو أن قضية إنكار جابر لعلاقته بالإباضية كما توردها بعض الروايات في المصادر السنية إنما اخترعت من قبل بعض رواة السنة، الذين كانوا يرون في جابر شيخاً جليلاً ومحدثاً ثقة، وبالتالي فيجب عدم إلصاق «تهمة» الإباضية به حتى لا يعتبر مجروحاً، وخاصة أن نقده الحديث قد رفضوا روايات «أصحاب البدع» واعتبروها أتباع الخوارج والشيعة من هؤلاء، ومن المحتمل أيضاً أن نقده الحديث من السنة لم يعرفوا معتقد جابر الحقيقي لاستعماله التقية الدينية ولذلك شكوا في نسبته إلى الإباضية.

يتضح مما سبق أن جابر أكان وثيق الصلة بالحركة منذ وقت مبكر وأصبح زعيمها وإمامها، وكان له دور كبير في تنظيم الحركة وتطورها وقد ارتكزت سياسته إبان زعامته للفرقة الإباضية على قواعد أساسية يمكن إجمالها بعد تحليل الروايات بما يلي:

1- أن جابر ألم يشأ الانسحاب من المجتمع الإسلامي الذي يعيش فيه مع بقية أتباع حركته، ولذا فإنهم لم يعزلوا أنفسهم عن الناس ولم يدعو للخروج والهجرة كما فعل الأزارقة وغيرهم من متطرفي الخوارج، وكان جابر ينشر آراءه ويبث أفكاره بين الناس من خلال أحاديثه الدينية وفتاويه وأجوبته على المستفسرين عن بعض الأمور الدينية من داخل البصرة وخارجها، وكان يتقحص تلاميذه فمن وجد في فيه استعداداً قوياً لآرائه وحامساً لمبادئه دعاه إلى مذهبه، ولكن ذلك كان يحدث بسرية تامة مستعملاً في سبيل الوصول إلى هدفه التقية الدينية، وإمعاناً في كتمان أمر دعوته، فقد كان يأمر أتباعه بقتل كل من يكشف أسرار الجماعة أو يبوح بأسمائهم، فإن حدث أن ترك أحد أتباع الفرقة مذهبهم وتحلى عن مبادئه دون أن يطعن في أصحابه القدامى أو يفشي أسرارهم كان الإباضية يتبرأون منه، ولكن دون أن يتعرضوا له بأذى، معتبرينه واحداً من المخالفين الموحدين، الذين لا تحل دماؤهم إلا إذا بدأهم بالعدوان، ولكن إذا خرج من مذهب المسلمين (الإباضية) أحد وعاب عليهم وطعن في معتقداتهم وأفشى أسرارهم فقد وجب قتله وأحل دمه، وقصة خردلة التي ترويها المصادر الإباضية من أوضح الأمثلة على ذلك، فقد جاء شباب إباضي إلى جابر بن زيد وسأله عن

أفضل الجهاد فقال: قتل خردلة، وكان الشاب لا يعرفه فأراه إياه رجل من المسلمين، (الإباضية) في المسجد ووضع يده عليه حتى لا يخطئه فضربه بين كتفيه بخنجر مسمون فمات، وقبض على الشاب الإباضية وأتى به إلى الوالي فقال له: «قد علمت أنك لم تفعل هذا من فسك وإنما أمرت، فدلني على من أمرك ومناه، فقال: دع عنك هذا، فقتله»⁽¹⁾، وكان خردلة هذا من جماعة المسلمين (الإباضية) ثم خرج عليهم وجعل يطعن فيهم ويدل على عوراتهم ويفضح أسرارهم فاستحل جابر دمه وأمر بقتله⁽²⁾، وقد اعتبرت سياسة جابر في هذا الشأن قدوة لمن جاء بعده من الأئمة، واعتبروا الاغتيال لمن يسيء إليهم أحد دعائم نشاطهم «وأحلوا الدماء بالظلم والابتداء به»⁽³⁾.

2- تجنب جابر أي احتكاك معاد مع السلطة، ولم يؤثر عنه أنه تعرض لأذى قبل تولي الحجاج للسلطة في العراق، على الرغم من بعض أصحابه قد لقي عنتاً كبيراً على أيدي الولاية منذ أيام ابن زياد⁽⁴⁾، وتشير المصادر الإباضية إلى أن العلاقة بين جابر بن زيد والحجاج كانت في البداية ودية، وكان جابر يزور الحجاج ويتردد عليه حتى بعد أن نقل الحجاج مقره إلى مدينة واسط، وكان ليزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج، دور ملموس في هذه العلاقة، لأنه كان صديقاً حميماً لجابر⁽⁵⁾، وليس لدينا ما يفسر مثل هذه العلاقة بين الرجلين (جابر ويزيد)، ومن المحتمل أن يزيد بن أبي مسلم كان واسع الأفق يحب العلماء ويعطف عليهم، حتى وإن اختلف معهم في الرأي، وكان في علاقته مع جابر مدفوعاً بهذه النظرة تجاه العلماء، وشفاعته للشعبي دليل آخر على تقديره للعلماء، وحرصه على عدم تعرضهم للأذى والاضطهاد، أما ما يذكره المستشرق ليفتسكي من أن يزيد بن أبي مسلم كان خارجاً فلي لدينا دليل يبرره، ومن غير المحتمل أن يكون يزيد كذلك وهو من أخلص أعوان الحجاج، أضف إلى ذلك أن يزيد بن أبي مسلم نفسه قد قتل على أيدي الخوارج، بينما كان والياً على شمال أفريقية في عهد يزيد بن عبد الملك⁽⁶⁾، وعلى أية حال فإن علاقة جابر بالحجاج بقيت لفترة من الوقت جيدة، وفرض الحجاج له عطاء مقداره 600 أو 700 درهم⁽⁷⁾.

وقد أراد الحجاج أن يوليئه القضاء فرفض متذرعاً بعدم مقدرته على حمل أعباء هذا المنصب، وقال: «إني أضعف من ذلك، قال (الحجاج) وما بلغ ضعفك؟ قال: يقع بين المرأة وخادمها شر فما أحسن أن أصلح بينهما، قال: إن هذا لهو الضعف»⁽⁸⁾، وفي هذه الرواية دلالة على أن جابر كان يريد إخفاء مقدرته وإبداء ضعفه للوالي حتى يبعد الشبهات عنه، وحتى لا يخطر ببال الوالي أن رجلاً بلغ هذه الدرجة من الضعف يمكنه أن يقوم بتأسيس حركة سرية مناوئة للحكم.

3- لما كان جابر بن زيد ينتمي إلى قبيلة الأزد، فقد وجه قسماً كبيراً من جهوده نحو إقناع بعض أفراد هذه القبيلة للانضمام إلى حركته، وقد نجح إلى حد بعيد في هذا الشأن وتبعه عدد كبير من الأزد وعلى رأسهم بعض أفراد الأسرة المهلبية -زعيم أزدي العراق- وأصبح بعضهم من دعاة الفرقة وحماتها البارزين، ولم يقتصر ذلك على الرجال بل تعداه أيضاً إلى النساء،

(1) شماخي، سير، ص75-76، جيطالي، شرح قواعد الإسلام، ورقة 26، الحارثي، العقود الفضية، ص101-102.

(2) جيطالي، شرح قواعد الإسلام، ورقة 26، أنظر أيضاً الحارثي، العقود الفضية، ص102.

(3) جيطالي، شرح قواعد الإسلام، ورقة 26.

(4) شماخي، سير، ص92، 96.

(5) الدرجيني، ورقة 91، شماخي، سير، ص74، الحارثي، العقود الفضية، ص100-101.

(6) ابن خلدون، ج4، ص3، ج6، ص220-221.

(7) الدرجيني، ورقة 90، الحارثي، العقود الفضية، ص10.

(8) الدرجيني، ورقة 91، شماخي، سير، ص74.

وتورد المصادر الإباضية عدداً من النساء المهلبيات اللاتي انضمن إلى جماعة المسلمين (الإباضية) وبذلن جهوداً في سبيل نصرتها، وأعطين بسخاء من أموالهن لبيت مال الدعوة ولمساعدة المحتاجين من أتباعها⁽¹⁾، ليس هذا فحسب بل أن المصادر تشير إلى أعداد كبيرة من عمان، موطن الأزد الأصلي، وحضرموت واليمن انضمت إلى الإباضية، ولم تعد الحركة مقصورة في معظم أفرادها على العنصر القبلي التميمي كما حدث بعد معركة النهروان، ولا عجب أن نجد أول إمامة أسسها الإباضية كانت في حضرموت واليمن وعمان، ونتيجة للجهود التي بذلها جابر بين أقاربه من الأزد بوجه خاص وعرب الجنوب عامة فقد أصبحت الحركة تضم عناصر من قبائل عربية مختلفة كما انضم إليها كثير من الموالي، ولم يمت جابر بن زيد إلا وقد غدت الدعوة الإباضية عبارة عن حركة إسلامية شاملة اجتذبت عناصر مختلفة من قبائل وأجناس مختلفة، وأخذت القناعات المذهبية لدى كثير من أتباع الدعوة تحل محل الولاءات القبلية والعرقية، ومن هنا فإن خليفة جابر في زعامة الحركة كان من الموالي وهو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم، ولكنه سكن بعد انضمامه للدعوة وبعد انتصار الأزد لها في حي الأزد في البصرة⁽²⁾.

ولم تقتصر دعوة جابر على من كان موجوداً في البصرة بل تعدتها إلى الأمصار الإسلامية الأخرى حيث كان يبعث بالدعاة لمختلف المناطق، وكان عمله هذا إرهاباً لما تم في عهد خلفه أبي عبيدة من تدريب للدعاة الذين عرفوا باسم حملة العلم إلى الأمصار، وكان جابر على صلة وثيقة مع أتباع دعوته في الولايات المختلفة ومن بينهم أناس من الأزد والمهالبة، وتشير المصادر إلى مراسلات متبادلة بينه وبين عبد الملك بن المهلب في خراسان، وكان جابر يطلب منه أن يكتب له في أمر الدعوة، ويسأله أن يرسل خطاباته في سرية تامة مع أشخاص موثوقين، والواقع أن جابراً كان يكرر الطلب في وجوب السرية في جميع مراسلاته مع أعوانه وأتباعه، ويطلب أحياناً تمزيق رسائله إليهم وحرقها حتى لا تصل إلى أيدي أعدائهم فتؤدي بالتالي إلى كشف تنظيمهم وإجهاض حركتهم⁽³⁾، وقد استطاع أيضاً أن يكسب عدداً من الأتباع ممن تولوا فيما بعد مركز المسؤولية (بالطبع دون علم السلطات بمعتقدهم)، وكانوا يستعينون بأراء إمامهم جابر في تسيير الإدارة والأعمال في المناطق الخاضعة لنفوذهم، ومن بين هؤلاء الأشخاص: النعمان بن مسلمة الذي أرسل إلى جابر يسأل عن كيفية جمع الجزية من منطقته، ولا تذكر المصادر المتوافرة أين كان النعمان والياً (أو عاملاً) ولكن ورد كلمة دهقان في الرسائل المتبادلة بينه وبين الإمام جابر تدل على أنه كان والياً في المناطق الشرقية وربما في بعض كور خراسان⁽⁴⁾، ومن الشخصيات الأخرى التي كانت على صلة وثيقة بجابر بن زيد، يزيد بن يسار الذي كان يقطن عمان ويدين بالمذهب الإباضي، وقد عين عاملاً في إحدى مناطق عمان فأرسل إلى جابر يستشير في ذلك ويطلب نصائحه وإرشاداته⁽⁵⁾، وهناك أشخاص آخرون خارج البصرة كانوا على علاقات حميمة مع جابر يدينون بمذهبه ويصدرون عن أمره، وكانوا عيوناً له وممثلين في المناطق التي يسكنونها⁽⁶⁾، ونظراً للدقة في التنظيم والحذر الشديد فلم يستطع الولاة القبض على هؤلاء الدعاة والأشخاص، وكان وجود بعضهم في مركز المسؤولية دليلاً على أن جابراً لم يمانع في أن يستلم بعض أتباعه عدداً من

(1) الدرجيني، ورقة 88-91، 100-104، 105 وما بعدها.

(2) حول هذه المعلومات أنظر: الدرجيني، ورقة 100، وما بعدها، 105 وما بعدها، شماخي، سير، ص77، 83، الحارثي، ص139-148.

(3) جابر بن زيد، جوابات، ص15، 31، 37، 40.

(4) المصدر نفسه، ص31.

(5) المصدر نفسه، ص21. See also, Ennami, art. Cit. p 67.

(6) جابر بن زيد، جوابات، ص22، 33.

المراكز والمهام الرسمية في جهاز الدولة -التي يعمل ضدها في النهاية- حيث كان يرى أن هؤلاء يسهمون في توفير مناخ مناسب لنشر دعوته في تلك الأمصار والولايات ويشكلون دعامة لها . ويبدو أن هذه العلاقات الواسعة والاتصالات الدائبة مع أتباع الحركة في البصرة وخارجها قد وصلت إلى أسماع الحجاج، فأخذ يرتاب من جابر بن زيد وجعله تحت مراقبة دائمة، ولكن علاقات جابر مع كاتب الحجاج، وعدم وجود قناعة واضحة لدى الحجاج بنشاط جابر السياسية التي حدثت في بلاد المشرق في العقد الثامن من القرن الأول الهجري قد أدت إلى تغيير جذري في موقف الحجاج من جابر بن زيد وأتباعه، فقد ثار أزد عمان بزعماء سعيد وسليمان، أولاد عباد بن الجلندي، وأرسل الحجاج حملات عدة لقمع الثورة وباءت جميعها بالفشل . وفي تلك الأثناء قامت ثورة ابن الأشعث عام 81 هـ /700 م فأجل الحجاج معالجة الموقف في عمان ليتفرغ لقتال ابن الأشعث⁽¹⁾، وبعد القضاء على ثورة ابن الأشعث وجه الحجاج جيشاً كبيراً إلى عمان بقيادة القاسم المزني ولكن الأزد بقيادة الأخوين، سعيد وسليمان، تمكنوا من دحر هذه الحملة وقتل قائدها⁽²⁾ وعندما وصلت أنباء فشل الحملة إلى الحجاج غضب كثيراً، وقرر الانتقام من الأزد ليس في عمان فحسب بل في العراق أيضاً . فوضع زعماء الأزد في العراق، ومن بينهم جابر بن زيد تحت مراقبة شديدة، وحذرهم من أي اتصال مع إخوانهم في عمان وكتب إلى عبد الملك بن مروان في الشام يخبره بتضييفه على أزد العراق وأنه أقعده وجوه الأزد الذين كانوا في النصر لسليمان بن عباد⁽³⁾، ثم بعث جيشاً بقيادة مجاعة المزني أخي القاسم، على رأس أربعين ألفاً من النزاريين لإخماد ثورة الأزد، وقد سلك نصف هذا الجيش طريق البحر، بينما سلك النصف الآخر طريق البر، وقد تمكن سليمان بن الجلندي من هزيمة الجيش البري الذي يبدو أنه وصل مبكراً ولم ينتظر وصول القوة البحرية لتتشارك الفرقتان في مهاجمة الثوار في آن واحد، وطبقاً لخطة عسكرية واحدة، وأثناء ذلك وصل الجيش البحري وعلى رأسه مجاعة نفسه، وتمكن من هزيمة سعيد بن الجلندي الذي بقي في جزء صغير من الأزد يراقب السواحل بينما كان معظم الجيش العماني الأزدي يرافق أخاه سليمان الذي هزم الجيش البري الذي أرسله الحجاج، اضطر سعيد بن الجلندي للانسحاب إلى الداخل والالتجاء إلى الجبال، ولما علم أخوه سليمان سار إليه محاولاً فك الحصار عنه ومحاربة مجاعة ومن معه من الجند، وقبل أن يشتبك مع مجاعة أحرق السفن التي جاءت بهم إلى العراق، ثم سار إلى مجاعة وتمكن من هزيمته وارتد مجاعة هارباً والتجأ إلى جلفار، وكتب إلى الحجاج يستمده، فأرسل له خمسة آلاف جندي من أهل الشام بقيادة عبد الرحمن بن سليمان، وتمكن مجاعة بمساعدة القوة الشامية من هزيمة الأخوين سعيد وسليمان ومن معهما من الأزد، ونكل بالأزد، وأوقع فيهم الذل والهوان، مما كان له أبعد الأثر في موقف أزد العراق حلفاء الإباضية الذين يتزعمهم جابر الأزدي، تجاه الحجاج والسلطة الأموية، فغضبوا لما حلب أبناء قبيلتهم في عمان، واعتبروا الحجاج مسؤولاً عما حدث، فسخطوا عليه وتمنوا زوال حكمه⁽⁴⁾، وفي نفس الوقت الذي كانت تجري فيه هذه الحوادث التي أدت إلى توتر العلاقات بين الأزد والحجاج قام الأخير بإشعال النار في الهشيم، فتنكر لآل المهلب، زعماء أزد العراق وخراسان آنذاك⁽⁵⁾، وأخذ يكيد له ويحرض عبد الملك بن مروان ضده ونجح في إقناعه بعزل يزيد من ولاية خراسان، وبالسماح له في معاقبته وتعذيبه، فزج الحجاج بيزيد وبعض أفراد أسرته في السجن، وأساء إليهم مما زاد في إغضاب أزد العراق

(1) عن ثورة ابن الأشعث أنظر: A.A Dixon, The Umayyad Caliphate, pp. 151ff

(2) الأركوي، ورقة 327.

(3) الأركوي، ورقة 37.

(4) بلاذري، أنساب، ج3، ص318-320، طبري، س، 1026-1038، المسعودي، تنبيه، ص314، سليل بن رازق، 4-5، الأركوي، ورقة 328-327.

(5) الدرجيني، ورقة 91.

والبصرة، وكان لموقف الحجاج هذا أثره على الدعوة الإباضية التي يتزعمها الإمام جابر بن زيد الأزدي البصري، فقد استغل جابر فرصة الكراهية بين الأزدي والحجاج لإقناع كثير من الأزدي بالانضمام إلى جماعة المسلمين «الإباضية» وتبعد قسم كبير منهم وعلى رأسهم أفراد من آل المهلب، رجالاً ونساء، منهم عاتكة بنت المهلب، أخت يزيد، التي كانت من أشد الناس حماساً للمذهب ولم تبخل بمالها لمساعدة المحتاجين من أهل دعوتها⁽¹⁾، وكان لهذه التطورات أثرها الكبير في موقف الحجاج من جابر وأتباعه. وقد حبس جابر مع بعض أصحابه البارزين مثل ضمام بن السائب وأبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي وصحار العبدى وغيرهم⁽²⁾، ولم يلبث الحجاج أن أطلق سراح جابر ونفاه مع رجل من مشايخ الدعوة يدعى هبيرة وهو جد أبي سفيان محبوب بن الرحيل المؤرخ الإباضي وآخر الأئمة الإباضيين في البصرة⁽³⁾، ومن المحتمل أن الإفراج عن جابر كان بشفاعة من صديقه الحميم، يزيد بن أبي مسلم، كاتب الحجاج، ولا شك أنفي جابر إلى عمان كان ذا نتيجتين: الأولى أنه حرم أتباع الحركة في البصرة من أمامهم وزعيمهم فخلدوا إلى الدعة والهدوء، بينما بقي زعمائهم ومشايخهم في سجن الحجاج حتى مات الأخير عام 95هـ⁽⁴⁾، والثانية أن الفرصة كانت مواتية لأن يقوم جابر بالدعوة إلى مذهب في موطنه الأصلي عمان، أي بين أهله وعشيرته الأقربين الذين يعرف عاداتهم وتقاليدهم وكيفية التعامل معهم، مستغلاً في ذلك كرههم للحجاج وحقدهم عليه لما حل بهم خلال ثورة أولاد الجلندی التي أخمدها الحجاج، ولا يراودنا شك في أن وجود جابر مع بعض رفاقه في عمان قد أفاد الدعوة الإباضية وساعد على سرعة انتشارها في ذلك القطر، وكانت جهوده مقدمة لنشاط حملة العلم الذين بعث بهم، فيما بعد خليفته أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي⁽⁵⁾، ولا تشير الروايات إلى تاريخ محدد لنفي جابر إلى عمان كما أنها لا تذكر المدة التي قضاها في منفاه، ولكنها تجمع على أنه عاد إلى البصرة ومات فيها، وتختلف المصادر حول تاريخ وفاته، إذ يذكر بعض الرواة أنه توفي في نفس الأسبوع الذي توفي فيه أنس ابن مالك، وقد توفي الأخير في عام 93هـ-711م⁽⁶⁾، ويرى البعض الآخر أنه توفي عام 103هـ-721م⁽⁷⁾، أما الهيثم بن عدي فيضع تاريخ وفاته عام 104هـ-722م⁽⁸⁾، بينما يضعه الشماخي عام 96هـ-714م⁽⁹⁾ ويبدو أن الرأي الأول هو الأصح لأنه جاء على ألسنه رواة الحديث الذين يهتمون إلى حد كبير بحياة كل محدث وتاريخ وفاته، وكان كجابر أحد هؤلاء المحدثين، أضف إلى ذلك فإن المصادر تشير كما مر معنا - إلى أن جابر أ استدعى الحسن البصري إليه وهو على فراش الموت وكان الحسن آنذاك مستخفياً من الحجاج الذي مات عام 95هـ، ومعنى هذا أن جابر أ توفي قبل هذا التاريخ، والأرجح أن تاريخ وفاته كان عام 93هـ-711م كما أشرنا قبل قليل، وخلفه في زعامة الدعوة أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي.

(1) شماخي، سير، ص75-95، الحارثي، العقود الفضية، ص104.

(2) الدرجيني، ورقة 91، 101، 104، شماخي، سير، ص76، 81، 87.

(3) شماخي، سير، ص76، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 22، البسيوي، مختصر البسيوي، زنجبار، 1304هـ، ص6-7.

(4) الدرجيني، ورقة 101، 104، شماخي، سير، ص76، 81، 87، الحارثي، العقود الفضية، ص145.

(5) من أشهر حملة العلم الذين كان لهم فضل كبير في نشر المذهب الإباضي في عمان: محمد بن المعلا الكندي، مصنور الريامي، بشير بن المنذر النزواني، المنير بن النير، والربيع بن حبيب الفراهيدي، وقد تولى الأخير مائة الإباضية بعد موت أبي عبيدة، أنظر عن هؤلاء: العوتبي، ورقة 107، 193، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 30-31، أطفيش، الإمكان، ص109.

(6) الربيع حبيب، مسند، ج2، ص103، ابن حبن، مشاهير علماء الأمصار، ص89، بخارى، التاريخ، ج1، ق1، ص1، ابن حجر، تهذيب، ج2، ص38، 39، ذهبي، تذكرة، ج1، ص63.

(7) ابن سعد، ج7، ص133، ابن قتيبة، معارف، ص200.

(8) ابن حجر، تهذيب، ج1، ص38، (عن الهيثم بن عدي).

(9) شماخي، سير، ص77.

الباب السادس

أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي

هو أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة مولى بني تميم⁽¹⁾، ويذكر الجاحظ أنه كان مولى لعروة بن أديّة التميمي، أخي مرداس بن أديّة⁽²⁾، عاش في البصرة وأخذ العلم عن جابر بن زيد وصحار العبدي وجعفر بن السماك وضمام بن السائب العبدي العماني، وهم أشهر علماء الإباضية في مرحلة الكتمان⁽³⁾، ويرى بعض مؤرخي الإباضية أن أبا عبيدة قد أدرك بعض الصحابة الذين أخذ عنهم أستاذه جابر بن زيد، وتلقى عنهم العلم وروى عنهم الأحاديث، ومن هؤلاء أنس بن مالك، أبو هريرة، عبدالله بن عباس، أبو سعيد الخدري، جابر بن عبدالله، وعائشة أم المؤمنين⁽⁴⁾.

كان أبو عبيدة عالماً الإباضية الأوائل وفقهائهم البارزين، كما كان يتمتع بقدرات سياسية بارعة وأفق واسع مما ساعده على تنظيم الدعوة الإباضية في مرحلتها السرية بشكل دقيق وذكي، ولا غرو بالتالي أن يعزو المؤرخون الإباضيون إليه الفضل الأكبر في نمو حركتهم وانتشارها في أقطار إسلامية كثيرة خارج البصرة، مثل حضرموت واليمن وعمان والحجاز ومصر وبلاد المغرب، وذلك بواسطة الدعاة المدربين الذين كان يرسلهم لتلك الولايات لنشر المذهب الإباضي فيها، وكون هؤلاء ما عرف في تاريخ الحركة الإباضية باسم حملة العلم، أي الذين حملوا العلم (طبقاً للمذهب الإباضي) من منابعه الأصلية في البصرة ونقلوه إلى الأمصار⁽⁵⁾.

تبوأ أبو عبيدة زعامة أهل الدعوة بعد موت الحجاج عام 95هـ وخروجه من السجن، واتفق ذلك مع بداية حكم الخليفة سليمان بن عبد الملك (96هـ-715م-99هـ-717م). وكان الخليفة على علاقة وثيقة مع المهالبة، زعماء الأزدي، الذين انضموا إلى الحركة الإباضية بأعداد وفيرة، إبان إمارة جابر بن زيد الأزدي، ومن المحتمل أن الإباضية لم يلاقوا عنتاً خلال فترة سليمان بن عبد الملك الذي عين زعيم الأزدي يزيد بن المهلب، والياً على العراق وخراسان، ولا تذكر المصادر الإباضية المتوافرة أية علاقات عدائية بين الخلافة وأتباع الإباضية خلال هذه الفترة، ولعل السبب في ذلك يعود إلى حماية يزيد بن المهلب لهم نتيجة للعلاقات التي تربط الأزدي وآل المهلب بهذه الحركة وخاصة إذا تذكرنا أن كثيراً من زعماء المهالبة ومن بينهم عاتكة أخت يزيد وأخيه عبد الملك كانوا من بين أتباع تلك الدعوة⁽⁶⁾.

وعندما توفي سليمان بن عبد الملك وارتقى عمر بن عبد العزيز عرش الخلافة (99هـ-101م-101هـ-720م)، سجن الأخير يزيد بن المهلب لاتهامه إياه بعدم تسلم خمس الغنائم التي حصل عليها أثناء حملته في جرجان وطبرستان زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك⁽⁷⁾، وقد بقي يزيد في السجن طيلة حكم عمر بن عبد العزيز كما قام والي العراق بسجن اخوته وبعض أقاربه في

(1) أبو الفرج، أغاني، ج20، شماخي، سير، ص83، الحارثي، العقود الفضية، ص139.

(2) الجاحظ، بيان، ج3، ص265.

(3) الدرجيني، ورقة 91، شماخي، سير، ص79، 81، 83، السالمي، حاشية الجامع الصحيح، ج1، ص6، الحارثي، ص139-140.

(4) السالمي، حاشية الجامع الصحيح، ج1، ص6، الحارثي، ص139، (لا يذكر أسماء الصحابة ولكنه يقول: «إن أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر بن زيد من الصحابة»).

(5) الدرجيني، ورقة 4-8، شماخي، سير، ص83 وما بعدها، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 30، العوتبي، ورقة 107، أطفيش، الإمكان، ص109.

(6) أنظر فوق ص98.

(7) ابن أعثم، ج2، ص166ب-167أ، مسعودي، تنبيه، ص320-321.

البصرة⁽¹⁾، وكن هذه الحادثة لم تؤد إلى توتر في العلاقات بين أتباع الدعوة الإباضية والخليفة عمر بن عبد العزيز، والحقيقة أن هذا الخليفة حاول أن يحل مشاكله مع أحزاب المعارضة ومن بينهم الخوارج بالطرق السلمية مفضلاً الحوار والمناقشة على النزاع والحروب⁽²⁾، ويبدو أن أبا عبيدة ومشايخ الإباضية في البصرة كانوا يأملون خيراً من عمر بن عبد العزيز، وحاولوا التوصل إلى تفاهم معه حول قاعدة مشتركة بين الطرفين، فأرسلوا إليه وفداً على رأسه جعفر بن السماك، أحد أبرز مشايخ الإباضية في البصرة آنذاك محاولين استمالة إلى جانبهم وإقناعه بصحة معتقداتهم، وعلى الرغم من عدم وصولهم إلى نتيجة حاسمة معه في هذا الشأن إلا أن الوفد رجع راضياً عن سياسته وسلوكه، وتدعي بعض المصادر الإباضية أن الوفد استطاع أن يستميل ابن الخليفة عبد الملك واعتنق المذهب الإباضي⁽³⁾، ولإعطاء القارئ صورة واضحة عن طبيعة العلاقات بين الفريقين فإننا ننقل النقاش الذي دار بينهما كما أورده المصادر الإباضية نقلاً عن أبي سفيان محبوب بن الرحيل، المؤرخ الإباضي الذي كان معاصراً للحوادث، يقول أبو سفيان: «وفد جعفر والحباب بن كليب وسالم الهلالي في جماعة من إخوانهم إلى عمر بن عبد العزيز حين ولي الخلافة فدخلوا عليه فكلموه، فقال لهم: هل تتكرون من أمر الأحكام شيئاً؟ فكلما كلموه فزع لهم إلى الأحكام، فعاتبوه وذكروا أمر عثمان فأخذ يعذره ويريد أن ينصرفوا عنه، وضرب الحباب على ركبته وقال: وإنك لها هنا تعذر بالظلمة وتفعل! فقال له: أمسك يدك يا عبدالله! وكان جعفر (ابن السماك) ألطفهم به، وقال: ما فيكم أرفق من الأشج (جعفر) فأجابهم عبد الملك ولد عمر وقبل منهم ما دعوا إليه أباه، وكان عبد الملك فاضلاً⁽⁴⁾».

ومهما كانت صحة هذه الرواية فإنها تدل على وجود علاقات ليست سيئة بين أهل الدعوة (الإباضية) وبين الخليفة، وتجمع المصادر الإباضية على عدم الإساءة إلى عمر بن عبد العزيز بل أن بعضها يشير إلى أن الإباضية يتولونه ولا يتبرعون منه⁽⁵⁾، ومما يثبت وجود علاقات سلمية بين أهل الدعوة والخليفة عمر بن عبد العزيز أن الأخير عين الفقيه الإباضي المعروف، إياس بن معاوية المزني، قاضياً في البصرة⁽⁶⁾.

أثناء هذه الفترة من العلاقات السلمية، وأحياناً الودية، بين الإباضية والسلطة الحاكمة والتي امتدت خلال حكم الخليفين سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز، استغل أبو عبيدة ومشايخ الدعوة في البصرة هذه الفرصة لالتقاط أنفاسهم وتنظيم حركتهم على أسس متينة من أجل الوصول إلى هدفهم الأسمى، وهو تأسيس إمامة الظهور وانتخاب خليفة للمسلمين من بين أتباع الدعوة، وقام أبو عبيدة بتطوير تنظيمات المجالس السرية وأعمالها التي كانت تقام في البصرة وتضم مشايخ الدعوة وأتباعها، يتداولون فيها خططهم ويتعلمون فيها مبادئ عقيدتهم وما يمت إلى دعوتهم بصلة سواء في النواحي الدينية أو الدنيوية، والحقيقة أن هذه المجالس السرية كانت موجودة منذ زمن مرداس بن أدية التميمي الذي تزعم حركة القعدة بعد النهروان، أي في أيام زياد بن أبيه وابنه عبيد الله. وتذكر الروايات أن عروة ابن أدية، أخا مرداس قد قبض عليه وهو مختبئ في سرداب

(1) ابن أعثم، ج2، ص171أ، طبري، س2، ص1382، مؤلف مجهول، غرر السير، ورقة 78، من المحتمل أن بعض أقارب يزيد الذين سجنهم والي البصرة كانوا يعتنقون المذهب الإباضي ولكن المصادر المتوفرة لا تشير إلى ذلك لجهلها باعتقادهم لهذه الدعوة السرية.

(2) بلاذري، أنساب، ج2، ص166-168.

(3) الدرجيني، ورقة 99، شماخي، سير، ص79-80.

(4) الدرجيني، ورقة 99.

(5) الدرجيني، ورقة 100، الرقيشي، ورقة 98، جيطالي، ورقة 32.

(6) الدرجيني، ورقة 99-100، شماخي، سير، ص81-82.

سري تحت الأرض حيث كان يتعبد مع أصحابه⁽¹⁾، ويذكر المؤرخ الإباضي أبو سفيان أمثلة أخرى تدل على وجود مثل هذه المجالس السرية في زمن مبكر من عمر الدعوة، منها ما يقوله: «حدثني يسار وهو من خيار من أدركت عن والدته، وهي بنت ثمانين سنة، قال: أدركت آخرين من بني راسب يقال لأحدهما تبرج والآخر مازن ابن كنان، وكانا من خيار من مضى من أهل هذه الدعوة، وكانا نظيري أبي بلال وأخيه عروة رحمهم الله، وكانا في زمانهما، فأما تبرج فكان عابداً مصلياً لا يفتر من العبادة حتى دبرت ركبتاه ويداه ورجلاه وجهته كدبر البعير، وكان قد اتخذ سرباً في الأرض يعبد الله فيه مع أصحابه⁽²⁾».

وعلى الرغم من وجود هذه المجالس السرية منذ الأيام الأولى لقيام حركة الخوارج القعدة فإن الفضل يعود للإمام أبي عبيدة في توضيح معالم هذه المجالس وتصنيف وظائفها وترتيب طبقاتها، ويمكن أن نميز بين ثلاثة أنواع من المجالس السرية كانت موجودة زمن أبي عبيدة التميمي.

النوع الأول: المجالس العامة وهي التي لم تكن مقصورة على جماعة معينة بل أن دخوله مباح لأي شخص من أهل الدعوة، وكان الأعضاء يرتادون هذه المجالس التي تعقد سرّاً في بيت أحد المشايخ وفي سرايب أرضية خاصة أعدت لهذا الغرض، وفي بعض الأحيان كانوا يعقدون هذه المجالس في بيوت النساء العجائز أو بيوت الكرائين تجنباً للشبهات وإمعاناً في الحيلة والحذر⁽³⁾، ولم يكن لهذه لمجالس العامة برنامج معين أو خطة واحدة، بل كان الأعضاء يجتمعون في المجلس ويتلقون دروساً في العقيدة وإرشادات من كبار المشايخ الذين كانوا يقومون بإلقاء الخطب الواحد تلو الآخر حول وموضوع معين أو مواضيع مختلفة، وتشبه خطبهم ما هو معروف عن خطب صلاة الجمعة في المساجد ولكنها من جهة أخرى تختلف عنها في أن المجتمعين قد يتلقون أوامر يجب التقيد بها، ولم تقتصر على الخطب الوعظية والدروس الدينية كما هو الحال في خطب الجمعة أو الأعياد الدينية، وكان المتحدثون يتكلمون بصوت منخفض حتى لا يسمعون الجيران أو المارة.

وكانوا يعينون أشخاصاً منهم لمراقبة الأحياء والطرق المؤدية إلى مكان الاجتماع، حتى لا تدهمهم الشرطة على غفلة أو يعلم باجتماعهم أحد من المحالفين المناوئين للحركة وبينما كانوا مجتمعين ذات مرة جاءتهم العيون تخبرهم بأن الشرطة في طريقها إلى الحي الذي اجتمعوا فيه ففرضوا الاجتماع وتفرقوا، وكانوا آنذاك مجتمعين في بيت متواضع تملكه امرأة مسنة، يقول أبو سفيان «وما بلغنا أنه ظفر بهم في مجلس قط إلا أنهم كانوا ذات مرة أتاهم الخبر بأن الخيل تريدهم، فخرجوا مسرعين، وتركوا نعالهم على باب البيت الذي كانوا فيه فجاء الشرط فنظروا إلى النعال، فقالوا للعجوز صاحبة البيت: ما هذه النعال؟ فقالت: مكاتب لنا يسأل الناس فيعطى النعال وغيرها، قالوا بالله ما ذلك كما ذكرته، فإن هذا موضع ريبة، قال: فقال بعضهم: فد ذكرى العجوز ما ذكرت فلا تعرضوها للبلاء، فلعلها أن تكون صادقة، قال: «فعافاها الله منهم»⁽⁴⁾، وعلى أي حال فإن الإباضية لم يتركوا وسيلة لإخفاء تنظيمهم مالا واتبعوها وكانوا يتخذون كل الإجراءات الممكنة لمنع تسرب أية معلومات عن مجالسهم أو أماكن انعقادها، كما كانوا يذهبون لحضور هذه المجالس متكررين على هيئة النساء أو الباعة المتجولين، يقول أبو سفيان: كانوا يأتون المجالس في هيئة

(1) الدرجيني، ورقة 92، 98.

(2) شماخي، سير، ص 82، (عن أبي سفيان).

(3) الدرجيني، ورقة 105.

(4) الدرجيني، ورقة 105 (عن أبي سفيان).

النساء في النهار، وغير ذلك يتشبهون بالنساء.. وإن كان أحدهم ليحمل على ظهره جرة ماء أو يحمل حمل متاع كأنه يباع حتى يدخل المجلس»⁽¹⁾، ليس هذا فحسب بل أن مشايخ الإباضية كانوا يحذرون أتباعهم من العيون والجواسيس ويوصونهم بطرد أي شخص يشكون في أمره، ويؤثر عن أبي مودود حاجب الطائي أنه كان يخاطب أتباعه ويقول: «إذا كان أحد يعيب عليه المسلمون (الإباضية) في خلافهم في الدين وأراد أن يشغب عليهم وفتق بينهم فاهجروه ولا تحضروه مجالسكم وأعملوا الناس به ليكونوا منه على حذر..»⁽²⁾ ونتيجة لهذه الوسائل والإجراءات الحذرة التي اتبعها الإباضية في البصرة لم يؤثر عنهم «أنهم ظفر بهم في مجلس قط»⁽³⁾.

كان مشايخ الإباضية البارزين يشرفون على هذه المجالس العامة. ولذلك فقد سمي كل مجلس باسم الشيخ المشرف عله مثل مجلس عبد الملك الطويل ومجلس أبي سفيان قنبر ومجلس أبس الحر علي بن الحصين ومجلس أبي مودود حاجب الطائي وغيرها⁽⁴⁾.

النوع الثاني: مجالس المشايخ ويحضرها زعماء الإباضية فقط. وفي هذه المجالس تقرر السياسة التي يجب على أهل الدعوة اتباعها. وكان مجلس المشايخ عبارة عن مجلس تخطيط وتنظيم لحركة ثورية سرية، ولا يجوز لأحد غير الإمام وكبار المشايخ حضور هذه المجالس، وتورد المصادر الإباضية أمثلة كثيرة منع فيها بعض اتباع الدعوة من الدخول إلى هذه المجالس: منها ما يذكره أبو سفيان من أن شعيب بن عمر، وهو من أفاضل شباب أهل الدعوة، قد حاول دخول أحد مجالس المشايخ وكان منعقدا في الليل في بيت زوج أخته حاجب الطائي، ولما علم الأخير به رفض السماح له وطلب منه العودة إلى بيته الذي كان يبعد أكثر من ثلاثة أميال⁽⁵⁾.

النوع الثالث: هو ما يمكن أن نسميه باسم مجالس أو مدارس حملة العلم، حيث كان الدعاة من مختلف الأمصار يتلقون العلم وأصول الدعوة وتعاليمها مباشرة عن الإمام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي الذي أقام مدرسة سرية لهذه الغاية في سرداب أرضي لا يعرفه إلا الدعاة حملة العلم وشيوخ الإباضية البارزين الموثوقين، وكان أبو عبيدة يتظاهر بصنع القفاف لذلك دعي بالقفاف⁽⁶⁾، وبينما كان الإمام يلقي دروسه على تلاميذه كان هناك حارس يجلس عند الباب الخارجي للسرداب فإذا مر أحد حرك الحارس سلسلة حديدية فيتوقف أبو عبيدة عن إلقاء دروسه ومحاضراته، ويشغل وتلاميذه بضع القفاف، وإذا أمن الحارس وأيقن عدم وجود خطر حرك السلسلة مرة أخرى فيعود أبو عبيدة وتلاميذه للدرس والتحصيل⁽⁷⁾، ومن هذه المدرسة تخرج دعاة الإباضية في الأمصار الذين عرقوا باسم حملة العلم، كان حملة العلم يختارون عادة من بين أهل الولايات التي يرسلون إليها، أو من المناطق القريبة منها لمعرفتهم بأحوال الناس وعاداتهم وتقاليدهم وطرق معيشتهم ومقدار تطورهم الفكري والحضاري ودرجة ولائهم للسلطة الحاكمة، وبالتالي يسهل عليهم مخاطبة الناس واختيار الظروف الملائمة والأماكن المناسبة لإقامة مراكز الدعوة ونشر أفكارهم ومعتقداتهم في تلك البلاد، وإذا تفحص الباحث المصادر الإباضية المتوافرة فإنه يجد أن معظم حملة العلم كانوا من بين السكان الأصليين للبلاد التي يبشرون فيها، على أن وجود دعاة من أماكن أخرى كان وارداً ولكن بصورة محدودة جداً، وطبقاً لمقتضيات الظروف، كما حدث عندما رافق أبو

(1) المصدر نفسه.

(2) الدرجيني، ورقة 105-106.

(3) الدرجيني، ورقة 105، شماخي، سير، ص108.

(4) الدرجيني، ورقة 105، شماخي، سير، ص91.

(5) الدرجيني، ورقة 105، شماخي، سير، ص90-91.

(6) الدرجيني، ورقة 4-8، أبو زكريا، ورقة 5، شماخي، سير، ص90، الأزكوي، ورقة 278، الحارثي، ص139، 147، 188.

(7) أبو زكريا، ورقة 5، الدرجيني، ورقة 4، 8، الحارثي، ص147.

الخطاب المعافري، وهو عربي يماني، حملة العلم المغاربة الذين جاءوا إلى البصرة في نحو عام 135هـ، وبقوا خمس سنوات يأخذون العلم وأصول المذهب الإباضي عن إمام الإباضية الأكثر أبي عبيدة التميمي⁽¹⁾، ومهما يكن من أمر فإن الروايات الإباضية تشير إلى أن أبا عبيدة كان يحبذ اختيار الدعاة من السكان المحليين، يقول أبو سفيان: «أخبرني بعض بني بسر وقال: قدم إلينا أبو عبيدة مرة حاجباً ومعه امرأة من المهلبيات فلما فرغوا من حجهم قالت: يا أبا عبيدة! إنني أريد المقام بمكة، قال: لا تقيمي الخروج أفضل لك، قال ابن مسروق: (من دعاة الإباضية في الحجاز) فقلت: وأنا أخرج معكم يا أبا عبيدة، قال: فقال: أما أنت فأقم، قال: فقلت تأمر هذه بالخروج معك وتأمرني بالمقام؟ قال: لأنك قريب من مكة ونحن بعيد عنها»⁽²⁾، والحقيقة أن حملة العلم للأمصار الذين أرسلهم أبو عبيدة للولاياء كانا من السكان المحليين سواء كان ذلك في عمان وحضرموت والسمن أو الحجاز أو شمال أفريقيا. وسوف نفصل ذلك خلال حديثنا عن انتصار الدعوة وتأسيس الإمامة في هذه الولايات والأمصار.

وقد نظم أبو عبيدة العلاقة بين مركز الدعوة في البصرة وحملة العلم، وإذا حدث خلاف بين أفراد حملة العلم في أي من الأمصار فكان عليهم العودة لمشايخ أصحابه المعروفين بالحصافة والعلم للنظر في مثل هذه الطوارئ، وكان رسوله في معظم الأحيان حاجب الطائي الذي كان ساعده الأيمن ومستشاره الأول، وكان المسؤول عن الشؤون العسكرية والمالية وشؤون الدعوة خارج البصرة⁽³⁾، ومن أمثلة ذلك ما حدث بين أتباع الدعوة من أهل حضرموت، فقد وقع الخلاف بينهم وقبض فريق منهم على رئيسهم عبدالله بن سعيد وشدوه في الحديد وبايعوا رجلاً آخر يقال له حسن بينما خالفتهم طائفة أخرى، واتفق الفريقان على تحكيم مشايخ البصرة في الأمر وأرسلوا إلى البصرة يفرضون مشكلتهم على الإمام ويطلبون منه النصح والإرشاد، فأرسل لهم أبو عبيدة حاجب الطائي في موسم الحج، وبعث لهم يخبرهم بذلك ويأمرهم بموافاة حاجب في الموسم، وصدع الجميع لأمر شيخهم أبي عبيدة، ووافى الحضارمة حاجبي في مكة ودخلوا عليه خيمته، وكان آنذاك أرمدًا، فقال: لقد خرجت من البصرة فما أبصر سهلاً ولا جبلاً ولا أخرجني بعد ما أرجو من قضاء نسكي إلا أمركم يا أهل حضرموت، فأنكم غلبتمونا، قال وائل بن أيوب الحضرمي فقلت: رحمك الله يا أبا مودود فأنا لا نخرج عن رأيك، فقال لي: أسكت فوالله ما أريدك ولا أصحابك!، ثم تلك الفريقان (الحضرميان) فقال من أحق بالقيام المدافع أم الشاري؟ قال: بل الشاري أحق، فقال أصحاب ابن سعيد: يا أبا مودود إذا شروا فليخرجوا عنا، فإننا لا طاقة لنا بالحرب ولا بما يجرون علينا منها، فقال: (الذين أرادوا الشراء)، يؤجلوننا شهراً، فقال لهم حاجب: لا والله ولا ثلاثة أيام إلا برضاهم»⁽⁴⁾.

بالإضافة إلى الدعاة وحملة العلم فقد استفاد الإباضية في سبيل نشر دعوتهم، من وسائل أخرى أهمها موسم الحج الذي كان من أفضل المناسبات لبث الدعوة الإباضية بين الحجاج القادمين من مختلف أصقاع العالم الإسلامي، وقد أحسن مشايخ الإباضية وأتباعها استغلال هذا الموسم لصالح دعوتهم، ونشر عقيدتهم، وكان الإمام أبو عبيدة التميمي إذا حج في سنة من السنين أقيمت له خيمة خاصة يرتاده أتباعه فيها حيث يعلمهم أصول الدين ويوجب على أسئلتهم واستفساراتهم، وإذا لم يحج فإنه يرسل أحد مشايخ الإباضية المشهورين بغزارة العلم وحلاوة المنطق وقوة الحجة

(1) أنظر الباب السابع، الفصل الثالث.

(2) الدرجيني، ورقة 102، شماخي، سير، ص 84.

(3) الدرجيني، ورقة 105.

(4) الدرجيني، ورقة 105-106.

وسداد الرأي ليرأس وفد الإباضية لموسم الحج، ومن أشهر هؤلاء المشايخ أبو مودود حاجب الطائي والربيع بن حبيب الفراهيدي، وصالح الدهان، وغيرهم، وكانت منازل هؤلاء المشايخ وخدامهم مدارس متنقلة لنشر المذهب الإباضي، كما كانت ملتقى لأهل الدعوة حيث يتشاورون في أمورهم، ويتبادلون الرأي والنصيحة حول خططهم في أقطارهم المختلفة وأفضل السبل الواجب اتباعها لتحقيق أهدافهم وانتصار دعوتهم⁽¹⁾.

وأفاد الإباضية أيضاً من إخوانهم التجار لنشر المذهب في الأماكن التي يتاجرون فيها، ومعروف من المصادر الإباضية أن هؤلاء التجار قد جابو العالم المعروف آنذاك من الصين شرقاً إلى السوس الأقصى في بلاد المغرب غرباً، وكان لهم دور بارز في نشر المذهب في تلك الأقطار، وبعد انتصار الدعوة في شمال أفريقية وتأسيس الإمامة كان للدعاة الإباضية دور بارز وجهد مشكور في نشر الإسلام في بعض مناطق أفريقية جنوب الصحراء⁽²⁾.

استطاع الإباضية نتيجة للتنظيم الدقيق والدعاية النشيطة والحذرة أن يكسبوا أعواناً كثيرين في مناطق متعددة من الدولة الإسلامية خلال الربع الأخير من القرن الأول الهجري، وفي بداية القرن الثاني الهجري وبعد أن اعتلى يزيد بن عبد الملك عرش الخلافة (101هـ-105هـ) حدثت بعض التطورات السياسية التي أدت إلى بروز جماعة متطرفة من بين الإباضية تنادي بوجوب الثورة، فقد ثار يزيد بن المهلب الذي كان قد هرب من السجن إثر وفاة الخليفة عمر بن عبدالعزيز واحتل البصرة، بعد أن أهزم واليها وحرر إخوته وأقاربه من سجنه⁽³⁾، ثم قام بدعاية واسعة انضم إليها على إثرها عدد كبير من أهل العراق وامتد نشاطه فشمّل الأهواز وكرمان وفارس وحتى السند⁽⁴⁾، ولما علم الخليفة بهذه الانتصارات التي أحرزها يزيد بن المهلب أرسل إليه جيشاً كبيراً بقيادة أخيه مسلمة بنت عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد واستطاع الجيش الشامي أن يهزم الثوار في معركة العقر سنة 102هـ، وقتل فيها يزيد بن المهلب نفسه وهرب بقية أقاربه وأخوته في قنابيل في السند، ولحق بهم هلال بن أحوز التميمي على رأس قوة كبيرة فحاصروهم وألحق بهم هزيمة منكرة وقتل معظمهم أفراد الأسرة المهلبية بينما أسر الباقون مع نسائهم وأطفالهم وعوملوا معاملة سيئة حتى أنهم تعرضوا للبيع في السوق كالرقيق⁽⁵⁾.

كان لهذه المعاملة السيئة التي لقيها المهالبة، قادة الأزدي وعمائهم أثرها الكبير في إثارة غضب الأزدي وسخطهم على الحكم الأموي، ولم يقتصر ذلك على أزدي العراق وخراسان بل تعداه إلى أزدي عمان، وأدى ذلك بالتالي إلى خنق الإباضية في البصرة، وخاصة أن عدداً كبيراً منهم كان ينتمي إلى قبيلة الأزدي، ومنهم عدد من المهالبة أنفسهم، والحقيقة أن قضية المهالبة قد ربطت منذ أيام جابر بن زيد بالقضية الإباضية حيث كان أي خير أو شر يمس هذه الأسرة ينعكس على الحركة

(1) الدرجيني، ورقة 101، 106، شماخي، سير، ص 107.

(2) شماخي، سير، ص 92، 114، أنظر أيضاً: الدرجيني، ورقة 107،

T. Lowicki, "Les Premiers commensants arabes en Chine", Roznik Orientalistcany, Vol. 11, pp. 173-186; Idem, "al-Ibadiyy", E.I (2).

(3) بلاذري أنساب، ج 2، ص 207-208، ابن أعثم، ج 2، ص 171-172، طبري، س 2، ص 1382-1385، أزدي، تاريخ الموصل، ص 80 مسعودي، مروج، ج 5، ص 353-354، مؤلف مجهول، غرر السير، ورقة 78-79، مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، ص 190-191.

(4) ابن أعثم، ج 2، ص 172، مؤلف مجهول، غرر السير، ورقة 79، طبري، س 2، ص 1390.

(5) بلاذري، أنساب، ج 2، ص 212، 214-215، طبري، س 2، ص 1389-90، وما بعدها، 1412-1413، ابن أعثم، ج 2، ص 174-178، مؤلف مجهول، غرر السير، ورقة 84، يعقوبي، تاريخ، ج 2، ص 372-373، مسعودي، مروج، ج 5، ص 454، 458-456.

الإباضية وعلى علاقتها بالسلطة الحاكمة⁽¹⁾، ومن المؤكد أن عدداً من المهالبة والأزد البصرة الذين لقوا مصرعهم على أيدي الأمويين وأعاونهم كانوا من الإباضية ومن بينهم عبد الملك بن المهلب الذي أسلفنا القول عنه في الصفحات السابقة⁽²⁾، ولذلك فقد نجم الإباضية في البصرة على الحكم الأموي بعد قمع ثورة يزيد بن المهلب وضاقوا ذرعاً بسياسة ولاية البصرة تجاه أنصارهم من الأزد، وارتفعت أصوات بعض مشايخهم بوجوب الانتقام وإعلان الثورة ومن بين هؤلاء: الشيخ الإباضي أبو نوح صالح الدهان، وبعض أفراد الأزد الذين نجوا من الموت والهلاك، ومن بينهم عاتكة أخت يزيد بن المهلب المعروفة بحماسها الشديد للمذهب الإباضي وتقانيها في خدمته، ولكن الإمام أبا عبيدة كان يرى أن الوقت لم يحن بعد لإعلان الثورة المسلحة، ورفض بشدة آراء المنادين بها⁽³⁾، وحبذ أبو عبيدة أن يقوم أتباعه بثورتهم في أماكن نائية بعيدة عن متناول السلطة المركزية، وكان في كل تنظيمه يخطط لمثل هذا العمل، ولكنه كان يتحين الفرص المناسبة والملائكة لكل قطر حتى يأمر أتباعه فيه بالخروج، ولذا فقد قاوم آراء أتباعه المنادين بالعصيان وبقي الإباضية طيلة فترة يزيد بن عبد الملك محافظين على سرية حركتهم متجنبين كل ما يثير السلطات حتى لا يواجهوا نفس مصير الأزد والمهالبة، وقد كان موت يزيد بن عبد الملك واعتلاء أخيه هشام عرش الخلافة (150هـ/724م - 125هـ/743م) وتعيين خالد القسري والياً على العراق فرصة مناسبة ساعدت أبا عبيدة على إقناع أصحابه بالتحلي بالصبر، فقد اتسمت فترة ولاية خالد القسري باللين والتسامح ليس مع الإباضية فحسب بل مع معظم المعارضين للحكم، شريطة أن لا يرفعوا السيف في وجهه، وبلغ به التسامح أن بعض مشايخ الإباضية كانوا يشتمونه من على منابر المساجد، كما كانوا يؤلبون الناس ضد عامله على البصرة، القاضي المعروف بلال بن أبي بردة، ولم يمسه بضر، وقد تزعم هذه الحملة الدعائية ضده أحد شيوخ الإباضية البارزين وهو أبو محمد النهدي⁽⁴⁾، وعندما عزل خالد القسري وعين بدلاً منه يوسف بن عمر الثقفي اتبع الأخير سياسة قاسية مخالفة لسياسة سلفه، واستعمل العنف والشدّة ضد المناوئين للسلطة حتى لو لم يرفعوا السيف في وجهها.

في ظل السياسة التي أخذ يمارسها الوالي الجديد تعرض أبو عبيدة لضغط جديد من بعض أتباعه في وجوب التحرك والخروج، ويبدو أن أبا عبيدة قد أدرك أنه ليس بوسع الاستمرار في مقاومة رغبات بعض أصحابه ومشايخ دعوته لوقت أطول، ولكنه رأى أن الوقت نفسه أن الخروج على طريقة متطرفي الخوارج أو على منوال الثورات الأخرى التي قامت في العراق لن تؤدي إلى نتيجة طيبة وستقع بعنف وشدّة، وقد تضيع بعدها الدعوة ويصعب تنظيم أصحابها من جديد، لذا قرر السير في الانتقال من طور الكتمان إلى طور الظهور بحذر شديد، متخذاً خطوات تنظيمية جديدة في هذا الشأن كان لها أثر كبير في انتصار الدعوة، وإعلان إمارة الظهور، ليس في البصرة ولكن في الأمصار الأخرى البعيدة عن مركز السلطة المركزية والتي كان أبو عبيدة يرى من قبل، أن أي نجاح لدعوته ستكون في الأمصار النائية، ولذا فقد ركز جهوده وجهود دعاة على سكان تلك الولايات الواقعة على أطراف الإمبراطورية الإسلامية.

كانت خطة أبي عبيدة مختلفة مع خطط كل ما سبق من ثورات وحركات وكانت ترمي إلى إقناع المتطرفين من أصحابه بأنه ليس أقل حماساً منهم للوصول إلى الهدف الأسمى، ولكن بعد التأكد من أن الأمر قد أعد له الإعداد الكافي والضروري، وتبعاً لذلك قرر أبو عبيدة أن يعزل نفسه

(1) يجدر بالذكر أن المصادر غير الإباضية لا تلمس هذه العلاقة بين المهالبة والأزد، وبين الحركة الإباضية، ولعل السبب في ذلك يعود إلى جهل هذه المصادر بطبيعة العلاقة بين الطرفين بل وبالحركة الإباضية بشكل عام في تلك الفترة السرية من مراحل تطورها.

(2) أنظر فوق ص 98.

(3) شماخي، سير، ص 84، 88، الحارثي، ص 142.

(4) الدرجيني، ورقة 108، شماخي، سير، ص 88، 95، 97، السالمي، اللعة المرضية، ص 185.

وأصحابه قدر الإمكان عن بقية المسلمين (المخالفين) ويكون ما يمكن أن نسميه تجوراً «المجتمع المغلق»، والذي أطلق عليه جماعة المسلمين، وحذر أصحابه وأتباع دعوته من التعامل مع الولاة والحكام، وطلب منهم عدم قبول أي منصب وتناول أي مال منهم، وعلى الرغم من أن هذه الأمور كان مسموحاً بها في زمن سلفه جابر بن زيد فإن أبا عبيدة وجد من الضروري في هذه المرحلة اتخاذ مثل هذه الإجراءات حتى يحافظ على سرية الحركة، ويمنع الإغراءات لبعض أتباع الدعوة، ليس هذا فحسب بل أن أبا عبيدة لم يحبذ التزاوج بين أتباع الدعوة وبقية المسلمين، ومع أن هذا الأمر مشروع في العقيدة الإباضية إلا أن الإمام فعل ذلك من قبيل المحافظة على عدم اختلاط أهل الدعوة مع غيرهم ومنع تسرب أية معلومات عن نشاطاتهم وتحركاتهم، بل وسلوكهم وتعاملهم فيما بينهم، وتشير الرواية الإباضية إلى أن أبا عبيدة هجر أحد أتباعه لأنه زوج انتة لرجل غير إباضي بينما سمح جابر بن زيد من قبل بمثل ذلك⁽¹⁾، على أنه يجب أن لا يغيب عن البال أن هذا الإجراء كان مؤقتاً قبل إعلان إمامة الظهور ولم يكن قاعدة فقهية يجب اتباعها والأخذ بها في كل الظروف، وجدير بالذكر أن الإباضية في مرحلة الكتمان يجيزون بعض الأمور مثل تعطيل الأحكام وعدم إقامة الحدود لأنهم -طبقاً لوجهة نظرهم- ليسوا يف وضع يسمح لهم بتنفيذ هذه الأمور.

بالإضافة إلى هذه التنظيمات فقد خلق أبو عبيدة من أتباعه مجتمعاً تسوده المودة والمحبة والإخاء في العقيدة وتسيطر عليه روح الجماعة، وكان يحثهم على التآلف والتعاون فيما بينهم، كما طلب من الأغنياء أن يكونوا عوناً للفقراء، وسنداً لهم حتى لا يضطر الفقير من جماعته لاحتياج أحد من المخالفين، وقد لبي الأثرياء منهم هذا الطلب بحماس منقطع النظير⁽²⁾، وتورد المصادر الإباضية أمثلة كثيرة تشير فيها إلى تنافس الأغنياء منهم في سد حاجة الفقراء وإعطائهم، يقول أبو سفيان مدلاً على ذلك: «سمعت بعض مشايخ من أدركت يقولون: إنا لنذكر إذا دخل شعبان أن كان الفقراء من المسلمين (الإباضية) لتأتيهم الأحمال بالسويق والتمر وما يصلحهم لشهر رمضان، ولا يعلمون من بعث بها.. يأتي لرجل بالجمال حتى يقف به على باب الدار فيقول: أدخل/ فيكتب في خرقة كلوا وأطعموا»⁽³⁾، ويروى أن شخصاً من الإباضية يدعى ديال بن يزيد «كان يستأجر الأكسية في البرد الشديد.. بألف درهم أو أقل أو أكثر وليس عنده منها شيء، وإنما يتكل على الله ثم على المسلمين (الإباضية) ثم يفرقها بين الفقراء ويجمع ثمنها بعد ذلك من أغنياء الإباضية وكرمائمهم⁽⁴⁾، وكان الداعية الإباضي أبو الحر موسراً جداً وتأتيه غلته سنوياً «فيقسمها نصفين فيفرق نصفها في فقراء المسلمين (الإباضية) وفي معاونتهم»⁽⁵⁾، ليس هذا فحسب بل أن أغنياء الإباضية كانوا يتسابقون في دفع الديون المتبقية على من يموت من أصحابهم، يوقل أبو سفيان: «مات حاجب وعليه دين مئتان وخمسون ألفاً أو أكثر (دراهم) قال: فدخل قرة بن عمر وجماعة من المسلمين ليغسلوه.. فقال لهم قرة: يا قوم: ما تقولون في دين هذا الرجل؟ فابتدر ثلاثة رجال وقررة رابعهم وضمنوا دينه، ودخل الفضل بن جندب وكان من خيار المسلمين (الإباضية) وكان موسراً فأخبروه، فقال لهم الفضل: دينه على دونكم حتى أعجز عنه ولا يبقى لي مال»⁽⁶⁾.

(1) شماخي، سير، ص13.

(2) المصدر نفسه، ص113-114.

(3) المصدر نفسه، ص114.

(4) المصدر نفسه، ص114.

(5) المصدر نفسه، ص101، أنظر مزيداً من الأمثلة حول هذا الموضوع في المصادر التالية: الدرجيني، ورقة 105، 107، 115، شماخي،

سير، ص101، 113-115.

(6) الدرجيني، ورقة 105، شماخي، سير، ص106.

ولم يغفل أبو عبيدة ومشايخ الإباضية في البصرة عن أتباعهم في الأمصار الأخرى وخاصة أنهم يحتاجون بشكل دائم إلى المساعدات المالية والمعنوية حتى يستطيعوا الصمود، ولكي يستعدوا بشكل فعال للوقوف في وجه أي خطر يتهددهم، أضف إلى ذلك فإن جماعات الإباضية خارج البصرة كانت في بعض الأحيان تواجه بعض المشاكل الطارئة، ولا بد لحل هذه المشاكل من الرجوع إلى أئمة البصرة ومشايخها، ومن هنا فقد برزت الحاجة لإيجاد نوع من التنظيم يتولى الإشراف على كل هذه الأمور ويضمن للدعوة باستمرارها وتطورها، ويهيئ لها بالتالي سبل النجاح والنصر، ولتحقيق ذلك أنشأ أبو عبيدة في البصرة ما يمكن أن نسميه بالحكومة الثورية السرية، وكان هو زعيمها وله الكلمة العليا في الشؤون الدينية من فتوى وقضاء وتدريب الدعاة وحملة العلم الذين يرسلون للأمصار⁽¹⁾، وأنشأ بيت مال خاص بجماعة المسلمين (الإباضية) في البصرة، ووكّل حاجب الطائي مهمة الإشراف على الشؤون المالية والعسكرية وشؤون الدعوة⁽²⁾، وقد كان أبو عبيدة ذكياً في الربط بين الناحيتين المالية والعسكرية ووضعها في يد رجل واحد قدير، وذلك لأن موارد بيت مال الفرقة كانت تستخدم لمساعدة الدعاة والثوار الإباضية في المناطق البعيدة، وكانت موارد بيت المال تأتي من مصدرين: الأول عبارة عن ضريبة فرضها الإمام على أتباعه في البصرة، ولا تذكر المصادر متى كانت تدفع ولا مقدارها، ولكن من الثابت أنها لم تكن تفرض بالتساوي بل تتفاوت حسب ثراء المكلف ودخله، ولا تذكر المصادر أن أحداً من الإباضية قد تخلف عن دفعها لأنها تعتبر في نظرهم جزءاً من واجباتهم الدينية التي ستساعد على انتصار دعوتهم التي تمثل في اعتقادهم الإسلام الحق كما كان موجوداً زمن الرسول p وفي عهد الخليفين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ويبدو أن هذه الضريبة كانت تجمع عند الحاجة، يقول أبو سفيان: «لما خرج الإمام عبدالله بن يحيى (طالب الحق) ووجه أبا حمزة المختار بن عوف (لقتال الأمويين) قام حاجب فجمع له أموالاً كثيرة ليعينه بها فكتب على كل موسر قدر ما يرى.. فما امتنع عليه أحد»⁽³⁾، أما المورد الثاني لبيت المال فكان يأتي من التبرعات السخية التي يدفعها أثرياء الإباضية، ويبدو أن التجار منهم كانوا يتحملون النصيب الأكبر في هذا الشأن، ومعروف أن عدداً من التجار الإباضية كانوا من الأغنياء المعدودين، وكانت تجارتهم تتجاوز البصرة وما جاورها وتصل إلى الصين والشرق الأقصى، ومن هؤلاء التجار نذكر على سبيل المثال النظر بن ميمون وأبو عبيدة عبدالله بن القاسم والفضل بن جندب وغيرهم⁽⁴⁾، ولم تقتصر هذه التبرعات على الأغنياء من الإباضية بل تعدت إلى بقية الناس من أهل الدعوة رجالاً ونساء، وأوساط الناس لأنه لا يريد أن يكتب عليهم ضريبة، «فانطلق أبو طاهر فيمن أطلق معه من المسلمين، فلم يأتوا يوماً امرأة ولا رجلاً إلا وجدوه مسرعاً فيما سألوه، وكان رجل من المسلمين لم يكن يرى أنه صاحب مال فدفع إليهم ثلاثة آلاف درهم، فلم تمس الليلة حتى جمع أبو طاهر عشرة آلاف درهم»⁽⁵⁾.

(1) الدرجيني، ورقة 106-105.

(2) الدرجيني، ورقة 105، 106، 110.

(3) الدرجيني، ورقة 110.

(4) الدرجيني، ورقة 105، 107، 115، شماخي، سير، ص103.

(5) الدرجيني، ورقة 110، شماخي، سير، ص114-115.

الباب السابع

الفصل الأول

انتصار الدعوة

تأسيس الإمامة في الجزيرة العربية – حضرموت واليمن

نتيجة لهذا التنظيم وتتويجاً لنشاط حملة العلم المتحمسين في الأمصار فقد شهدت الدعوة الإباضية في النصف الأول من القرن الثاني الهجري بعض الانتصارات وأسست إمامات خاصة بها في جنوب الجزيرة العربية وشمال أفريقية، ويبدو أن أئمة الإباضية قد استغلوا الظروف التي تمر بها الدولة الإسلامية إبان حكم مروان الثاني، آخر خلفاء بني أمية وأوعزوا إلى اتباعهم في الأمصار لإعلان التمرد وبدء الثورة ضد الحكم القائم، فقد مرت الدولة الأموية في تلك الفترة بمرحلة عصيبة، وشغلت بقمع ثورات مختلفة في أنحاء متعددة من الدولة، ومن ضمنها بلاد الشام التي كانت، قبل ذلك، تكون العمود الفقري للسلطة الأموية، وقد ساعد انقسام البيت الأموي على نفسه في قيام مثل هذه الحركات وشجع أحزاب المعارضة، على اختلافها وتفرعها وتنوعها على انتهاز الفرصة أملاً في الوصول إلى ما تصبو إليه، وأعلن العباسيون ثورتهم في المشرق واضطر الخليفة لتوجيه قواته للوقوف في وجه هذا الخطر الرامي لتفويض حكم الأسرة الأموية تاركاً المناطق النائية تواجه مصيرها وتحل مشاكلها دون مساعدة تذكر من السلطات المركزية، وكان من بين هذه المناطق حضرموت واليمن حيث كان الدعاة الإباضية يقومون بنشاط واسع هناك منذ وقت مبكر، وقد ساعد تدمير السكان في تلك المنطقة من سياسة الولاة هناك على انتشار الدعوة الإباضية بشكل واسع وسريع، فقد خضعت اليمن وحضرموت لحكم قيسي ثقيي مستمر منذ أيا عبد الملك بن مروان⁽¹⁾، وقد اتبع الولاة الثقفيون سياسة مالية جائرة ضد السكان اليمنيين وأثقلوا كاهلهم بالضرائب الإضافية، وقد ألغى عمر بن عبدالعزيز هذه الضرائب الإضافية ولم يلبث أن أعيد فرضها بعد وفاته، مما أدى إلى بعض الثورات في بداية القرن الثاني الهجري ولكنها قمعته بشدة وعنف، وقد كان الثوار من الخوارج، ولكن المصادر لا تذكر الفرقة التي ينتمون إليها⁽²⁾، وربما كانوا من الإباضية الذين اختاروا الشراء على القعود والانتظار، وجدير بالذكر أن الإباضية في مرحلة الكتمان كانوا يجيزون الشراء إذا اتفقت طائفة منهم لا يقل عددها عن أربعين رجلاً على إعلان الثورة شريطة أن يختاروا لأنفسهم إماماً من بينهم يدعى إمام الشراء، ويقودهم في عصيان مسلح ضد السلطة القائمة كما فعل مرداس بن أدية وأصحابه الذين ثاروا على الشراء في عام 61هـ وقتلوا جميعاً⁽³⁾.

في ظل هذه الظروف كان الدعاة الإباضية يجوبون المنطقة يدعون إلى مذهبهم ويؤلبون السكان ضد الحكم القائم، وتولى الدعوة في حضرموت واليمن بعض الأشخاص المشهورين بالعلم من أهل البلاد الذين يتمتعون بالعصبية القوية والكلمة النافذة، وعلى رأسهم عبدالله بن يحيى المشهور بطالب الحق والذي ينتمي إلى قبيلة كندة الحضرمية القوية، ووائل الحضرمي وهو من مشاهير علماء الإباضية البارزين ومن تلاميذ أبي عبيدة النجباء، ولا تسعفنا المصادر المتوافرة في

(1) باستثناء فترة قصيرة جداً لا تزيد على بضعة أشهر كان الوالي فيها مسعود بن عوف الكلبي وكان ذلك عام 106هـ.

(2) بلاذري، أنساب، ج2، ص262-263.

(3) أنظر فوق ص70.

تحديد الوقت الذي وصلت فيه الدعوة الإباضية إلى تلك المناطق، ومن المحتمل أنها تسربت إلى تلك البقعة في وقت مبكر وخاصة أن أئمة الإباضية في البصرة قد أعاروا المناطق النائية الواقعة على أطراف الإمبراطورية الإسلامية عناية خاصة⁽¹⁾.

تزعّم الدعوة الإباضية في حضرموت طالب الحق السالف الذكر الذي يبدو أنه كان يتمتع بمؤازرة قبيلته كندة، وأصبحت السند القوي للدعوة الإباضية في تلك المنطقة، وقد ساعدت الأحوال السيئة التي كان يعاني منها السكان المهمة التي كان يقوم بها طالب الحق وأعوّانه من أهل دعوته، وتؤكد المصادر السنية والإباضية والشيعية على رغبة الناس في التخلص من عسف الولاة النقيبين الذين حكموا البلاد بيد من حديد وبروح قبلية حاكمة مخالفة للمبادئ الإسلامية⁽²⁾.

وتدعي بعض المصادر السنية أن طالب الحق لم يكن إباضياً في الأصل⁽³⁾، إنما التقى عرضاً في موسم الحج عام 128هـ، بأبي حمزة الشاري الذي كان يدعو لمذهب الإباضية فأعجب طالب الحق بدعوة أبي حمزة ودعاه إلى مرافقته إلى حضرموت ففعل، وهناك بايع أبو حمزة طالب الحق بالخلافة ودعا معه إلى محاربة مروان الثاني، آخر خلفاء بني أمية، وأغلب الظن أن هذه الرواية غير صحيحة للأسباب التالية:

1- جرت العادة عند مشايخ الإباضية في البصرة أن لا يعينوا أحد أتباعهم إماماً أو رئيساً لدعوتهم إلا بعد تدريب دقيق وإعداد كاف، ومن غير المحتمل أن يبايع أبو حمزة، المختار بن عوف الأزدي، لطالب الحق بالخلافة لمجرد التقائه به في مكة ولمدة قصيرة جداً، أضف إلى ذلك أن أبا حمزة نفسه لم يكن إلا داعية فقط لا يخرج عن أوامر وإرشادات أئمة في البصرة، فمن غير المعقول أن ينفرد بمثل هذا الأمر الخطير ويبايع لشخص لم يكن له ماض عريق في الدعوة دون الرجوع إلى مركز الدعوة في البصرة، وخاصة أن المصادر الإباضية لا تصنف أبا حمزة مع رؤساء الإباضية البارزين الذين لهم الحق في اتخاذ مثل هذه القرارات الحاسمة دون التشاور مع الأئمة والمشايخ في البصرة.

2- أن التقاء طالب الحق بأبي حمزة المختار بن عوف الأزدي في موسم الحج غير كاف لأن يجعل من طالب الحق عالماً وفقهياً وعارفاً بأصول المذهب الإباضي، وهذه شروط ضرورية يجب أن تتوافر في الشخص المبايع له.

3- أن المصادر الإباضية وبعض المصادر الأخرى تجمع على أن المختار بن عوف الأزدي ومن قدم معه من إباضية البصرة قد أرسلوا إلى حضرموت من قبل أبي عبيدة لمساعدة طالب الحق الذي كان آنذاك إباضياً ويدعو للمذهب في حضرموت قبل وصول أبي حمزة إلى حضرموت إلا بعد أن أشار طالب الحق على أبي عبيدة بأن الوقت قد حان لإعلان الثورة، فسمح له أبو عبيدة بذلك ثم أرسل إليه المعونة البشرية والمادية وعلى رأسها أبو حمزة السالف الذكر⁽⁴⁾.

4- لقد جرت عادة الإباضية منذ وقت مبكر أن لا يبايعوا لأحد بالإمامة إلا إذا أشار عليهم بذلك رؤساؤهم في البصرة، أو بموافقة ستة من علماء الإباضية المعروفين بالعلم الغزير والفهم الكبير، تقليداً لما فعله عمر بن الخطاب عندما عين ستة من كبار الصحابة لاختيار واحد

(1) في الواقع أن نشاط الدعاة في الفترة السرية قد تركز في المناطق البعيدة عن مركز الخلافة مثل اليمن وعمان والمغرب.

(2) بلاذري، أنساب، ج2، ص373، أبو الفرج، الأغاني، ج2، ص97-98، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة، 34، الدرجيني، ورقة 110.

(3) الأزدي، ص77، الطبري، س2، ص1492-1493، ابن الأثير، ج5، ص351.

(4) الدرجيني، ورقة 110، الأزكوي، ورقة 270، بلاذري، أنساب، ج2، ص373.

منهم خليفة للمسلمين، وربما أن الأمر لم يحدث فإن الأول هو الذي حدث بالفعل وأن طالب الحق كان مرسلًا من عند إباضية البصرة.

تبعاً لما تقدم فإن الباحث يعتقد أن طالب الحق كان في الأصل إباضياً وكان يدعو لمذهبه سرّاً في حضرموت حتى لا يتعرض لأذى من الولاة القيسيين هناك، ولذلك فإن المصادر غير الإباضية قد أغفلت ذكره قبل إعلان ثورته عام 129هـ، وخاصة أن تلك المصادر كانت تجهل التنظيم الإباضي في تلك المرحلة وفي تلك المنطقة، وأول إشارة في المصادر غير الإباضية عن نشاط طالب الحق الداعية في حضرموت، ترد عندما أرسل طالب الحق إلى أبي عبيدة يخبره بالظلم الذي حل بالناس على أيدي الولاة.

وعلى أية حال فيبدو أن رسالة طالب الحق جاءت في الوقت المناسب والدولة الأموية في طريقها إلى الانهيار في أواخر العقد الثالث من القرن الثاني الهجري، ولذا فإن أبا عبيدة قد أمر صاحبه في حضرموت بالتحرك في أسرع وقت ممكن، وكتب إليه يقول: «إن استطعت أن لا تقيم يوماً واحداً فافعل، فإن المبادرة بالعمل الصالح أفضل، وإنك لا تدري متى يبلغ أجلك، والله خيرة في عبادته، يبعثهم إذا شاء لنصر دينه، ويخصهم بالشهادة إكراماً لهم بها»⁽¹⁾، وأوصاه أيضاً بالسيره الحسنة والسلوك الطيب، وقال: «إذا خرجتم فلا تغلوا ولا تعتدوا، واقتدوا بأسلافكم الصالحين، واستتوا بسنتهم، فقد علمتهم إنما أخرجهم على السلطان العيب لأعمالهم»⁽²⁾، ثم بعث أبو عبيدة ومشايخ الإباضية في البصرة بالمال والسلاح معونة لطالب الحق كما سار إليه بعض إباضية البصرة لمساعدته وعلى رأسهم المختار بن عوف الأزدي المعروف بأبي حمزة الشاري، وبلج بن عقبة وغيرهم⁽³⁾، ولا تشير المصادر إلى عدد الإباضية الذين قدموا من البصرة لمساعدة طالب الحق، ويبدو من الروايات أن عددهم لم يكن قليلاً، فالمدائني⁽⁴⁾ يذكر أن أبا حمزة المختار بن عوف وبلج بن عقبة قد قدما في رجال من الإباضية لنصرة إخوانهم في العقيدة، أما رواية الأزدي فتعتبر أكثر وضوحاً في إشارتها إلى كثرة عدد إباضية البصرة الذين اشتركوا في حركة طالب الحق، إذ تشير الرواية إلى أن الإباضية «اجتمعت إلى طالب الحق، وجاء إليه خلق من أهل لابصرة»⁽⁵⁾، وقد بالغ خليفة بن خياط عندما أورد رواية ذكر فيها أن عامة جيش طالب الحق كان من أهل البصرة⁽⁶⁾، وأياً كان الصحيح في هذه الروايات فإنها كلها تؤكد على أن مجموعة من إباضية البصرة يقودهم أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي، قد هبوا لمساعدة إخوانهم في حضرموت.

بدأ طالب الحق ثورته في عام 746/129م بالاستيلاء على حضرموت دون مقاومة تذكر، وقبض على واليها إبراهيم بن جبلة بن مخرمة الكندي، وزد به في السجن، ولم يلبث أن أطلق سراحه ولحق بسيد القاسم بن عمر الثقفي في صنعاء⁽⁷⁾، ويبدو أن الإباضية قد أطلقوا سراحه ليظهروا للناس مدى تسامحهم وعدم تعطشهم لسفك الدماء وتعذيب الناس، والاهم من ذلك أن الإباضية أرادوا كسب ود قبيلة كندة التي ينتمي إليها الوالي المذكور، وكان معظم أنصار طالب الحق في البداية من بين رجال هذه القبيلة الحضرمية، بعد الاستيلاء على حضرموت وطرد واليها قام الإباضية بداعية نشطة لحركتهم بين القبائل العربية وانضم إليهم عدد كبير من الناس وجمع

(1) بلاذري، أنساب، ج2، ص373، أبو الفرج، الأغاني، ج2، ص97، الأزكوي، ورقة 270.

(2) بلاذري، أنساب، ج2، ص371، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 32، أبو الفرج، الأغاني، ج2، ص97.

(3) بلاذري، أنساب، ج2، ص373، أبو الفرج، الأغاني، ج2، ص97، الدرجيني، ورقة 110، الأزكوي، ورقة 270-271.

(4) بلاذري، أنساب، ج2، ص373، (عن المدائني).

(5) الأزدي، ص77.

(6) خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص582.

(7) بلاذري، أنساب، ج2، ص373، الأزدي، ص77، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص582.

كثير⁽¹⁾، ولعل مبايعته بالإمامة قد جرت في تلك الفترة ولقبه أصحابه طالب الحق، بعد ذلك قرر السير إلى صنعاء وكتب إلى من كان بها من الإباضية يستنهضهم ويطلب منهم الاستعداد واليقظة التامة ويخبرهم بأنه قادم عليهم⁽²⁾، ثم استخلف عبدالله بن سعيد الحضرمي على حضرموت وسار على رأس ألفين من أصحابه متوجهاً إلى صنعاء⁽³⁾.

ولما علم الوالي الثقفي بأنباء سير الإباضية إليه أخذ يستعد للقائهم وجمع جيشاً ضخماً يصفه البلاذري بأنه «كان ذا عدد كبير وعدة ظاهرة»⁽⁴⁾، بينما تذكر مصادر أخرى أن عدد هذا الجيش بلغ ثلاثين ألف رجل⁽⁵⁾، وعلى الرغم من المبالغة الواضحة في عدد هذا الجيش إلا أنه بالتأكيد كان أكثر عدداً وعدة من الجيش الإباضي.

قرر القاسم الثقفي ملاقاته الجيش الإباضي خارج صنعاء، ويبدو أنه كان معتداً بقوته وعسكره الكثير ولم يتخذ الإجراءات والخطط الكفيلة بنجاح حملته فهزم وعاد إلى صنعاء حيث لحق به طالب الحق وهزمه مرة أخرى، فهرب مع بعض جنده في بلاد الشام واستولى الإباضية على المدينة⁽⁶⁾، وتشير المصادر سنية وإباضية وشيعية إلى أن طالب الحق وأعوانه الإباضية قد عاملوا السكان معاملة حسنة ولم يتعرضوا لأحد بأذى⁽⁷⁾، وتورد بعض المصادر⁽⁸⁾ الخطبة التي ألقاها طالب الحق في أهل صنعاء، والتي تبين بوضوح بعض آراء الإباضية في تلك الفترة المبكرة وقد خير الناس فيها بين ثلاث خصال أيها شاءوا فليأخذوا بها:

1- أن يتبنوا الأفكار والآراء الإباضية ويجاهدوا مع أتباعها، وفي هذه الحالة يتساوون في الحقوق والواجبات مع إخوانهم الذين سبقوهم إلى هذا الأمر، «ويكون لهم من الأجر ما لأفضلهم ومن قسمة الفيء ما لبعضهم».

2- من قال بقولهم ولم يجاهد معهم فعليه أن يدعو إلى هذا الرأي بقلبه ولسانه، ولم تذكر الخطبة حقوقاً معينة لمثل هؤلاء الأتباع.

3- أن يلزم من لا يقبل هذين الشرطين الحياد على الرغم من معارضته للمبادئ الإباضية، وفي هذه الحالة لن يتعرض له أحد بأذى، وهذا ما عبر عنه طالب الحق بقوله: «ومن كرهننا فليخرج بأمان إلى ماله وأهله، ويكف عنا يده ولسانه، فإن ظفرنا لم يكن عرض لنا نفسه، ولم يحملنا على سفك دمه»⁽⁹⁾.

وحتى يتقرب من الناس ويؤلف قلوبهم فقد قام طالب الحق بتوزيع ما استولى عليه من خزائن وأموال بين الناس في صنعاء وخاصة الفقراء منهم⁽¹⁰⁾، وبقي في صنعاء عدة أشهر يسوس الناس بالعدل ويدعو إلى آرائه وبمبادئه بالمعروف والموعظة الحسنة حتى «كثر جمعه وأتوه (الناس) من كل وجه»⁽¹¹⁾، وفي موسم الحج من عام 129 هـ بعث طالب الحق قائده المشهور

(1) بلاذري، أنساب، ج2، ص373.

(2) بلاذري، أنساب، ج2، ص373، أبو الفرج، الأغاني، ج2، ص97.

(3) بلاذري، أنساب، ج2، ص373، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص582، يذكر الشماخي أن عددهم كان 1600 رجل فقط، أنظر الشماخي، سير، ص99.

(4) بلاذري، أنساب، ج2، ص373.

(5) خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص582-583، الأزدي، ص110، شماخي، سير، ص99.

(6) بلاذري، أنساب، ج2، ص374، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص583، شماخي، سير، ص99، الأزكوي، ورقة 270-271.

(7) بلاذري، أنساب، ج2، ص374، شماخي، سير، ص99، أبو الفرج، الأغاني، ج2، ص98.

(8) بلاذري، أنساب، ج2، ص374، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 34.

(9) بلاذري، أنساب، ج2، ص374.

(10) شماخي، سير، ص99.

(11) بلاذري، أنساب، ج2، ص375.

المختار بن عوف الأزدي المعروف بأبي حمزة الشاري، يرافقه بلج بن عقبة وأبرهة بن الصباح الحميري، على رأس قوة عسكرية إلى مكة للاستيلاء عليها، وأصدر أمره بأن يتوجه بلج بن عقبة بعد ذلك إلى الشام لمحاربة مروان الثاني وإسقاط الخلافة الأموية لتحل محلها الإمامة الإباضية⁽¹⁾.

وافى أبو حمزة الشاري مكة في موسم الحج وانضم إليه إباضية الحجاز بزعامه الفقيه والداعية الإباضي، أبي الحر علي بن الحصين، الذي كان يدعو للإباضية سرّاً في الحجاز ويعقد مجالسة الخاصة لهذا الغرض يومي الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويقدر عدد أتباعه الذين انضموا إلى جيش أبي حمزة الشاري نحو 400 رجل⁽²⁾.

فوجئ والي الحجاز آنذاك، عبدالواحد بن سليمان بن عبدالملك، بظهور الإباضية على جبل عرفات في الوقت الذي كان الحجيج يؤدون مناسكهم على نفس الجبل⁽³⁾ ولم يجد عبدالواحد بدا من التفاوض معهم وخاصة أنه لم يكن مستعداً من الناحية العسكرية لمثل هذا الحدث في تلك الظروف، واتفق الطرفان -بعد تبادل الوفود- على أن يتجنب الفريقان الصدام في أيام الحج وأن يترك عبدالواحد مكة ويخليها إلى أبي حمزة الشاري فور الانتهاء من أداء مناسك الحج، وفعلاً خرج عبدالواحد من مكة في العاشر من ذي الحجة عام 129 هـ، ودخل الإباضية مكة بدون قتال⁽⁴⁾، ثم سار أبو حمزة إلى الطائف واستسلمت له دون عناء، وأمن الناس على حياتهم وأموالهم وأعلن أنه لن يتعرض لأحد بأذى إلا إذا بدأهم بالعدوان⁽⁵⁾، أثناء ذلك كتب والي عبدالواحد بن سليمان إلى الخليفة مروان الثاني يخبره بالغزو الإباضي للحجاز، ويعتذر له عن خروجه من مكة المكرمة، فغضب الخليفة وعزله عن الولاية وعين بدلاً منه بعد العزيز بن عمر بن عبدالعزيز وأمره أن يعد العدة ويحزم أمره لاسترجاع مكة من أيدي الإباضية، وامتنل عبدالعزيز لأمر الخليفة وجهاز جيشاً قوامه ثمانية آلاف رجل جلهم من قریش والأنصار وبعض التجار الذين لا علم ولا دراية لهم بالحرب وفنونها، وجعل قيادة هذا الجيش لعبد العزيز بن عبدالله بن عمرو بن عثمان بن عفان، وبذلك لم يكن موفقاً في اختيار عناصر الجند ولا في اختيار القائد الذي ينتمي إلى عثمان بن عفان الذي يعتبره الإباضية ظالماً مخالفاً تجب البراءة منه⁽⁶⁾.

التقى الإباضية مع الجيش الأموي في معركة قديد في صفر من عام 130 هـ، وانتهت المعركة بهزيمة الجيش الأموي وأهل المدينة بعد أن فقدوا كثيراً من رجالهم⁽⁷⁾، وعلى غير عادة الإباضية فقد قام أبو حمزة الشاري بقتل الأسرى القرشيين بينما أطلق سراح الآخرين من الأنصار والقبائل الأخرى⁽⁸⁾، ولعل سبب ذلك يعود إلى التنافس القبلي الذي ظهر منذ فترة مبكرة بين القبائل

(1) بلاذري، أنساب، ج2، ص375، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص583، شماخي، سير، ص99، تختلف المصادر حول عدد الجيش الذي قادة أبو حمزة الشاري وتتراوح الأرقام التي توردها بين 700 و10000 رجل، ومن الصعب على المرء أن يقرر، في ضوء هذا التناقض الكبير، عدد جند أبي حمزة، ويبدو لي أن عدده لم يكن قليلاً وإلا فكيف يرسله طالب الحق للاستيلاء على الحجاز ويأمر أحد قواده بالتوجه إلى بلاد الشام ومحاربة الأمويين في عقر دارهم؟

(2) الدرجين، ورق 110-111، شماخي، سير، ص100-101.

(3) بلاذري، أنساب، ج2، ص375، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص583، الدرجيني، ورقة 111.

(4) بلاذري، أنساب، ج2، ص375، الطبري، ج7، ص375، الدرجيني، ورقة 111.

(5) بلاذري، أنساب، ج2، ص375، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص592.

(6) بلاذري، أنساب، ج2، ص377-378.

(7) بلاذري، أنساب، ج2، ص378، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص592-593، ابن الأثير، ج2، ص388-389، الدرجيني، ورقة 110، شماخي، سير، ص100-101، الأزكوي، ورقة 371.

(8) بلاذري، أنساب، ج2، ص378.

العربية وقریش التي احتكرت السلطة لنفسها منذ وفاة الرسول p وهذا يخالف مبدأ الإباضية في الإمامة الذي لا يعير اهتماماً لنسب الخليفة العرقي أو القبلي⁽¹⁾.

وصلت أنباء معركة قديد ودخول الإباضية المدينة المنورة إلى أسمع الخليفة مروان الثاني الذي قرر أن يضع حداً لانتصارات الإباضية فإنفاد جيش شامي لقتالهم، فجمع أربعة آلاف من أشجع رجاله وأعطى لكل منهم فرساً وبغلاً لحمل ثقله ومائة دينار، زيادة على عطائه، وكان معظم الجيش يتكون من القبائل القيسية، وبذلك أراد مروان أن يضرب الإباضية ومعظمهم من القبائل اليمانية برجال من القبائل القيسية الموالين لبني مروان⁽²⁾.

سار الجيش الشامي الأموي يقوده عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي القيسي صوب الحجاز، ولما علم الإباضية بذلك أرسل أبو حمزة قائده بلج ابن عقبة الأزدي لملاقاة الشاميين، وتقابل الجمعان في وادي القرى وهزم الإباضية شر هزيمة وقتل منهم عدد كبير⁽³⁾.

وجد أبو حمزة الشاري أن لا قبل له بمواجهة الجيش الشامي بعد هذه الهزيمة التي أصابت جنده، وقرر ترك المدينة والعودة إلى مكة وذلك لأن أهل المدينة كانوا أكثر عداً له لما أصابهم على يده من مقتل في معركة قديد، اثنا ذلك تقدم الجيش الشامي واحتل وقتل من بها من الإباضية وكانوا بزعامه رجل يسمى المفضل، وقد تعاون أهل المدينة والجند الشامي على الفتك بهم⁽⁴⁾، سار عبد الملك بعد ذلك إلى مكة للقضاء على من تجمع بها من الإباضية واشتبك معهم في عام 130هـ/747م في معركة ضارية هزم فيها الإباضية وقتل قائدهم أبو حمزة الشاري في جماعة من زعماء أتباعه على رأسهم أبو الحر علي بن الحصين فقيه الإباضية في مكة، وأسر أربع مائة إباضي أمر القائد الأموي بقتلهم جميعاً، وفر من تبقى من الإباضية والتحقوا بالإمام طالب الحق الذي كان آنذاك يتأهب للسير للقاء أهل الشام⁽⁵⁾.

خرج طالب الحق من صنعاء للقاء عبد الملك بن محمد بن عطية الذي سار بدوره إلى اليمن للاستيلاء عليها بعد أن أعاد ضم المدن الحجازية إلى الإدارة الأموية، والتقى الطرفان في مكان بين مكة وصنعاء⁽⁶⁾، وهزم الإمام طالب الحق ولاقى حقه في المعركة كما قتل عدد كبير من أتباعه، وسار ابن عطية حتى أتى صنعاء وأعاد ضم اليمن لسلطان الأمويين⁽⁷⁾، ولم يلبث الإباضية أن تجمعوا حول يحيى بن عبد الله بن عمرو بن السيق الحميري الذي انتخبوه إمام دفاع لهم، فبعث إليهم عبد الملك حملة بقيادة ابن أخيه عبد الرحمن بن يزيد والتقى مع الإباضية في معركة قاسية لا تذكر المصادر موقعها ولكنها لم تنته إلى نتيجة حاسمة رغم مقتل عدد كبير من الطرفين، ورجع عبد الله إلى صنعاء بينما التجأ يحيى بن عبد الله وأتباعه من الإباضية إلى عدن، فسار إليهم عبد الملك بنفسه على رأس جيش كبير ضم عدداً من أهالي صنعاء الموالين للحكم الأموي، وتلقى الطرفان في أحد

(1) من نظرية الإباضية في الإمامة أنظر: الشماخي، شرح مقدمة التوحيد، ورقة 16-17، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 25-26، مختصر الخصال، ورقة 70، 71، الصانغي، ورقة 180 وما بعدها.

See also Wilkinson, "the Ibadi imamma." BSOAS, Vol. 39, pp. 335ff.

Rubinacci, "The Ibadis," Religion in the middle East, Vol. 2 p.302-17.

(2) بلاذري، أنساب، ج2، ص378، الطبري، ج17، ص398-399.

(3) بلاذري، أنساب، ج2، ص380.

(4) المصدر نفسه.

(5) بلاذري، أنساب، ج2، ص381، الدرجيني، ورقة 110-111، الأزكوي، ورقة 278، 279، الطبري، ج7، ص399، المسعودي، مروج، ج6، ص66-67، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص596، يجدر بالذكر أن خليفة بن خياط هو المصدر الوحيد الذي يعطي أرقاماً كبيرة لعدد الجيش الإباضي.

(6) النقي في تبالة وتقع تهامة على طريق اليمن، أو في جرش وهي قريبة من مكة على الطريق إلى اليمن أيضاً.

(7) بلاذري، أنساب، ج2، ص381-382، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص596، المسعودي، مروج، ج6، ص67، الأزكوي، ورقة 279.

أودية عدن حيث أوقع عبد الملك بالإباضية هزيمة منكرة وقتل قائدهم وإمام دفاعهم يحيى بن عبد الله الحميري⁽¹⁾.

بعد هذه الهزيمة تولى يحيى بن كرب (حرب؟) الحميري قيادة الإباضية، لكن لم يلبث أن هزم في معركة قرب ساحل البحر العربي على أيدي القوات الأموية⁽²⁾، فمضت الإباضية بعد ذلك إلى المناطق الداخلية من حضرموت وعلى رأسهم عبد الله بن سعيد الحضرمي، الذي يبدو أنه انتخب إمام دفاع لهم، وانضوى تحت إمرته القائد السابق يحيى بن كرب (حرب؟) الحمير السالف الذكر⁽³⁾، فشخص عبد الملك بن عطية إلى الإباضية أملاً في القضاء عليهم في آخر معاقلهم، واستعد الإباضية لهذا اللقاء المرتقب وتجمعوا من أنحاء مختلفة من حضرموت في محاولة أخيرة لحماية أنفسهم من بطش الجيش الأموي، وتذكر الروايات أن جماعات من كندة ونهد وهمدان قد احتشدوا والتقوا حول عبد الله بن سعيد الحضرمي، الذي اتخذ شبام قاعدة له، وملاً الإباضية حصونهم بالمؤمن والطعام والعتاد، ثم ساروا للقاء الجيش الأموي خارج حصن شبام حيث دارت بين الطرفين معركة طوال النهار دون نتيجة حاسمة، وأثناء الليل أرسل عبد الملك بن عطية بعض جنوده إلى شبام للاستيلاء على الذخائر والمؤن التي جمعها الإباضية واستطاعت هذه القوة احتلال الحصن والاستيلاء على ما فيه من مؤن وذخائر ومنعوا من بداخله من الخروج، وعلى الرغم من الموقف الحرج الذي وجد الإباضية أنفسهم فيه فإنهم قاتلوا بحماس وعزم في سبيل عقيدتهم، لأنهم لا يجوز لأحد منهم الفرار إلا متحيزاً إلى فئة، ولم يستطع عبد الملك إحراز نصر حاسم عليهم، ليس هذا فحسب بل إنهم استطاعوا أن يجمعوا قواهم من جديد ويواجهوا عبد الملك في ميدان القتال واضطروه للالتجاء إلى أحد المواقع الحصينة حيث حاصروه مدة أربعة وعشرين يوماً اضطر على إثرها لعقد صلح مع أهل حضرموت والإباضية تعهد فيه بأن «يستعمل عليهم رجلاً منهم، فولى حضرموت رجلاً من أهلها تراضوا به ورد عليهم ما عرفوا من متاعهم (المتاع الذي استولى من عليه في حصن شبام) وكتب عليهم كتاباً»⁽⁴⁾، ثم سار إلى مكة ليترأس موسم الحج في عام 131هـ، فلحق به بعض الرجال الإباضية وقتلوه وصحبه في الطريق ثاراً لما فعل بإخوانهم وأهل دعوتهم⁽⁵⁾، وعندما علم ابن أخيه عبدالرحمن بن يزيد بن عطية، وهو بصنعاء نائباً عنه في ولايتها، بعث شعبياً البارقي على رأس جيش من اليمن معظمه من الرجال «القساة الأجلاف»، الذي جمعهم من جبال اليمن، فقدموا حضرموت وأعملوا السيف في أهلها، وخاصة الإباضية منهم وقتلوا عبد الله بن سعيد الحضرمي في أوائل عام 132هـ⁽⁶⁾، وبهذه الموقعة قضى على الإمامة الإباضية في اليمن وحضرموت، وعاد من بقي من الإباضية هناك إلى مرحلة الكتمان، ولكن بعضهم كان يشتد به الحماس أحياناً ويقوم بالثورة محبذاً بذلك الشراء والموت في سبيل عقيدته كما حدث فيما بعد عندما بايع جماعة منهم شخصاً اسمه حسن على أ، يكون إمام مباشراً يقودهم ضد الولاة العباسيين⁽⁷⁾ وعلى أية حال فإن الهزائم التي مني بها الإباضية في تلك المنطقة لم تضع حداً للوجود الإباضي فيها، وتشير المصادر إلى أنهم بقوا أغلبية السكان حتى وقت متأخر، ويذكر المسعودي أن الإباضية كانوا حتى عام 332هـ، يكونون أكثرية سكان حضرموت «ولا فرق بينهم وبين من بعمان من

(1) بلاذري، أنساب، ج2، ص382.

(2) بلاذري، أنساب، ج2، ص382، خليفة بن خياط، تاريخ ج2، ص596-597.

(3) بلاذري، أنساب، ج2، ص382، يسميه عبد الله بن سعيد الحضرمي، أنظر خليفة بن خياط، تاريخ، ج12، ص597.

(4) بلاذري، أنساب، ج2، ص383، الدرجيني، ورقة 110.

(5) بلاذري، أنساب، ج2، ص383، خليفة بن خياط، تاريخ، ج2، ص597، الدرجيني، ورقة 109-110.

(6) بلاذري، أنساب، ج2، ص383.

(7) الدرجيني، ورقة 105، 106.

الخوارج» أي الإباضية⁽¹⁾، وقد بقيت العقيدة الإباضية سائدة في بعض أنحاء حضرموت حتى أخذت تتلاشى تدريجياً بعد استيلاء الصليحي على بلاد حضرموت عام 455هـ⁽²⁾.

(1) مسعودي، مروج، ج6، ص67.
(2) صالح بن حامد العلوي، تاريخ حضرموت، ج1، ص269.

الباب السابع

الفصل الثاني

نأسيس الإمامة في عُمان

إن المصادر المتوافرة لا تسعفنا في الحصول على معلومات أكيدة موثوقة عن تاريخ تسرب الأفكار الخارجية بشكل عام والإباضية بشكل خاص إلى عمان، وتشير المعلومات إلى أن أهل عمان قد عارضوا الأفكار الخارجية المتطرفة منذ وقت مبكر، فقد أرسل نجدة بن عامر الحنفي عام 67هـ/686م قائدة عطية ابن الأسود الحنفي لضم عمان لدولته التي أقامها في منطقة اليمامة وشرقي الجزيرة العربية، وكان يلي عمان آنذاك عباد بن عبدالله بن الجندى ويساعده في إدارة دفة الحكم هناك ولداه سعيد وسليمان، وقد استطاع عطية احتلال عمان واضطر حكامها إلى الانسحاب إلى المناطق الداخلية منها، وبقي فيها بضعة أشهر عاد بعدها إلى اليمامة مستخلفا على عمان أحد أعوانه ويدعى أبو القاسم، وكان العمانيين تجمعوا من جديد حول سعيد وسليمان ولدي عباد واستطاعوا قتل أبي القاسم والقضاء على أتباعه وإعادة الأمر إلى ولدي عباد، وأثناء ذلك حدث خلاف بين نجدة بن عامر وقائدة عطية بن الأسود الحنفي، على أثره ترك الأخير نجدة وسار إلى عمان ولكنه فوجئ بالتطورات التي حدثت هناك وبقتل أعوانه فيها، وحاول دخول عمان مرة أخرى ولكنه اصطدم بمقاومة عنيفة اضطر على أثرها إلى التوجه إلى كرمان حيث أقام فترة من الوقت لاقى فيها نجاحا ملحوظا حتى أنه ضرب نقودا باسمه عرفت بالدرهم العطوية⁽¹⁾، فقد حبس الحجاج في بداية ولايته للعراق عام 75هـ عمران بن حطان الذي كان يعتبر آنذاك أحد زعماء القعدة في البصرة والمناظر باسمهم، ولم يلبث الحجاج أن أطلق سراحه فترك عمران العراق وأخذ يتنقل بين قبائل العرب وانتهى به المطاف في عمان حيث نزل في قبائل الأزدي هناك ووجدهم يعظمون أبا بلال مرداس بن أدية ويعتقدون أفكاره التي نادى بها، فظهر أمره بينهم وبقي هناك حتى مات⁽²⁾، وهذا يدل على أن الأفكار المعتدلة التي كان ينادي بها القعدة، رواد الإباضية الأوائل، قد تسربت إلى تلك البلاد ولأفت استحسانا وقبولا من السكان هناك وخاصة من الأزدي، ولكن المصادر لا تذكر كيف وصلت هذه الآراء والأفكار إلى تلك المنطقة، ولعلها وصلت عن طريقين: الأول التجارة حيث كانت العلاقات التجارية بين البصرة - مقر القعدة - وبين عمان وثيقة جدا، ولا شك أن هذه العلاقة قد ساهمت في نقل الأفكار إلى تلك البقعة من العالم الإسلامي، أما القناة الثانية التي تسربت عبرها أفكار القعدة إلى عمان فكانت مواسم الحج، حيث كانت الفرق على اختلافها، ومن بينها قعدة الخوارج يتخذون من هذا الموسم فرصة نافعة لنشر أفكارهم ومبادئهم لدى الحجاج من مختلف الولايات الإسلامية.

ومن المحتمل أن وصول عمران إلى تلك المنطقة واطهار أمره هناك قد ساعد في نشر هذه الأفكار ولا سيما أن عمران كان شاعرا موهوبا خطيبا بليغا وظف هذه المواهب في سبيل خدمة مبادئه، وربما كان عمله هذا ارهاصا للنشاط الذي قام به جابر بن زيد الأزدي، الذي نفاه الحجاج إلى عمان قبل عام 93هـ، وقد استطاع جابر القيام بدعاية نشطة لمذهبه بين أهله وعشيرته من الأزدي، وفي موطنه الأصلي ومسقط رأسه، وكان لهذا الحدث أثر كبير في تدعيم نشاط الإباضية ونشر عقيدتها هناك، وقد رأينا في الصفحات السابقة أن القضية الإباضية منذ عهد جابر بن زيد قد أضحت

(1) بلاذري، أنساب، ج1، ص134-135، ابن الأثير، ج4، ص167،

Miles, "Some new light on the history of Kirman" W. O.I (1959). P. 90.

(2) الدرجيني، ورقة 97-98.

قضية الأزدي ليس في العراق فحسب بل في المناطق الأخرى ومنها عمان⁽¹⁾، وتشير المصادر إلى عدد كبير من قادة الإباضية وشايعها من أصل عماني وكان لهم دور بارز في تطور الحركة واستمرار نشاطهما، نذكر منهم على سبيل المثال: المختار بن عوف الأزدي العماني المعروف بأبي حمزة الشاري، وبلج بن عقبة الأزدي وصحار العبدى وهلال بن عطية العماني والربيع بن حبيب الفراهيدي وأبا سفيان محبوب بن الرحيل، وقد تزعم الأخير أن على التوالى حركة الإباضية في البصرة بعد موت الامام أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي⁽²⁾.

وعندما توفي جابر بن زيد عم 93هـ وتزعم أبو عبيدة الحركة الإباضية استقاد الأخير من هؤلاء العمانيين واختار منهم عددا من الأشخاص ليكونوا دعاة أو حملة للعلم - كما تسميهم المصادر الإباضية - في عمان وبعد أن تلقوا تدريباً دقيقاً ونهلوا علماً غزيراً من مدرسة أبي عبيدة التي أعدها سرا لتخريج الدعاة وتنقيفهم في أمر الدعوة، عادوا إلى بلادهم وأخذوا على عاتقهم نشر العقيدة الإباضية بين قبائلهم وفي أماكن سكناهم واستقرارهم، وقد تكلفت جهودهم بنجاح كبير⁽³⁾، ويعود هذا النجاح إلى عدة عوامل يمكن أجمالها فيما يلي:

1- أن معظم حملة العلم كانوا ينتمون إلى قبيلة الأزدي وبطونها المختلفة، وكانت هذه القبيلة أكبر قبائل عمان عدداً وأهمها من الناحيتين الفكرية والسياسية، وكان زعماء عمان منذ فترة ما قبل الإسلام ينتمون إلى هذه القبيلة ولذا فإن تأثيرها في ذلك القطر يفوق ما عداها من القبائل الأخرى، وكانت هذه القبيلة متعاطفة مع المبادئ والأفكار الإباضية منذ وقت مبكر، ولا عجب أن يلقي حملة العلم تأييداً وانتصاراً لدعوتهم من أفراد هذه القبيلة⁽⁴⁾.

2- رغبة العمانيين المستمرة في الاستقلال عن السلطة المركزية المتمثلة بالخلافة الأموية ثم العباسية فيما بعد، ولذا فإنهم تبناوا العقيدة الإباضية وأخذوا منها ذريعة ووسيلة لمقاومتهم للخلفاء الأمويين ثم العباسيين الذين اعتبرهم الإباضيون ظالمين غاصبين للحكم، وبالتالي فإن سلطتهم غير شرعية.

3- لقد ساعدت الأحوال السياسية السائدة في عمان على نشر الإبرار الإباضية بدون مشقة، إذ توالى على حكم ذلك القطر منذ بداية القرن الثاني الهجري ولاه ينتمون إلى قبيلة الأزدي، كبرى قبائل عمان، ولم يكن من السهل على هؤلاء الأزدية ونقمتهم، ولذلك فإنهم تركوا حملة العلم ينشرون مذهبهم بحرية ويسر، بل انهم قدموا لهم التسهيلات لهذا الغرض، ولعل هؤلاء الولاة كانوا إباضية ولكنهم أخفوا معتقداتهم على سبيل التقية الدينية التي جوزها الإباضية في مرحلة الكتمان، ومن هؤلاء الولاة الذين تعاقبوا على حكم عمان زياد بن المهلب الذي بقي والياً منذ بداية القرن الثاني الهجري وحتى سقوط الدولة الأموية، ثم جناح بن قيس الهنائي وابنه محمد، وتشير المؤلفات الإباضية بصراحة إلى أن هؤلاء الولاة قد أعانوا الإباضية ولانوا لهم حتى صارت ولاية عمان لهم فعقدوا الإمامة للجلندي بن مسعود⁽⁵⁾، بالإضافة إلى هذه الأحوال الداخلية التي كانت مواتية لنشر المذهب الإباضي فقد ساعدن الأحوال السائدة في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري في الولايات المركزية

(1) أنظر الباب الخامس.

(2) الدرجيني، ورقة 99، 105-106، 109-115، 117.

(3) العوتبي، ورقة 107، 193، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 30-31، أطفيش، الإمكان، ص 108-109.

(4) أطفيش، الإمكان، ص 8-11.

(5) الأزكوي، ورقة 327-328، العوتبي، ورقة 167-168، السالمي، تحفة، ج1، ص 88.

والصراع القائم على السلطة في إتاحة الفرصة للإباضية لنشر معتقدتهم بحرية في الجزء الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية.

4- أضف إلى ذلك أن طبيعة عمان الجغرافية وموقعها الاستراتيجي على الخليج والبحر العربي قد ساعداها على تنمية مواردها الاقتصادية عن طريق التجارة، واستطاع العمانيون بالتالي الوقوف في وجه أي خطر دون خوف من حصار اقتصادي محتمل كما يحدث في الحجاز مثلاً بالإضافة إلى ذلك فإن الجبال الوعرة التي تميزت بها عما قد ساعد الدعاة، ومن ثم الثوار، على الوقوف في وجه الخطر والالتجاء إلى هذه الجبال في أوقات الضرورة، ومن هنا فإن سلطة الخلافة كانت تتحصر في معظم الأحيان في المنطقة الساحلية.

نتيجة لهذه العوامل فقد أثمرت جهود حملة العلم بسرعة في نشر المذهب الإباضي في عمان وأصبح معظم أفراد قبيلة الأزدي هناك ينتمون إلى هذه الفرقة كما أن أفراداً كثيرين من قبائل أخرى قد انضموا إليها، وقد أشار مشايخ الإباضية في البصرة على إباضية عمان بوجوب التعاون مع إباضية حضرموت وتشير الروايات إلى أن بعض قادة الإباضية في عما حضروا بيعة الإمام طالب الحق وعلى رأسهم الجلندي بن مسعود الذي اختير فيما بعد ليكون أول إمام ظهر في عمان كما سنرى، وبإيعاز من أبي عبيدة، إمام الإباضية في البصرة فقد اشترك عمانيون آخرون في الثورة مع طالب الحق ولاقي بعضهم حتفه وهو يحارب أعداءها، ومن أبرزهم المختار بن عوف الأزدي العماني المعروف بأبي حمزة الشاري وكذلك بلج بن عقبة الأزدي وآخرون⁽¹⁾.

أثر الفشل الذي انتهت إليه الحركة الإباضية في حضرموت واليمن بعد إخماد ثورة طالب الحق فقد توجهت أنظار الإباضية في البصرة والجزيرة العربية إلى عمان لتكون المركز الذي ينطلق منه صوتت الدعوة العلني، وذلك لأن عمان كانت مؤهلة لقيام بهذه المهمة بحكم ظروفها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية التي تكلمنا عنها آنفاً، وكذلك بحكم ولاءات أهلها المذهبية والتي تدّين في معظمها للمذهب الإباضي، وذلك أوعز مشايخ الإباضية في البصرة إلى اتباعهم في عمان للقيام بأعلام الإمامة، مستغلين الظروف العامة التي سادت في بلاد الخلافة الإسلامية اثر سقوط الدولة الأوية وقيام الخلافة العباسية عام 132هـ، وفي العام نفسه أعلن الإباضية في عمان مبايعتهم للجلندي بن مسعود أول إمام ظهور إباضي في تلك المنطقة، معتبرين هذا العمل الخطوة الشرعية الإسلامية الصحيحة للخروج من متاهات الصراعات القبلية والأسرية على الحكم، ووجهوا النداء لبقية المسلمين لمبايعة الإمام الجلندي كخليفة للمسلمين⁽²⁾.

وطبيعي أن لا يغفل العباسيون عما يجري في ذلك القطر وخاصة أن أية قوة معادية تسيطر عليه سوف تهدد طرق تجارتهم البحرية إلى الشرف الأقصى بالانهيار التام نظراً لموقع عمان الاستراتيجي على مدخل الخليج، وتبعاً لذلك فإن العباسيين لم يسكتوا طويلاً على هذا الوضع، وفي عام 134هـ، أي بعد عامين فقط من مجيئهم إلى الحكم ومن تنصيب الجلندي إماماً، وجه العباسيون حملة عسكرية إلى عمان وزودوا قائدهما خازم بن خزيمة التميمي بتعليمات واضحة للقضاء على الخوارج الصفرية الذين تجمعوا في جزيرة ابن كاوان بقيادة شيبان بن عبد العزيز الشكري الذي لجأ إلى الجزيرة بعد هزيمته على أيدي الأمويين عام 129هـ، ثم يسير إلى عمان لمعالجة أمر الإباضية هناك.

(1) السالمي، تحفة، ج1، ص88، (عن أبي الحسن البسيني)، الحارثي، ص253.

(2) السالمي، تحفة، ج1 ص88-92، الحارثي، ص253.

استطاع خازم أن يهزم الصفورية في جزيرة ابن كاوان واضطر من نجا منهم إلى هجر الجزيرة والهرب إلى منطقة جلفار في الشمال الشرقي من عمان⁽¹⁾، ولكن الجلندي بن مسعود كره حضورهم إلى بلاده، فأرسل إليهم قوة عسكرية لطردهم من البلاد، إلا إذا قبلوا اعتناق المذهب الإباضي ولما رفض الصفورية هذا الشرط قاتلهم الإباضية وقضوا عليهم وقتلوا قائدهم شيبان⁽²⁾، وبذلك خدم الجلندي وأصحابه الإباضية القائد العباسي خازم، دون أن يخططوا لذلك.

أثناء ذلك كان خازم يراقب سواحل عمان منتظراً النتيجة التي سيسفر عنها القتال بين الصفورية والإباضية في جلفار، ولما علم بالنتيجة سار نحو جلفار قبل عودة الجند الإباضية منها حيث التقى بهم هناك، وعرض عليهم قبول الطاعة للخليفة العباسي وأرسل إلى الجلندي يطلب منه ذلك ويسأله أن يسلمه خاتم شيبان وسيفه ليكونا له حجة عند الخليفة العباسي، ولكن الإباضية رفضوا هذا العرض، وجرت بين الفريقين معركة قاسية في جلفار رجحت فيها كفة العمانيين في البداية، ولكن خازماً اتبع تكتيكاً جديداً فأحرق بيوت الإباضية وأشغل أذهانهم بأولادهم وأهلهم وممتلكاتهم، مما ساعد في إرباكهم واضطراب صفوفهم، وتمكن بالتالي من إحراز النصر عليهم بعد سبعة أيام من القتال العنيف، ونتيجة لهذه المعركة استطاع خازم إعادة ضم عمان إلى جسم الدولة الإسلامية التي تربع على عرشها العباسيون⁽³⁾.

على الرغم من هذه الهزيمة فإن العمانيين لم يذلوا أو يستكينوا بل أخذوا يتلمسون الفرص المناسبة لإعادة الكرة، كما أن الإباضية لم تمت في ذلك القطر بل اتخذ أتباعها من معركة جلفار ومما جرى لإخوانهم فيها من قتل وتدمير ذكرى تحفزهم للتجمع من جديد، وتكثيف نشاطهم لنشر دعوتهم وخاصة في المناطق الجبلية والداخلية التي يصعب على العباسيين اجتيازها والسيطرة عليها، واستطاع الإباضية أن يعلنوا الثورة من جديد، ويعيدوا تأسيس الإمامة نحو عام 177هـ/793م، ومنذ ذلك التاريخ استمرت الإمامة في عمان (أو بعض مناطقها) بدون انقطاع لعدة قرون، وأصبح المذهب الإباضي هو المذهب السائد في عمان واعتنقه معظم سكان ذلك القطر ولا تزال أغلبية سكانه تعتنق هذا المذهب حتى يومنا الحاضر.

(1) الطبري، ج7، ص462-463.

(2) الأزرقي، ورقة 328، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 24-25، السالمي، ج1، ص98.

(3) الأزرقي، ورقة 229، الرقيشي، مصباح الظلام، ورقة 30-31، الطبري، ج7، ص463، السالمي، تحفة، ج1، ص98-99.

الباب السابع

الفصل الثالث

تأسيس الإمامة الإباضية في شمال أفريقيا

يعتبر سلمة بن سعد الحضرمي أول شخصية تذكرها المصادر الإباضية مقرونة بالدعوة الإباضية في شمال أفريقية⁽¹⁾، إلا أن هذه المصادر لا تذكر متى وصل سلمة إلى أفريقية كما أن المدة التي قضاها هناك مجهولة ولا نعرف فيما إذا كان قد أمضى بقية حياته هناك أم أنه رجع إلى المشرق، ولما كان مبعوثاً من أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي إمام الإباضية في البصرة، فمن الثابت أنه ارتحل إلى المغرب بعد عام 95هـ، وهو العام الذي أصبح فيه أبو عبيدة إماماً للإباضية، يضاف إلى ذلك أن بعض المصادر تشير إلى أن سلمة بن سعد قد ذهب إلى شمال أفريقية مصحوباً بالداعية الصفري عكرمة، مولى ابن عباس⁽²⁾، وقد توفي عكرمة في الفترة الواقعة بين عامي 100هـ/718م، و110هـ/729م، والأرجح عام 105هـ/724م⁽³⁾، ويذكر البكري أن عكرمة قد جاء إلى أفريقية قبل عام 104هـ/723-722م⁽⁴⁾، وبناء على هذه المعلومات فمن المحتمل أن سلمة بن سعد قد وصل شمال أفريقية في السنوات الأخيرة من القرن الأول الهجري، أو السنوات الأولى من القرن الثاني الهجري، ومن المؤكد أنه وصل قبل عام 110هـ/729م وهو آخر تاريخ تعطيه المصادر لموت عكرمة الذي صاحب سلمة في رحلته، وبكلمة يمكن حصر المدة التي ارتحل خلالها سلمة إلى شمال أفريقية بين عامي 95هـ/713م و110هـ/728م، أما الرأي الذي يقدمه المستشرق البولندي ليفتسكي T.LEWICKI⁽⁵⁾ والذي يفيد بأن سلمة بن سعد وعكرمة كانا من بين العشرة الذين أرسلهم عمر بن عبدالعزيز لتعليم البربر أصول الدين الإسلامي فيبدو غير صحيح، لأن اسميهما لا يظهران في قائمة الرجال العشرة الذين بعثهم الخليفة المذكور⁽⁶⁾.

وعلى أي حال فإن ظهور داعيتين من الخوارج أحدهما إباضي والآخر صفري مجتمعين في رحلة واحدة يدل دلالة واضحة على أن الخوارج في شمال أفريقية كانوا يقومون في بداية الأمر - بالدعاية للمبادئ العامة التي نادت بها معظم الفرق الخارجية، وخاصة الصفرية والإباضية، مركزين على مبدأ المساواة بين المسلمين دون اعتبار للمبادئ التي انفردت بها كل فرقة، وقد استهوى هذا الشعار البربر واعتنق قسم منهم المذهب الخارجي (الصفري أو الإباضي) ومنذ بداية القرن الثاني الهجري اتخذ البربر من شعار المساواة السالف الذكر مبرراً لكل الثورات التي قاموا بها ضد السلطة الأموية ثم العباسية فيما بعد.

(1) الدرجيني، ورقة 4، الأزكوي، ورقة 280، شماخي، سير، ص 98، 123، أبو زكريا، ورقة 3، لقد أسهبت في الحديث في هذا الفصل عن تاريخ الحركات الإباضية في شمال أفريقية منذ البداية، حتى تأسيس الإمامة الرستمية وذلك لأن كثيراً من الكتاب الذي ألفوا في تاريخ تلك المنطقة قد تناولوا هذا الموضوع، ولكني رأيت أن كثيراً من الآراء والمعلومات التي ضمنوها مؤلفاتهم تحتاج إلى إعادة تقييم، نظراً لاكتشاف معلومات جديدة في مؤلفات لم تكن معروفة من قبل، وسيلاحظ القارئ ذلك خلال قراءته لهذا الفصل.

(2) أبو زكريا، ورقة 3، الدرجيني، ورقة 4، الأزكوي، ورقة 280.

(3) ابن قتيبة، معارف، ص 457، خليفة بن خياط، طبقات، بغداد، 1967م، ص 280، طبعة دمشق، 1966م، ص 703، مالكي، رياض النفوس، ج 1، ص 93، ابن سعد، طبقات، ج 5، ص 216، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ج 7، ص 2، أبو الفرج، الأغاني، ج 8، ص 43، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ج 1، ص 89، ياقوت، إرشاد الأريب، ج 5، ص 62-65، ابن الأثير، ج 1، ص 64، النووي، تهذيب الأسماء، ص 432، ابن تغري بردي، ج 1، ص 263.

(4) البكري، ص 284.

(5) T. Lewicki, "The Ibaadites in Arabica and Africa", J. E. H., Vol. 8, part 1, p.87.

(6) من أسماء الرجال العشرة الذين بعثهم الخليفة عمر بن عبدالعزيز لتعليم البربر أصول الدين الإسلامي ومبادئه أنظر: مالكي، رياض النفوس، ج 1، ص 76-64، أبو العرب، طبقات علماء أفريقيا وتونس، ص 84-118.

بعد وصول سلمة بن سعد الحضرمي وعكرمة إلى بلاد المغرب الأدنى افترقا واتخذ كل منهما مقراً له يدعو فيه لمذهبه، فقد نزل عكرمة في مدينة القيروان وأخذ يتصل بزعماء البربر من مختلف القبائل، وكان يدعو لمذهبه سراً، ويبدو أنه ركز معظم جهوده على قبائل البربر القاطنة في المغرب الأقصى، بينما ركز سلمة جهوده على قبائل المغرب الأدنى، ولعل ذلك كان باتفاق مسبق بينهما، وقد اعتنق المذهب الصفري عدد كبير من قبائل مظفرة بزعماء ميسرة المظفري الذي اتصل بعكرمة في القيروان، ثم عاد ونشر المذهب بين بني قومه من مظفرة وتزعم أول ثورة خارجية في تاريخ المغرب العربي⁽¹⁾، وكذلك اتصل شيخ قبيلة مكناسة البربرية بعكرمة وأخذ عنه أصول المذهب، ويقال أنه بقي ملازماً لعكرمة حتى مات الأخير، ولما كان عكرمة قد مات في مكة بعد رجوعه من المغرب، فيبدو أن شيخ مكناسة أبا القاسم سمكو بن واسول قد رافقه في رحلة العودة إلى المشرق، وهذا ما يفسر لنا اختلاف المؤرخين في المكان الذي اتصل به ابن واسول بعكرمة، فبعض المؤلفين يقول أن ذلك قد تم في القيروان ويرى آخرون أنه تم في بلاد المشرق⁽²⁾

ويظهر أن أول اتصال بين الداعية والتلميذ قد تم في القيروا، وبقياً متلازمين في الحل والترحال حتى مات عكرمة في المشرق، فرجع ابن واسول إلى بلاده وتزعم الداعية للمذهب الصفري حتى أن الروايات تصفه بأنه مقدم الصفرية من مشاهير حملة العلم⁽³⁾، وكان ابن واسول ينشر مذهبه بين قومه من مكناسة بسرية تامة، ولكي يحافظ على كتمان دعوته انسحب جنوباً إلى الصحراء، واستقر في واحة تافيللت حيث تظاهر بامتهان حرفة الرعي أسوة بسكان البادية القاطنين هناك، واستطاع أن يكسب أعواناً كثيرين، وأصبحت خيمته منتدى ومدرسة لأتباعه من البدو في تلك المنطقة⁽⁴⁾.

واعتنق المذهب الصفري أيضاً عدد كبير من قبائل برغواطة على يد زعيمهم طريف بن شمعون، الذي أخذ المذهب عن عكرمة في القيروان⁽⁵⁾، وانتشر المذهب بين قبائل زناتة البربرية وخاصة بني يفرن، وظهر منهم زعماء أشداء حاربوا الولاة الأمويين والعباسيين، من أشهرهم أبو قرة اليفرنى الصفري الذي قاد الصفرية في حركة واسعة ضد جند الخلافة وبايعه أصحابه بالإمامة في تلمسان عام 140هـ، ويبدو أن بني يفرن كانوا من أكثر البربر حماساً للمذهب الصفري مما حدا بابن خلدون لأن يقول: «لما فشا دين الخارجية في المغرب، وغلبهم الخلفاء بالمشرق واستلجموهم، نزعوا إلى القاصية، وصاروا يبيتون بها دينهم في البربر، فتلقنه رؤسائهم على اختلاف مذاهبه، ففشا في البربر وضرب فيه يفرن هؤلاء بسهم، وانتحلوه وقاتلوا عليه»⁽⁶⁾، ويمكن القول أن المذهب الصفري قد انتشر بشكل خاص بين قبائل البربر في المغرب الأقصى، وليس عجيباً إذن أن نرى أول ثورة خارجية في المغرب قد انطلقت من هناك بزعماء ميسرة المظفري الصفري.

أما المذهب الإباضي فيبدو أنه كان معروفا لدى قلة من الناس في المغرب الأدنى قبل وصول سلمة بن سعد الحضرمي، وقد استقر في جبل نفوسة في منطقة طرابلس حيث تسكن قبائل هوار البربرية. ويظهر أن الهدف من رحلة سلمة كان – بالإضافة إلى الدعوة لمذهبه – محاولة

(1) ابن خلدون، ج6، ص118.

(2) ابن خلدون، ج6، ص105، مؤلف مجهول، نبذة تاريخية من أخبار البربر، ص60، القلقشندي، ج5، ص165، محمد إسماعيل عبدالرزاق، الخوارج في بلاد المغرب، ص48.

(3) ابن خلدون، ج6، ص105، الشطبي، الجمان، ورقة 202-203، محمد إسماعيل عبدالرزاق، ص48.

(4) البكري، ص149، ابن خلدون، ص120، محمد إسماعيل عبدالرزاق، ص48.

(5) ابن خلدون، ج6، ص107، محمد إسماعيل عبدالرزاق، ص49.

Marcasi, La Berberie Musulmane, p. 48.

(6) ابن خلدون، ج7، ص23.

لاستطلاع الأحوال فیتلك المنطقة والوقوف على مدى استعداد الناس لتقبل الآراء التي ینادي بها جماعة المسلمين (الاباضية) . أضف إلى ذلك فان مهمة سلمة كانت ترمي إلى ترغيب عدد من زعماء البربر للذهاب إلى المشرق لتلقي العلم على يد إمام الاباضية آنذاك , أبي عبدة مسلم بن أبي كريمة التميمي . وقد نجح سلمة في مهمته إلى حد كبير واستطاع كسب عدد من الأتباع وخاصة في جبل نفوسة⁽¹⁾ . وقد كان سلمة متحمسا في سبيل مبادئه يبذل كل جهد للوصول إلى مأربه , وقد اثار عنه أنه كان يخاطب أصحابه ويقول : (وددت أن يظهر هذا المذهب (الاباضي) بأرض المغرب يوم واحد من غدوه إلى الزوال فما أبالي أن ضربت عنقي⁽²⁾ .

نتيجة لجهود سلمة فقد ارتحل بعض من اعتنق المذهب من أهل جبل نفوسة إلى البصرة ليأخذوا أصول الدعوة وتعاليمها عن الامام أبي عبدة . وكان أشهر هؤلاء الاشخاص أبو عبدالله محمد بن عبد الحميد بن مغيتر الجنائوني⁽³⁾ , ولا تذكر المصادر المتوافرة المدة التي قضاها ابن مغيتر في المشرق الا أنه رجع وسلامه الحضرمي لا يزال على قيد الحياة . واشترك الاثنان في نشر تعاليم الاباضية في جبل نفوسة . وعندما توفي سلمة (أو عاد إلى المشرق) أصبح ابن مغيتر مقدم الاباضية هناك وكان له جهود كبيرة في قناع كثير من بني قومه من نفوسة لاعتناق المذهب الاباضي حتى أن جبل نفوسة أصبح المعقل الرئيسي لاباضية المغرب في تلك الحقبة من التاريخ , أي خلال الثلث الأول منالقرن الثاني الهجري⁽⁴⁾ . وانتشر المذهب بين قبائل هواره وزناتة وسدراته ولاتة القاطنة في تلك البقعة من بلاد المغرب . ورأت هذه الجماعات – نتيجة لجهود الدعوة الاباضية – في المذهب الاباضي المثل الصحيح للإسلام الحق , واتخذت من شعار المساواة الذي نادى به الاباضية مبررا دينيا وشرعيا للثورة ضد الولاة.

وقد رأى دعاة الاباضية الأوائل أن الحاجة إلى مزيد من البعثات العلمية للمشرق ليتفقهوا في أصول المذهب على أيدي مشايخ الاباضية في البصرة . وحاولوا انتقاء رجال البعثات من بين القبائل البربرية المختلفة حتى يسهل عليهم إقناع قبائلهم – بعد رجوعهم – لتقبل الآراء والأفكار التي يبشرون بها . وبناء على ذلك فقد اتجهت إلى البصرة أول بعثة علمية منظمة اختير رجالها من قبائل ومناطق مختلفة , وتألفت من أربعة أشخاص وهم : أبو دراد إسماعيل بن درار الغدامسي من غدامس جنوب طرابلس , وعبد الرحمن بن رستم (فارسي الأصل) من القيروان , وعاصم السدراتي من سدراته غربي أوراس , وأبو داود القبلي النفزاوي من نفزاوة جنوبي افريقية (تونس) وانضم إليهم في البصرة أبو الخطاب المعافري وهو من اليمن . وقد سمي هؤلاء في المصادر الاباضية حملة العلم إلى المغرب⁽⁵⁾ .

أما تاريخ رحلتهم إلى المشرق فلا تذكره المصادر الا أنها تشير إلى ردوعهم عام 140هـ ولما كانت المدة التي قضوها في البصرة خمس سنوات⁽⁶⁾ فمن المرجح أنهم والوا شطر المشرق عام 135هـ

(1) الدرجيني، ورقة 6.

(2) الدرجيني، ورقة 4، شماخي، سير، ص98، الأزكوي، ورقة 280.

(3) الوسياني، ورقة 280، علي يحيى معمر، الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، ص27.

(4) الوسياني، ورقة 79، شماخي، سير، ص144.

(5) لم يرافقهم أحد من جبل نفوسة، وذلك لأن بعض رجال الجبل كانوا قد ذهبوا قبلاً وعادوا إلى موطنهم، وعلى رأسهم ابن مغيتر الجنائوني الذي أسلفنا القول عنه.

(6) عن حملة العلم أنظر: الدرجيني، ورقة 4-8، أبو زكريا، ورقة 5، أطفيش، الإمكان، ص112، شماخي، سير، ص123-124، محمد علي دبوز، ج3، ص194.

بقي حملة العم خمس أعوام متتالية يتلقون العلم من إمام الإباضية أبي عبيدة التميمي في مدرسته التي أقامها لهذه الغاية في سرداب سري. وبعد أن أنهوا مهمتهم واطمأن أبو عبيدة إلى تعمقهم في معرفة أصول المذهب وتعاليمه عادوا إلى بلادهم لنشر المذهب بين أقاربهم وفي مناطق استقرارهم. وتشير المصادر الإباضية إلى أن حملة العلم قد انشأوا مجالس سرية خاصة لتعليم المذهب على شاكلة المجالس الإباضية في البصرة⁽¹⁾. ولم يمض وقت طويل حتى برز عدد من العلماء الإباضيين من بين السكان المحليين ممن تلقوا التعليم في هذه المجالس «الاقليمية» وتسميهم المصادر الإباضية تلاميذ حملة العلم. ومن أشهر هؤلاء: أبو خليل الدركلي، عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، محمد بن يانس، وعمر بن يمكتن، وقد افتتح الأخير مدرسة لتعليم القرآن وتفسيره في جبل نفوسة⁽²⁾. ومن المحتمل أن تلك المدرسة كانت ملتقى لعلماء الإباضية ومركز لتلقي مبادئ الدعوة. ومن المحتمل أيضا أن حلقات أخرى قد أنشئت في مناطق أخرى للغرض نفسه وكان لها أثر كبير في استمالة عدد من رجال القبائل البربر لاعتناق المذهب الإباضي

الصراع العسكري بين الإباضية والخلافة في بلاد المغرب

كان لجهود الدعاة الإباضية من حملة وتلاميذهم أثر كبير في اتمالة أعداد وفيرة من البربر في المغرب الأدنى وخاصة في منطقة طرابلس، إلا أن دعاة الصفرية لا قوا في البداية نجاحا أكبر وحظا أوفر وذلك لأنهم بشروا بمبادئ أكثر تطرفا، جاءت ملبية لرغبة البربر في الثورة لعي السلطة الحاكمة، ونادوا بالثورة السريعة دون المرور بمراحل مختلفة كمل فعل الإباضية. وتبعاً لذلك فقد انتشر المذهب الصفرى بين معظم قبائل المغرب الأقصى حيث ركز دعاة الصفرية جهودهم، وفي عام 122هـ قام الصفرية بثورة عامة ضد الحم لأموي واستمرت نحو ثلاثة أعوام وانتشرت من السوس الأقصى غربا حتى أواسط ليبيا شرقا، واستطاع البربر الصفرية أن يحرزوا انتصارا ضخما على قوات الدولة الأموية في معركة الأشراف قرب طنجة واستمرت المعارك بين الطرفين، وكثيرا ما كان النصر فيها يحالف البربر الصفرية. وفي عام 125هـ / 742-743م استطاع والي الأموي حنظلة ابن صفوان أن يهزم البربر في معركتي القرن والأصنام⁽³⁾.

كانت ثورة الخوارج الصفرية التي قامت بين عامي 122هـ و 125هـ نقطة تحول في تاريخ الدعوة الإباضية في شمال أفريقية، إذ أدرك الإباضيون أن الدعوية الصفرية قد كسبت أعانا كثيرين، وخافوا انتشار المذهب الصفرى بين جميع قبائل البربر وبالتالي من خسارة مواقعهم هناك وضياح حلمهم في إنشاء دولة إباضية في بلاد المغرب. ولذا فإنهم أخذوا يكتفون دعوتهم وزادا عدد الدعاة الذين أصبحوا يوجبون المنطقة من برقة شرقا إلى السوس الأقصى غربا، ليس هذا فحسب بل انهم بدأوا بتنظيم أنفسهم إداريا وأخذوا يؤمرون عليهم شخصا منهم عارفا بالمذهب مخلصا له وتحمسا في سبيل نشره. ولم يتخذ هذا الشخص لقب إمام أو خليفة بل اتخذ لقب رئيس وهذا دليل على أن مرحلة إعلان إمامة الظهور لم تحن بعد. وأول رجل تذكره المصادر بأنه حمل هذا العبء وتلقب بالرئيس هو عبدالله بن مسعود التجيبي⁽⁴⁾. ويبدو أن معظم أنصار عبدالله هذا كانوا من قبائل زناتة وهوارة. وقد قتل التجيبي نحو عام 127هـ على يد الياس بن حبيب والي طرابلس لأخيه عبد الرحمن

(1) أنظر عن هذه المجالس الباب السادس.

(2) شماخي، سير، ص142.

(3) عن ثورة الخوارج الصفرية في شمال أفريقية أنظر:

A. M. Khlef, The Caliphate of Hisham b. Abd al-Malik, Unpublished thesis, London, 1973, pp. 132ff.

(4) ابن عبد الحكم، ص224.

بن حبيب الذي انتزع ولاية أفريقية من حنظلة بن صفوان⁽¹⁾، ولا تذكر المصادر سبب قتله، ومن المحتمل أن التجيبي قد قام بنشاط كبير أدى إلى تهديد حكم الأسرة الفهرية في أفريقية فتخلصوا منه قبل أن ينظم الإباضية في ثورة مسلحة ضدهم.

كان لمقتل التجيبي أثر كبير في نفوس أصحابه، وعلى عكس ما أراد إلياس بن حبيب كان هذا الحدث محرّكاً قوياً للإباضية دفعها للثورة العلنية ضد الحكم القائم المتمثل بالأسرة الفهرية التي يتزعمها عبد الرحمن بن حبيب، وقد حاول عبد الرحمن أن يخفف من وقع المصائب وأعلن غضبه وعدم رضاه عن عمل أخيل تجاه التجيبي، فعزله وولى مكانه حميد بن عبد الله العكي⁽²⁾، أملاً في أن يتجنب الاحتكاك المسلح مع الإباضية في تلك الظروف التي يواجه فيها ثواراً آخرين من العرب الساخطين عليه لاستيلائه على السلطة، وطرده الوالي الشرعي حنظلة بن صفوان، ومن البربر الصفرية الثائرين ضد الحكم القائم باسم شعار المساواة⁽³⁾، وحاول عبد الرحمن كل جهده أن يتبع سياسة لينة مرنة مع الإباضية في طرابلس وجبل نفوسة، ولكن محاولاته لم تلق ترحيباً من الإباضية لغضبهم الشديد على قتل رئيسهم، ولم يلبثوا أن ثاروا بقيادة الحارث بن تليد الحضرمي الذي انتخبوه إمام دفاع لهم، واختار بدوره عبد الجبار بن قيس المرادي ليكون قاضياً ومستشاراً له، وكان الشخصان لا يفترقان حتى أن المصادر لم تستطع أن تميز الإمام من القاضي⁽⁴⁾.

خرج العكي والي طرابلس لقتال الإباضية ولكنه لم يستطع الصمود طويلاً أمام الجيش الإباضي الذي كان يتألف في معظمه من قبيلة هوارية البربرية، وفي ذلك يقول البرادي: «وكانت الكثرة من البربر هوارية فقتل الله بهما (أي الحارث وعبد الجبار) أهل الخلاف قتلاً ذريعاً»⁽⁵⁾، وقد طلب العكي الأمان من الإباضية فأمنوه واستسلم لهم ولم يصيبوه بأذى، إلا أنهم قتلوا أحد رجاله الذي اتهم بقتل عبد الله التجيبي⁽⁶⁾، ولا تذكر الروايات المصير الذي آل إليه العكي ومن استسلم معه من أتباعه وهل عادوا وانضموا إلى ابن حبيب أم أنهم لزموا الحياد في القتال الذي دار فيما بعد بين جند ابن حبيب والإباضية.

لما علم ابن حبيب بهزيمة واليه على طرابلس واستسلامه أرسل يزيد بن صفوان المعافري والياً جديداً لمنطقة طرابلس، ولم يأمره بقتال الإباضية، وحاول كسب رجال هوارية الإباضية بالطرق السلمية، فأرسل إليهم شخصاً يدعى مجاهد بن مسلم الهواري الذي كان ينتمي للقبيلة نفسها، ولكنه كان موالياً لعبد الرحمن، وحاول مجاهد استمالة رجال قبيلته ومناهم بالخير الوفير إن تركوا الحارث والإباضية وتوعدهم بالشر الوبيل إن استمروا في عدائهم لجند الخليفة، ولكن معظم رجال هوارية كانوا قد تمكنوا من المذهب الإباضي وتعمقت مبادئه في نفوسهم فلم يصغوا له وطرده.

(1) ابن عبد الحكم، ص 224، الرقيق، ص 123، وما بعدها، ابن خلدون، ج 6، ص 223، السلاوي، ج 1، ص 116 وما بعدها.

(2) ابن عبد الحكم، ص 224.

(3) من هؤلاء الثوار: عطف الأسدي في بعض نواحي تونس وعروة بن الوليد الصدي في تونس أيضاً، كما ثار الصفرية بزعامه عبد الله بن سكرديد وثابت الصنهاجي في باجة. أنظر: الرقيق، ص 126، ابن خلدون، ج 6، ص 190، ج 6، ص 111، النويري، ج 22، ق 1، ص 39. (4) لا تذكر المصادر معلومات واضحة عن كيفية اشتراكهما في زعامة الإباضية إذ أن البرادي يرى أنهما كانا مشتركين في الملك، ولكنه دوماً يقدم اسم الحارث على زميله، وأما الشماخي فيورد قيامهما بالثورة، ويقول: أن أحدهما كان إماماً والآخر وزيره أو قاضيه، ولكنه لا يوضح من هو الإمام ومن هو الوزير، ويذكر ابن عبد الحكم معلومات أقرب إلى الصحة من غيرها، ويقول: أن الحارث كان إمام الحرب وعبد الجبار إمام الصلاة، وهذا يعزز القول بأن للاحارث كان إمام الدفاع، وأن عبد الجبار كان قاضيه، ويورد المؤرخ الإباضي المعاصر علي يحيى معمر، معلومات ترجح هذا الرأي معتمداً في ذلك مصادر إباضية لم يذكرها. أنظر: البرادي، الجواهر، ص 170، الشماخي، سير، ص 125، ابن عبد الحكم، ص 224، علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، الحلقة الثانية، ص 45.

(5) البرادي، الجواهر، ص 170.

(6) ابن عبد الحكم، ص 225.

أمام هذا التحدي أيقن ابن حبيب أن السيف وحده هو الذي يمكنه من حسم الأمر على أعدائه، فسير جيشاً ضخماً بقيادة محمد بن مفروق (مقرون؟) لإخضاع الإباضية وأمر واليه الجديد على طرابلس للسير معه، كما اشترك في الحملة مجاهد بن مسلم الهواري على رأس قوة أخرى، ولكن الإباضية تمكنوا من هزيمة هؤلاء جميعاً وقتلوا قائد الجيش محمد بن مفروق ووالي طرابلس يزيد بن صفوان المعافري، وتمكن مجاهد الهواري من أن ينجو بالقوة الباقية، ثم عاد بعد أن حصل على مدد آخر والتقى بالثوار الإباضية في معركة قاسية قرب جطيسة ولكنه هزم وارتد هارباً مع بقية جنده، وتابع الإباضية زحفهم صوب طرابلس فاحتلوها ثم استولوا على كثير من المواقع حولها، ولم يمض وقت طويل حتى سيطروا على المنطقة الواقعة بين طرابلس وقابس وسرت.

أصيب عبدالرحمن بن حبيب بصدمة عنيفة نتيجة للهزائم التي مني بها جيشه وقواده، فقرر مرة أخرى استمالة الإباضية، وخاصة قبيلة هواره التي كانت السند الرئيسي للثوار، بالطرق السلمية فأرسل إليهم عامل طرابلس مع بعض مشايخ البربر في محاولة للوصول إلى تفاهم معهم، ولكن الإباضية قتلوهم عن آخرهم، وهنا أيقن عبدالرحمن بن حبيب أن سياسة المصالحة لا تجدي نفعاً مع هؤلاء الثوار الأشداء، وأدرك أيضاً أن حكمه مهدد بالزوال إن تواني في حسم الأمور معهم، فصار إليهم على رأس حملة عسكرية قوية، وعندما وصل قابس في طريقه للقائهم علم بتأمر أهل القيروان ضده فرجع أدراجه إلى القيروان، وقضى على التمرد هناك، ثم عاود السير لقتال الإباضية في طرابلس، وتمكن من هزيمتهم⁽¹⁾، وتختلف المصادر المتوافرة حول مصير الحارث وعبدالجبار اللذين تزعا الحركة الإباضية في هذه الفترة، فالمصادر السنية تذكر بأنهما قتلا أثناء المعارك التي جرت بين الإباضية وبين جيوش ابن حبيب⁽²⁾، ولكن المصادر الإباضية تقول أن الرجلين وجدا مقتولين وسيف كل منهما مغمد في جثة صاحبه⁽³⁾، ومن المحتمل أن عبدالرحمن بن حبيب قد دس إليهما من قتلتهما، ثم وضع سيف كل منهما في جسم صاحبه ليخلق الذعر بين الإباضية وليثير بينهم الفتنة والخلاف، ومهما تكن الحقيقة فإن مسألة الحارث وعبدالجبار قد أدت على جدل طويل بين الإباضية في المشرق والمغرب، وخلفت مشكلة فقهية لدى زعماء الإباضية، واختلفوا في مسألة الولاية والبراءة منهما، فقال بعضهم أن كل واحد منهما مثل الآخر فيجب البراءة منهما، بينما قال البعض الآخر أن كل واحد منهما قتل الآخر ولكن يعرف الباغي منهما على صاحبه، ولذا فإن أفضل حل لهذه المشكلة هو التوقف عن الحكم عليهما، وقال فريق ثالث: إن صلاحهما متيقن قبل موتهما، أما بغيهما فغير متيقن ولذا فهما باقيان على ولايتهما، إذ من المحتمل أن يكونا قد قتلا على يد رجل ثالث بغى عليهما، فجعل سيف كل واحد منهما في جثة صاحبه⁽⁴⁾، ويبدو أن الخلاف حول هذه المسألة قد أدى إلى إضعاف الروح المعنوية لدى أتباع الحركة في المغرب الأدنى، فاستعان وجهاء الناس وقادتهم بأئمة الإباضية في البصرة الذين اختلفوا بدورهم حول هذه المشكلة، وخوفاً من الفرقة والنزاع، وخشية فقدان مواقعهم في شمال أفريقيا كتب أبو عبيدة حتى يقطع الأحقاد ويجنب أتباعه الفتنة، ومما يدل على أثر هذه الحادثة السلبية أن أبا الخطاب أول إمام ظهور إباضي في شمال أفريقيا، اشترط عندما بويع فيما بعد بالإمامة أن لا يذكر أصحابه اسمي الحارث وعبدالجبار في معسكره حتى لا تحدث الفرقة ويدب الخلاف بين جماعته⁽⁵⁾.

(1) عن القتال بين حبيب والإباضية بزعامة الحارث وعبدالجبار أنظر: الرقيق، ص128-129، ابن عبدالحكم، ص224، ابن خلدون، ج6، ص123، البرادي، الجواهر، ص170، السلاوي، ج1، ص117.

(2) الرقيق، ص129، ابن خلدون، ج6، ص223، السلاوي، ج1، ص117.

(3) أبو زكريا، ورقة 9، البرادي، الجواهر، ص170، شماخي، سير، ص125.

(4) أبو زكريا، ورقة 9، البرادي، الجواهر، ص171، شماخي، سير، ص124-125.

(5) أبو زكريا، ورقة 8، ابن عبدالحكم، ص225، البرادي، الجواهر، ص171، شماخي، سير، ص125، الدليل لأهل العقول، ص240.

وعلى أي حال فإن مقتل الحارث بن تليد الحضرمي وعبد الجبار كان له أثر كبير على الدعوة الإباضية في بلاد المغرب الأدنى، إذ تفرق الإباضية وتنازعوا إلى حين رغم أنهم بقوا على ولائهم للمذهب الإباضي، وعندما جاءتهم أوامر إمامهم أبي عبيدة بوجوب عدم الخوض في هذه المسألة ودعوته إياهم للتكاتف عادوا والتأموا من جديد، واختاروا إمام دفاع لهم هو أبو الزجار إسماعيل بن زياد النفوسي، وكان ذلك في عام 132هـ، واستطاع الإباضية بزعامه إمامهم الجديد أن يعيدوا سيطرتهم على مناطق واسعة من ولاية طرابلس كما استولوا أيضاً على مدينة قابس وما جاورها، ولكن الإمام النفوسي قتل في العام نفسه (132هـ) وهو يحارب قوات الوالي عبدالرحمن بن حبيب كما قتل عدد كبير من أتباعه، ويبدو أن النصر الذي أحرزه ابن حبيب كان حاسماً مما حدا بالإباضية للخلود على الهدوء لفترة من الزمن، وعادوا إلى مرحلة الكتمان والدعوة السرية، وبقوا كذلك مدة ثماني سنين متوالية من عام 132هـ وحتى عام 140هـ، وفي هذه الفترة حدثت تطورات مهمة في مركز الخلافة وفي ولاية أفريقية كان الإباضية أثناءها يعدون العدة لاستئناف نشاطهم العسكري ضد الولاة أملاً في النصر وإعلان الإمامة الإباضية في بلاد المغرب، وقبل أن نتحدث عن النشاط العسكري الذي بدأه الإباضية عام 140هـ لابد لنا من إلقاء نظرة سريعة على التطورات السياسية في بلاد المغرب وأثرها على موقف الإباضية وخططهم⁽¹⁾.

التطورات السياسية في المغرب الأدنى في العقد الرابع من القرن الثاني الهجري وأثرها في تطور الحركة الإباضية:

بعد الانتصار الذي أحرزه عبدالرحمن بن حبيب على الإباضية عام 132هـ بدا كأنه تمكن – بعد أربع سنوات من حكمه- من القضاء على خصومه، وفي الوقت نفسه حصلت تطورات أخرى في مركز الخلافة، إذ زالت دولة بني أمية، وتمكن العباسيون من التربع على عرش الخلافة الإسلامية، وبوبع أبو العباس السفاح أول خليفة من الأسرة الحاكمة الجديدة، ولما تأكد ابن حبيب من انتصار العباسيين كتب إلى الخليفة بالسمع والطاعة فأقره السفاح على ولايته⁽²⁾، وواضع أن ابن حبيب قد أدى الولاء للخليفة ليضفي شرعية على ولايته، ولكنه لم يلبث أن فتح ذراعيه للأمراء الأمويين الهاربين من تتكيل العباسيين، ورحب بهم وأصهر إليهم، ثم انقلب عليهم وقتل بعضاً منهم، بينهما فر الباقيون وعلى رأسهم عبدالرحمن الداخل إلى الأندلس⁽³⁾، وحاول ابن حبيب مرة أخرى كسب ود العباسيين والحصول منهم على التأكيد اللازم لترسيخ حكمه في ولاية أفريقية، ولكن أبا جعفر المنصور الذي اعتلى عرش الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح لم يكن مطمئناً لموقف ابن حبيب وحاول أن يتأكد من حسن نواياه، فكتب إليه يدعو إلى الطاعة، وإرسال نصيب الخلافة من أموال أفريقية، فأجابه ابن حبيب إلى الطاعة ووجه إليه بهدية بخسة⁽⁴⁾، فغضب أبو جعفر وكتب إليه يتوعدده ويهدده، فلما أتاها الكتاب قرر خلع طاعة أبي جعفر فجمع النساء في المسجد، وخطب الناس قائلاً: «إني ظننت هذا الجائر (أبو جعفر) يدعو إلى الحق ويقوم به حتى تبين لي خلاف ما بايعته عليه من إقامة الحق والعدل، وأنا الآن قد خلعت كما خلعت نعلي هذين»، وقذفهما وهو على المنبر⁽⁵⁾، ثم أمر بنزع السواد، شعار الدولة العباسية، وأمر بتمزيق الرايات والثياب الرسمية التي تحمل هذا اللون ووصفهما بأنها «لباس أهل النار في النار»، ثم أمر كاتبه أن يكتب إلى ولايته يخبرهم بخلع المنصور ويأمرهم بقراءة الكتاب من على منابر المساجد، وقد حدث ذلك في عام

(1) ابن عبدالحكم، ص225-226، أطفيش، الإمكان، ص53.

(2) الرقيق، ص132، ابن عذاري، ج1، ص161.

(3) الرقيق، ص130-132، ابن عذاري، ج1، ص61، النويري، ج1122، ق1، ص39-40، مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص50.

(4) الرقيق، ص134.

(5) الرقيق، ص134.

137هـ أي في نفس العام الذي دخل فيه عبدالرحمن بن معاوية الأندلس⁽¹⁾، وهكذا انفصلت ولاية أفريقية كلياً عن جسم الدولة العباسية، واستقل ابن حبيب وأسرته في حكم البلاد، إلا أن الحظ لم يسعفه طويلاً نتيجة المنازعات الداخلية بين أفراد أسرته واستئناف الخوارج الصفرية والقبائل البربري نشاطهم العسكري ضده، ولم يلبث ابن حبيب سوى أشهر قليلة -بعد خلعه للمنصور- في الحكم قتل بعدها في نفس العام 137هـ/755م على يدي أخيه إلياس الذي كان في السابق سنده وساعده الأيمن، كان إلياس طموحاً لتولي الحكم بعد أخيه عبدالرحمن ولكن الأخير كان يقدم ابنه حبيب ويعزو له كثيراً من الانتصارات التي لم يفعلها ليرفع من مقامه ويقوي مركزه بين الناس، لكي يبايعوه للحكم بعد موت والده، وكان عبدالرحمن أراد لحكم أفريقية أن يكون وراثياً في أعقاب⁽²⁾ه، أثار هذا العمل حفيظة إلياس الذي كان يرى أنه أحق في الولاية من ابن أخيه بحكم سنه وبسبب جهوده في توطيد حكم الأسرة الفهرية في تلك البقية من العالم الإسلامي، وقد استغل الحاقدين على عبدالرحمن هذا النفور بين الأخوين، وأوغروا صدر إلياس ضد أخيه الأموية بعض التأثير في هذا الشأن، وخاصة أنها تكن حقداً دفيناً لعبدالرحمن الذي قتل بعض الأمويين الذين لجأوا إلى أفريقية بعد سقوط الدولة الأموية، ومن بينهم ولدي عمها، فأخذت تحرض زوجها ضد أخيه وتقول له: «أنه يستخف بك، وقتل أصهارك، وولى حبيباً عهده»⁽³⁾، بالإضافة إلى ذلك فإن بعض العرب في القيروان قد استاءوا من عبدالرحمن لخلعه طاعة الخليفة العباسي وكانوا يتحينون الفرص للخلاص منه، ووجدوا في أخيه إلياس الرجل الذي يقوم بهذه المهمة، فأخذوا يحرضونه ضد أخيه ووعدوه بالطاعة إن تخلص منه وبإيع لأبي جعفر المنصور، وقد سنحت الفرصة عام 137هـ عندما عين عبدالرحمن أخاه إلياس والياً على تونس، وتظاهر إلياس بالاستعداد للذهاب إلى تونس وزار أخاه -الذي كان مريضاً آنذاك- مودعاً، وقعد عنده طويلاً ثم انكب عليه يعانقه فوضع السكين بين كتفيه حتى صارت إلى صدره، ثم أعقب ذلك بضربة سيف وانصرف خارجاً فلاقاه أعوانه الذين كانوا ينتظرون النتيجة فأعلمهم بما حدث، وأصروا عليه بأن يرجع ويجتزأ رأس أخيه حتى يطمئنوا إلى ذلك ففعل!، وكان حبيب بن عبدالرحمن مع والده في قصر الإمارة، ولكنه استطاع الخروج مستخفياً حتى وصل تونس حيث كان عمه عمران بن حبيب، فأخبره بما حدث، وأخذ الاثنان يحشدان أعوانهما ومواليهما لمواجهة إلياس، وفي عام 138هـ خرجا لمحاربته والتقى الطرفان في موقع يعرف باسم سمنجة، ودارت مفاوضات بينهما انتهت باتفاق رضي به جميع وجهاء الأسرة الفهرية، ونص الاتفاق على أن يبقى عمران والياً على تونس وصطفورة والجزيرة (جزيرة شريك)، وأن يلي حبيب قفصة وقسطنطية (بلاد الجريد) ونفزاوة، وما تبقى من ولاية أفريقية والمغرب يكون تحت إمرة إلياس بن حبيب⁽⁴⁾، ويبدو أن إلياس لم يكن مخلص النية وأراد من الاتفاق أن يكون وسيلة لزعزعة خصومه وتقريبهم ثم مواجهتهم فرادى، وقد نجح في ذلك، فبعد الاتفاق سار مع أخيه عمران إلى تونس، وهناك قبض عليه وأرسله مخفوراً مع بعض أفراد أسرته إلى الأندلس وبذلك أمن شره وخلصت له تونس وتوابعها بدون قتال⁽⁵⁾، وفعل نفس الشيء مع ابن أخيه حبيب إلا أن حبيباً توقف وهو في طريقه إلى الأندلس في طبرقة مدعياً أن الريح جعلت سيره مستحيلاً، فاجتمع إليه مواليه وأعوانه -ربما طبقاً لخطة موضوعة قبل رحيله- وسار الجميع إلى والي طبرقة، سليمان الرعيني، فأسروه ثم ساروا جنوباً واحتلوا الأربس على مسيرة يوم من

(1) الرقيق، ص134، ابن عذاري، ج1، ص67، النويري، ج22، ص39-40.

(2) الرقيق، ص134-135، ابن عذاري، ج1، ص67، النويري، ج22، ق1، ص40.

(3) الرقيق، ص134، أنظر أيضاً النويري، ج22، ق1، ص41.

(4) الرقيق، ص136-137، ابن عذاري، ج1، ص68، النويري، ج22، ق1، ص41، ابن الأثير، ج5، ص214.

(5) الرقيق، ص137، ابن عذاري، ج1، ص68، النويري، ج122، ق1، ص41-42.

القيروان، ولما علم إلياس بما حدث استخلف على القيروان محمد بن خالد القرشي، وسار مسرعاً لمواجهة حبيب، والتقى في مكان قريب من القيروان حيث جرت مناوشات خفيفة بينهما، توقفت عند المساء، ثم أمر حبيب بإيقاد النار في معسكره ليظن إلياس أنه مقيم هناك، وانسحب تحت جنح الظلام القيروان، وتمكن من احتلالها بمساعدة بعض أهلها المناوئين لسياسة إلياس، ومضى إلياس في أثره فخرج حبيب للقائه في مكان غير بعيد من القيروان، ودعا حبيب عمه إلى حقن الدماء وعرض عليه المبارزة فمن قتل الآخر خلا له المر، وخاطب عمه قائلاً: «لم نقتل صنائعنا ومواليينا وهم لنا حصن أبرز أنا وأنت، فأينا قتل صاحبه استراح منه»، وأيد الفكرة أتباع الرجلين ونادوا إلياس: «قد أنصفك يا إلياس»، فخرجا وتبارزا وقتل إلياس، وكان ذلك في عام 138 هـ⁽¹⁾، وأصبح حبيب بن عبدالرحمن يسيطر على معظم ولاية أفريقية والمغرب الأدنى.

الصراع بين حبيب بن عبدالرحمن وقبيلة ورفجومة البربرية:

التجأ أخوة إلياس وبعض أقاربه وأتباعه -بعد مقتله- إلى قبيلة ورفجومة إحدى بطون قبيلة نفزة، وكان هذا العمل بداية النهاية لحكم الأسرة الفهرية، وأرسل حبيب بن عبدالرحمن إلى زعيم ورفجومة عاصم بن جميل يطلب منه أن يرد أعمامه وأقاربه إليه ولكنه رفض، فسار إليه حبيب، بعد أن استخلف ابا كريب جميل بن كريب القاضي على القيروان، والتقى في ميدان المعركة، ولكن حبيباً انهزم وسار إلى قابس وأصبحت طريق القيروان مفتوحة أمام ورفجومة وأعوانها، ولم يبذلوا جهداً كبيراً في سبيل الاستيلاء عليها وذلك لأن أناساً من أهلها يبدو أنهم ضجروا من الحرب المستمرة والمنازعات الدائمة بين أفراد الأسرة الفهرية كما أن البعض الآخر كان موالياً للخلافة العباسية، فانتهاز هؤلاء الفرصة وأرسلوا إلى ورفجومة لا يعينها من أمر العباسيين شيء إلا أنها تظاهرت بقبول الشرط، وسارت نحو القيروان، فخرج أبو كريب -الذي كان والياً عليها نيابة عن حبيب- للقاء الغزاة وعندما اقترب الطرفان خرج من عسكر أبي كريب أولئك الناس الذين كاتبوا ورفجومة سراً وخذلوا الناس عن الحرب ودعوهم إلى طاعة زعيم ورفجومة عاصم بن جميل، فتفرق جل من كان مع أبي كريب، وبقي في ألف من أصحابه، وحاربوا ورفجومة وأعوانها بشجاعة نادرة إلا أن الكثرة غلبت الشجاعة، وانهزم أبو كريب وقتل مع معظم أصحابه، ودخلت ورفجومة القيروان، واستحلوا المحرمات وسبوا النساء والصبيان وربطوا دوابهم في المسجد الجامع وقتلوا من بالمدينة من قريش وندم الذين استقدموهم أشد ندامة⁽²⁾.

بعد احتلال القيروان استخلف عاصم بن جميل عليهما عبدالملك بن أبي الجعد النفزي، بينما توجه على رأس قوة من أتباعه لمحاربة حبيب بن عبدالرحمن في قابس، ودارت بينهما معركة

(1) الرقيق، ص138، ابن عذاري، ج1، ص68-69، النويري، ج22، ق1، ص42، ابن الأثير، ج5، ص315.

(2) الرقيق، ص140-141، ابن عذاري، ج1، ص70، النويري، ج22، ص43، ابن الأثير، ج5، ص315، سعد زغول عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ص305-307، يرى بعض المؤرخين والكتاب المحدثين أن ورفجومة كانت صفرية. أنظر: سعد زغول عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ص207، مراجع الغناي، القوى المتصارعة في المغرب خلال القرن الثاني الهجري، ودور ليبيا فيه، مجلة كلية الآداب، جامعة بنغازي، 1976م، ص88.

أما الدكتور حسين مؤنس فيرى أن الدعوة الصفرية قد سرت في قبيلة ورفجومة، ولما يتمكن الإسلام في نفوسهم بعد فاضلتهم وأخرجتهم عن الإسلام. أنظر: حسين مؤنس، ثورات البربر في أفريقية والأندلس، مجلة كلية الآداب، القاهرة، ج1، 1948م، ص185، ويبدو أن أعمال ورفجومة بالقيروان وما تنسبه المصادر إلى زعيمها من مبادئ ومعتقدات تدل على أنها غير مسلمة، أو أنها أسلمت ولما يتمكن الإسلام من نفوس أهلها، فعادت وارتدت عن الإسلام، ونادى زعماءها بمبادئ وشعارات مناقضة تماماً لتعاليم الإسلام، فقد وصف المؤرخون زعم ورفجومة عاصم بن جميل بأنه كان كاهناً كما ادعى النبوة، وبذل في الدين وأسقط اسم النبي من الأذان، وزاد في الصلاة، وهذا كله يدل على أنهم ليسوا خوارج صفرية كما زعم بعض الكتاب المحدثين، أضف إلى ذلك فإن المصادر لا تشير إلى ورفجومة كخوارج صفرية ولكنها تذكر أن قوماً من الخوارج قد انضموا إلى ورفجومة، وهذه الإشارة لا تعني أن ورفجومة نفسها كانت خارجية المذهب. أنظر الرقيق، ص141، ابن عذاري، ج1، ص70، ابن الأثير، ج5، ص315، النويري، ج33، ق1، ص43-44، ابن خلدون، ج4، ص409.

انتهت بهزيمة حبيب مرة أخرى، واضطر إلى اللجوء إلى أخوال أبيه في جبل أوراس حيث أعانوه وأمدوه بالمال والرجال، ثم لحق به عاصم واقتتلا وانتصر حبيب في هذه المرة وقتل عاصماً وكثيراً من رجاله⁽¹⁾، ثم أقبل حبيب يريد القيروان فخرج إليه عبد الملك بن أبي الجعد النفزي والتقى الطرفان في عام 140هـ في معركة قاسية استبسل فيها حبيب ورجاله إلا أنه قتل في النهاية وانهزم أتباعه، وبقيت ورفجومة تسيطر على القيروان حتى أخرجها الإباضية بعد إعلان إمامتهم كما سنرى.

الإباضية يعلنون إمامة الظهور:

أثناء الفترة التي تلت مقتل إسماعيل بن زياد النفوسي الإباضي عام 132هـ رجع إباضية المغرب إلى مرحلة الكتمان لينظموا أنفسهم من جديد، وينشروا دعوتهم سرّاً في مناطق جديدة، وكان إبان ذلك يراقبون التطورات السياسية في شمال أفريقية محاولين انتهاز الفرصة المناسبة لإعلان إمامة الظهور، وكانت المنازعات الداخلية بين أفراد الأسرة الفهرية الحاكمة ونفزة من جهة أخرى قد أغرقت الشمال الأفريقي في حرب دموية مستمرة أدت إلى فقدان الأمن والطمأنينة وجعلت الناس يتوقفون إلى تنصيب حاكم قوي يعيد الاستقرار لبلادهم، ويخلصهم من ويلات الحروب والمنازعات الدائمة، ورأى إباضية المغرب في هذه الظروف والأحوال السائدة فرصة مناسبة لتحقيق حلمهم في إعلان الإمامة وتأسيس دولة خاصة بهم، وقد شجعهم على ذلك عودة حملة العلم الخمسة من البصرة محملين بإرشادات ونصائح إمام الإباضية الأكبر أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي، ومن ضمنها إشارته عليهم بإعلان الإمامة حينما يطمئنون إلى قوتهم، وإلى إمكانية الظفر بعدوهم، وفي عام 140هـ وهو العام الذي رجع فيه حملة العلم إلى المغرب انتخب الإباضية أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري الحمير لمنصب الإمامة طبقاً لأوامر أبي عبيدة الذي أمر بتعيين أبي الخطاب هذا في حديثه مع حملة العلم الخمسة استشاروا أبا عبيدة بشأن تعيين إمام لهم أن أنسوا من أنفسهم قوة وقالوا له: «إذا وجدنا من أنفسنا طاقة أفنولي على أنفسنا رجلاً منا؟ أو ما ترى؟ فقال لهم أبو عبيدة: توجهوا إلى بلادكم فإن كان في أهل دعوتكم ما يجب به عليكم التولية في العدد والعدة من الرجال فولوا على أنفسكم رجلاً منكم، فإن أبي فاقتلوه، وأشار إلى أبي الخطاب»، ليس هذا فحسب بل أنه عين أحد حملة العلم وهم إسماعيل بن درار الغدامسي ليكون قاضياً لهم⁽²⁾.

بعد أن عادت البعثة العلمية من البصرة باشر أعضاؤها بالاتصال بجماعة الإباضية وخاصة في منطقة طرابلس وجبل نفوسة، وأخذوا يهيئون القبائل البربرية التي اعتنقت المذهب الإباضي - مثل قبيلة نفوسة وهوارة - استعداداً للثورة وإعلان الإمامة، وكان أبو الخطاب نفسه يقوم بالاتصال بأعيان الإباضية ومشايخ القبائل ويتشاور معهم حول وجوب إعلان الإمامة وأفضل السبل والأوقات لتحقيق هذا الهدف⁽³⁾، وبعد مشاورات طويلة وسرية بين حملة العلم وزعماء الإباضية في منطقة طرابلس استقر الرأي على أن الظروف ملائمة لإعلان الإمامة، وأن لديهم من القوة البشرية والمادية ما يستطيعون به مواجهة عدوهم وإحراز النصر عليه، وتذكر بعض الروايات الإباضية أن زعماء الإباضية أخذوا يتشاورون فيمن يولونه أمرهم، وعرضوا ذلك على عبدالرحمن بن رستم فاعتذر⁽⁴⁾، إلا أن هذه الرواية مشكوك في صحتها لأن الإمام كان قد عين من جانب أبي عبيدة ومن غير المعقول أن يتجاوز الإباضية أو أمره ويضربون بوصيته عرض الحائط، والأرجح أن هذه

(1) الرقيق، ص 141، ابن عذاري، ج 1، ص 70، النويري، ج 22، ق 1، ص 43.

(2) أبو زكريا، ورقة 7، الدرجيني، ورقة 8، شماخي، سير، ص 124.

(3) أبو زكريا، ورقة 8.

(4) أبو زكريا، ورقة 8، الدرجيني، ورقة 8.

الرواية قد دست فيما بعد لتزيد من قيمة عبدالرحمن بن رستم -مؤسس الدولة الرستمية- وترفع من قدره لتقوى مركزه بين أتباعه ورعيته، وعلى أية حال فالثابت أن إياضية طرابلس قد استقر رأيهم -بناء على توصية إمامهم الأكبر أبي عبيدة التميمي البصري- على انتخاب أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري ليكون أول إمام ظهور في شمال أفريقية، وتشير المصادر الإياضية إلى كيفية انتخابه فتذكر أن أعيان الإياضية وشيوخ القبائل الموالية كانوا يخرجون إلى موقع قريب من طرابلس يدعى صياد للتشاور في أفضل السبل لتحقيق هذا الغرض، وكانوا يزعمون أنهم يجتمعون هناك لقسمة أرض مشتركة أو أنهم يشمون في صلح بين متخاصمين، وإمعاناً في السرية فقد كان زعماءهم ووجهاءهم يذهبون بعد عودتهم لمدينة طرابلس لزيارة الوالي والسلام عليه، وكان بعضهم يسمر عنده في الليل، حتى لا ينكشف أمرهم وتفشل جهودهم⁽¹⁾، وعندما اتفقوا على عقد الإمامة لأبي الخطاب واجتمعت كلمتهم عليه جعلوا بينهم يوماً معلوماً ليجمعوا فيه في صياد، حيث تتم البيعة، وفي الوقت المحدد جاءوا إلى صياد وأتوا بأبي الخطاب وبايعوه بالإمامة على أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وآثار الصالحين، واشترط عليهم أبو الخطاب أن لا يذكر في عسكره مسألة الحارث وعبد الجبار اللذين مر ذكرهما ووجدا مقتولين وسيف كل منهما في جثة صاحبه، حتى لا يحدث الخلاف وتذب الفرق بين جماعته، فقبلوا هذا الشرط وتمت البيعة في عام 140 هـ⁽²⁾، وبعد أن تمت مراسيم البيعة في صياد توجهوا إلى مدينة طرابلس للاستيلاء عليها طبقاً لخطة كانوا قد وضعوها من قبل، وتذكر المصادر الإياضية أن الخطة كانت تقضي بأن يأتي كل واحد ممن حضر البيعة برجال من عشيرته ومعهم سلاحهم ثم يتوجهون إلى المدينة، وكأنهم تجار أرادوا بيع بضاعتهم، وعندما يتوسطون المدينة يخرج الرجال بأسلحتهم من الجواليق المحملة على الجمال ويحكمون، فيخرج لمساعدتهم من بالمدينة من أهل دعوتهم الذين كانوا على علم سابق بالخطة والموعد المحدد لتنفيذها، وأياً كان الصحيح في تفاصيل هذه الرواية فالثابت أن الإياضية استطاعوا دخول طرابلس على حين غرة، ولم يتمكن الوالي من الاستعداد للدفاع عن المدينة فاضطر للاستسلام، وخبره الإياضية بين الخروج بأمان أو القعود في المدينة على أن ينزع نفسه من الولاية، فاختار الخروج واتجه إلى المشرق واستولى أبو الخطاب على طرابلس وأحسن السيرة وأظهر العدل ولم يتعرض للسكان بأذى⁽³⁾.

بعد هذا النجاح الذي حققه الإياضية في المغرب أرسلوا إلى إمامهم الأكبر في البصرة، أبي عبيدة التميمي، يخبرونه بإنجازاتهم ويطلبون رأيهم في بعض المسائل، وسر أبو عبيدة بذلك، وأرسل إليهم كتاباً هنأهم فيه وأجابهم على استفساراتهم وجاء فيه: «أتاني كتابكم تذكرون فيه ما من الله به عليكم من جمع كلمتكم وائتلاف أمركم في كثرة من حضرتم من أهل الخلاف لكم، ولعمري ما كثرتهم وإن كثروا بأكثر ممن كان قبلهم على من قبلكم في جميع أموركم، وأن يكفنا وإياكم بأسهم، وأن يجعل لنا ولكم ولجميع المسلمين الدائرة عليهم، ويشفي صدور قوم مؤمنين، ويذهب غيظ قلوبهم، فلعمري لقد أسرني ما انتهيتم إليه من أمركم، وإن كان ذلك لم يخف عنا، غير أنا لم نظن الذي كتبتم به إلي، والله يستتم لكم الخير كله بعونه وتوفيقه.

(1) أبو زكريا، ورقة 8.

(2) أبو زكريا، ورقة 8، الدرجيني، ورقة 10، شماخي، سير، ص 125-126.

(3) أبو زكريا، ورقة 9، الدرجيني، ورقة 10-11، شماخي، سير، ص 125-126.

أتانا كتابكم بمسائل: فمنها ما رأيت أن أجيبكم فيها، ومنا ما رأيت ألا نجيبكم من غير هوان ولا تقصير إلا الذي رأيت أنه أصلح لجماعتكم وأقوم لشأنكم وأرفق لضعيفكم وأعطف في الذي أجيبكم فيه، فما كان من صواب فمن الله وما كان من خطأ في رواية أو خبر أو غير ذلك فمن نفسي..»⁽¹⁾.

يتضح من هذه الرسالة أن أبا عبيدة كان على اتصال مستمر مع أتباعه في المغرب، وأنهم كانوا يأترون بأمره ويستترشدون بنصائحه، وواضح كذلك أن أبا عبيدة كان يتجنب الخوض في مسائل فلسفية عميقة، أو يجيب على أسئلة قد تؤدي إلى اختلاف الرأي بين أصحابه في مشال أفريقية، وخاصة أنه كان على دراية بأن بعض من اعتنق المذهب لم يتمكن من تعاليمه بعد، كما أن البعض الآخر لم يفعل ذلك عن قناعة وفهم، بل كان مدفوعاً بعصبية قبلية أو مصلحة ذاتية⁽²⁾.

الإباضية يحتلون القيروان – قصبة أفريقية:

بعد أن احتل أبو الخطاب طرابلس واطمأن إلى استقرار الأحوال فيها قرر أن يوسع حدود ولايته على حساب ممتلكات مخالفيه في المذهب، فاحتل جزيرة جربة وجبل دمر عام 140هـ⁽³⁾، ثم استولى على قابس في نفس العام، ودانت له معظم بلاد المغرب الأدنى⁽⁴⁾، بعد ذلك رنا ببصره صوب القيروان –عاصمة أفريقية وقصبتها- وترى المصادر السنية⁽⁵⁾ والإباضية⁽⁶⁾ أن سبب خروج أبي الخطاب إلى القيروان كان استجابة لاستغاثة النساء القيروانيات اللاتي أرسلن له يصفن فساد ورفجومة وانتهاكها للحرمانات، ومهما كانت صحة هذه المعلومات فالمرجح أن أبا الخطاب كان يتوق لاحتلال القيروان لما تنثيره من ذكريات مجيدة وعزيزة في نفوس المسلمين، حيث أنها أول مدينة إسلامية في بلاد المغرب وعاصمة ولاية أفريقية، وما قيل عن ظلم ورفجومة وفسادها – وإن صح- إنما كان ذريعة لإلهاب مشاعر الإباضية وتحسيسهم للاشتراك في الحملة العسكرية المزمع القيام بها ضد ورفجومة التي كانت تسيطر آنذاك على القيروان.

كان أبو الخطاب يدرك أهمية ضم القيروان «لمملكته» ولذا عمل كل ما في وسعه لضمان حملته العسكرية، وتذكر بعض الروايات أنه نادى قبل سيره- بالصلاة الجامعة وخطب أتباعه مرغباً إياهم في الجهاد وطالباً منهم الصبر والجلد في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود، ثم أمر أصحابه بالتأهب الكامل دليلاً على تصميمه للوصول إلى مآربه ونادى: «لا حكم إلا لله»، فاجتمع إليه أصحابه وهم ينادون: «لا حكم إلا لله ولا إمام إلا أبي الخطاب»⁽⁷⁾، وعلى الرغم من الحماس الذي أبداه أتباعه فقد أراد أن يطمئن إلى أن كل من صحبه في سيره مخلص ومصمم على الموت في سبيل المبدأ والهدف وقرر أن لا يشترك في الحملة متردد أو متخاذل أو من لم تسعفه ظروفه الخاصة لأي سبب كان، وأمر مناديه أن ينادي: «من له أبوان كبيران أو أحدهما فليرجع، ومن له عروس قريب عهدا فليرجع، ومن أراد الرجوع منكم فليرجع بالليل»⁽⁸⁾، وتبعاً لذلك رجع جماعة من جيشه وعدلوا عن الاشتراك في الحملة وبقي أبو الخطاب في ستة آلاف من أصحابه⁽⁹⁾، وسار بهم إلى القيروان فألقى عليها الحصار ولما أبت عليه لجأ إلى الحيلة فأمر أصحابه أن يخرجوا بالليل

(1) أبو عبيدة، رسالة في أحكام الزكاة، ورقة 114.

(2) المصدر نفسه.

(3) أبو راس، مؤنس الأحبة، ص45.

(4) أبو زكريا، ورقة 10، الدرجيني، ورقة 11، شماخي، سير، ص128.

(5) الرقيق، ص141، ابن الأثير، ج5، ص216، النويري، ج22، ق1، ص44.

(6) أبو زكريا، ورقة 10، الدرجيني، ورقة 11، شماخي، سير، ص127.

(7) أبو زكريا، ورقة 10.

(8) أبو زكريا، ورقة 10، الدرجيني، ورقة 11، أنظر أيضاً: شماخي، سير، ص127.

(9) أبو زكريا، ورقة 11، الدرجيني، ورقة 11، شماخي، سير، ص197.

إلى مكان يدعى رقادة، غير بعيد عن القيروان، ليوهم العدو أنه انسحب، وفي الصباح وجدت ورفجومة منزل أبي الخطاب خالياً فاعتقدوا أنه لم يعد يقوى على الحصار فأثر الانسحاب فتعقبوه، ولما وصلوا رقادة فوجئوا بكمانه، ودار قتال بين الطرفين انتصر فيه أبو الخطاب وهربت ورفجومة راجعة إلى القيروان، وفي هذه الأثناء انضم بعض أهل القيروان إلى أبي الخطاب لسخطهم على ورفجومة ورغبتهم في التخلص من سيطرتها وبذلك استطاع أبو الخطاب أن يتغلب على عدوه ويحتل القيروان في عام 141هـ⁽¹⁾.

وترسم المصادر الإباضية كعادتها- صورة مثالية للمعاملة الحسنة التي لقيها أهل القيروان من أبي الخطاب الذي أمر أصحابه بأن لا يتبعوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، وقرع أحد أصحابه عندما أشار عليه بأخذ أموال المهزومين جرياً على المعاملة بالمثل، ولكن أبا الخطاب ذكره أن مبادئهم لا تجيز ذلك وأن دماء مخالفيهم وأموالهم حرام عليهم وخاطبه قائلاً: «إن فعلنا ما فعلوا فحقيق على الله أن يرفضنا، ويدخلنا معهم جهنم، فنكون كما قال الله تعالى: [كلما دخلت أمة لعنت أختها، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أحرهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون]»⁽²⁾، والواقع أن الإباضية كانوا يعاملون أعداءهم المهزومين بإحسان وعدل، ولا تذكر المصادر غير الإباضية شيئاً معاكساً لذلك وإن كانت لا تسرف في المديح ولا تنطب في الحديث عن مثالية الإمام الإباضي كما تفعل المصادر الإباضية.

بعد أن نظم أبو الخطاب الأمور في القيروان عين والياً عليها عبدالرحمن بن رستم الفارسي، أحد حملة العلم الخمسة، وعاد هو إلى طرابلس التي اتخذها مقراً له ربما لكثرة الإباضية في تلك المنطقة وخاصة في جبل نفوسة، ولكي يستعد لمواجهة الخطر المحدق به من الشرق بعد أن صمم العباسيون على استعادة سلطان الخلافة في بلاد المغرب⁽³⁾.

الصراع بين الإباضية والخلافة العباسية:

لم تعط الإدارة العباسية انتباهاً كافياً لما كان يجري في بلاد المغرب خلال العقد الرابع من القرن الثاني الهجري نظراً لانشغالها بتوطيد حكمها في الولايات الشرقية، ولما تم لها ذلك رنت ببصرها صوب المغرب، وصمم أبو جعفر المنصور -ال خليفة العباسي آنذاك- على بذلك كل ما في وسعه لإعادة بلاد المغرب إلى حوزة الخلافة العباسية⁽⁴⁾، وفي عام 142هـ عين أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الخزاعي والياً على مصر وأمره بتوجيه الجيوش للمغرب وإعادة ضمها إلى حظيرة الدولة العباسية، وفور وصوله إلى مصر أرسل حملة بقيادة العوام بن عبدالعزيز البجلي ضد الإباضية الذين سيطروا آنذاك على بلاد المغرب الأدنى، ولما سمع أبو الخطاب بذلك سار للقاءه، وعندما وصل موقع ودراسة أرسل أحد قواده لمجابهة العوام بن عبدالعزيز وهزم الأخير

(1) أبو زكريا، ورقة 10-11، الدرجيني، ورقة 11-12، شماخي، سير، ص 127-128. أنظر أيضاً: ابن الأثير، ج 5، ص 217، ابن عذاري، ج 1، ص 71، النويري، ج 22، ق 1، ص 44، البكري، ص 28.

(2) سورة الأعراف، آية 38، عن المعلومات أنظر: أبو زكريا، ورقة 11، الدرجيني، ورقة 11-12، شماخي، سير، ص 128.

(3) أبو زكريا، ورقة 11، الدرجيني، ورقة 11، النويري، ج 22، ق 1، ص 44، أنظر أيضاً: ابن الأثير، ج 5، ص 217.

(4) حاول الخليفة العباسي الأول إعادة ضم المغرب للخلافة العباسية، وأرسل حملة عسكرية للمغرب لتحقيق هذا الهدف ولكنه اضطر للعدول عن هذا الرأي نظراً للمشاكل التي برزت في بعض ولايات المشرق مثل ثورة عبدالله بن علي، عم الخليفة. أنظر مزيداً من التفاصيل في: الكندي، الولاة والقضاء، ص 102-123، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 1، ص 331، سعد زغول، عبدالحميد، تاريخ المغرب العربي، ص 292-295، إحسان عباس، تاريخ ليبيا، ص 45-46.

وعاد إلى مصر⁽¹⁾، وفي نفس العام تمكنت جيوش أبي الخطاب من هزيمة جيش آخر بقيادة أبي الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي⁽²⁾.

لما سمع الخليفة بهذه الانتصارات التي أحرزها الإباضية بعث إلى واليه ابن الأشعث يأمره بالسير لحرب الإباضية وأمدّه بجيش كبير بلغ مقداره 140 ألف رجل⁽³⁾، ووجه معه بعض كبار قادته مثل الأغلب بن سالم التميمي والمحارب بن هلال والمخارق بن غفار الطائي، وأمرهم جميعاً بالسمع والطاعة لابن الأشعث، ولكي يطمئن الخليفة على جنده ويأمن شر الارتباك والفتنة والفوضى فقد أوصل بأن يستلم القيادة الأغلب بن سالم التميمي إن قتل ابن الأشعث أو حدث ما يمنعه من الاستمرار في قيادة الجيش، وإن حدث للأغلب مكروه فتعطى القيادة للمخارق الطائي، وإن قتل الأخير فيستلم المحارب بن هلال قيادة الجيش ولكن الأخير توفي في الطريق⁽⁴⁾.

عندما سمع أبو الخطاب بأنباء سير ابن الأشعث نحو المغرب أرسل لولاته وأتباعه في كل أنحاء المغرب ليوافوه بالرجال والمال لدفع الخطر المحدق بدولتهم الإباضية الفتية، وتجمع لديه ما يزيد على تسعين ألف محارب⁽⁵⁾.

وفي هذه الأثناء كان ابن الأشعث يرسل عيونه وجواسيسه لمعرفة أخبار أبي الخطاب، وقد رجعت عيون ابن الأشعث تحمل له أنباء الحشود الإباضية وتصميم رجال أبي الخطاب على الاستماتة في الدفاع عن دولتهم الناشئة، فضاق ابن الأشعث ذرعاً بهذه الأخبار، وتردد في لقاء أبي الخطاب في البداية ثم لجأ إلى الحيلة لتفريق جند أبي الخطاب، فعمد إلى رجال من عسكره وأمرهم أن يتزوا بزوي رسل قادمين من مركز الخلافة وأودعهم كتاباً منسوباً لأبي جعفر المنصور ومرسلاً ابن الأشعث، وأمرهم أن يتتخوا عن المعسكر وأن يأتوا في الغد وكأنهم قادمون من بغداد ومبعوثون من الخليفة، وفي الموعد الذي حدده لهم جاء الرجال وقدموا على معسكره وسلموا إليه الرسالة ففرضها ابن الأشعث وقرأها على الجند، وادعى أن أبا جعفر أمره بالرجوع لأمر هو أحوج إليهم فيه مما توجهوا إليه، فرجع العسكر نحو مصر ولكن ببطء شديد، وكانت عيون أبي الخطاب تتعقب ابن الأشعث فإذا ارتحل مرحلة ردت منهم طائفة، وفي نفس الوقت كان ابن الأشعث يرسل خيلاً تقطع الأثر خلفه لتتظر هل بقي في معسكره من عيون أبي الخطاب أحد.

وكان بعض جواسيس ابن الأشعث مقيمين في معسكر أبي الخطاب، فلما وصلت عيون أبي الخطاب وأخبروه أن ابن الأشعث رجع إلى مصر، تفرق جند أبي الخطاب ورجعوا إلى منازلهم رغم نصيحة أبي الخطاب وأمره إياهم بعدم العودة حتى يتأكدوا من رجوع ابن الأشعث إلى مصر⁽⁶⁾.

لما أيقن عيون ابن الأشعث بتفريق القوم انطلقوا إلى صاحبهم وأخبروه، فعاد ابن الأشعث مسرعاً نحو المغرب ولم يفتن به أبو الخطاب إلا بعد دخوله، فاضطر أبو الخطاب لمواجهة ابن

(1) شماخي، سير، ص 130.

(2) ابن عذاري، ج 1، ص 71، ابن الأثير، ج 5، ص 317، النويري، ج 22، ق 1، ص 45.

(3) يذكر ابن الأثير أن عدد الجيش كان خمسين ألفاً، بينما تورد المصادر الإباضية أن عدده سبعون ألفاً. أنظر: ابن الأثير، ج 5، ص 317، أبو زكريا، ورقة 12، الدرجيني، ورقة 13، شماخي، سير، ص 120.

(4) ابن عذاري، ج 1، ص 72، النويري، ج 22، ق 1، ص 45، ابن الأثير، ج 5، ص 317.

(5) أبو زكريا، ورقة 12، الدرجيني، ورقة 13.

(6) أبو زكريا، ورقة 12، الدرجيني، ورقة 13، شماخي، سير، ص 131-132. أنظر أيضاً: ابن عذاري، ج 1، ص 72، النويري، ج 22، ق 1، ص 45-46.

الأشعث في معركة عنيفة في ربيع الأول من عام 144هـ في تاورغا قرب سرت، قتل فيها أبو الخطاب وكل أتباعه الذين اشتركوا في المعركة⁽¹⁾، وتعود هزيمة أبي الخطاب إلى الأسباب التالية:

1- أن توقيت المعركة لم يكن في صالحه، فقد كان وقت حصاد ولم يكن خبر عودة ابن الأشعث إلى مصر ينتاهي إلى أسماع القوم حتى أسرعوا إلى أوطانهم لجني محاصيلهم قبل أن تتلف، وقد نصحهم أبو الخطاب بالتمهل ولكن العامة غلبت عليه فأذن لهم بالانصراف⁽²⁾.

2- أما العامل الثاني فهو النزاع الذي نشب بين زناتة وهوارة من أتباع أبي الخطاب واتهمت زناتة أبا الخطاب بميله وتحيزه لهوارة، فانصرف عنه قبيل وصول ابن الأشعث مما قلل عدد أصحابه وأضعف قوة جيشه⁽³⁾.

3- بالإضافة إلى ذلك فإن الحيلة التي اتبعها ابن الأشعث ثم سرعته في السير نحو أبي الخطاب واختيار الموقع كان لها آثار في إضعاف قوة الإباضية الذين حرموا من الماء واضطروا إلى القتال في مكان لم يختاروه ولم يعرفوه⁽⁴⁾.

4- أخطأ أبو الخطاب حينما رفض نصيحة أصحابه الذين أشاروا عليه بعدم السير للقاء ابن الأشعث والانتظار حتى تتكامل قواته وتصله الإمدادات من مختلف البقاع التي يسيطر عليها الإباضية، وتذكر المصادر أن كثيراً من الإمدادات كانت في طريقها إليه عندما علموا بوصول ابن الأشعث إلى حيز طرابلس، ومن بينها جيش يقوده عبدالرحمن بن رستم والي القيروان، وقد وصلته أنباء الهزيمة وقتل الإمام أبي الخطاب بينما كان في طريقه للانضمام إليه⁽⁵⁾.

بعد معركة تاورغا خاض ابن الأشعث معركة أخرى ضد أبي هريرة الزناتي الذي كان يقود 16 ألفاً من أتباعه، ولا تذكر المصادر المتوافرة أية معلومات عن معتقدات الزناتي وأتباعه أو من أين جاءوا ولا المكان الذي حدثت فيها المعركة بينه وبين جند الخلافة، وربما كانوا من إباضية زناتة الذين انفصلوا عن أبي الخطاب ثم ندموا على فعلتهم فكفروا عن خطأهم بمقاتلة ابن الأشعث، ومما يرجح هذا الرأي أن ابن عذارى يذكر أن هزيمة الزناتي قد حدثت في ربيع الأول من عام 144هـ⁽⁶⁾ أي في نفس الشهر الذي حدثت فيه معركة تاورغا، ومن المحتمل أيضاً أن هؤلاء الزناتيين قد جاءوا مدداً لأبي الخطاب واستجابة لندائه قبل نشوب المعركة بينه وبين ابن الأشعث، ولكنهم وصلوا بعد فوات الأوان، فسقطوا فريسة في يد ابن الأشعث وقواته ولاقوا هزيمة مرة⁽⁷⁾.

بعد هذا النصر الذي أحرزه ابن الأشعث تفرق الإباضية في الجبال، والتجأوا إلى حصونهم المنيعه هناك، أما ابن الأشعث فقد سار نحو القيروان ودخلها في جمادى الأولى سنة 144هـ/761م⁽⁸⁾، ثم قام بتحصين المدينة وشيد حولها سوراً استغرق بناؤه ما يقرب من عامين⁽⁹⁾.

(1) أبو زكريا، ورقة 12-13، الدرجيني، ورقة 13، شماخي، سير، ص 131-132. أنظر أيضاً: ابن عذارى، ج 1، ص 72، النويري، ج 22، ق 1، ص 45-46.

(2) أبو زكريا، ورقة 12، الدرجيني ورقة 13، شماخي، سير، ص 121.

(3) ابن عذارى، ج 1، ص 72، النويري، ج 22، ق 1، ص 45.

(4) أبو زكريا، ورقة 13، الدرجيني، ورقة 15.

(5) أبو زكريا، ورقة 13، الدرجيني، ورقة 15، شماخي، سير، ص 122.

(6) ابن عذارى، ج 1، ص 72.

(7) المصدر نفسه.

(8) ابن عذارى، ج 1، ص 72، النويري، ج 22، ق 1- ص 46.

(9) المصدر نفسه.

وفي نفس الوقت الذي اهتم فيه بتحسين المدينة وإعادة تنظيمها فإنه لم يغفل عن ذلك جيوب الثوار وفي مقدمتهم الإباضية، وكان يبادر لمهاجمتهم في أي مكان وفي أي زمان، يشعر فيه بتجمعهم واستعدادهم للثورة محاولاً القضاء على الشر قبل وقوعه، وفي أواخر عام 144هـ أرسل جيشاً ضد الإباضية في منطقة ودان واستطاع إخضاعهم وقتل عدد كبير منهم⁽¹⁾، وفي العام نفسه أرسل حملة أخرى بقيادة إسماعيل بن عكرمة الخزاعي ليخضع الإباضية في منطقة زويلة وكانوا قد تجمعوا تحت إمرة زعيم لهم يدعى عبدالله بن حيان الإباضي، واستطاع الخزاعي أن يخضعهم، واضطر بعضهم للهجرة من زويلة والالتحاق بمعقل الإباضية في المغرب الأوسط، حيث استقر عبدالرحمن بن رستم بعد مقتل الإمام أبي الخطاب، وحاول ابن الأشعث تشتيت جموعهم هناك، فقاد حملة ضدهم وألقى عليهم الحصار، لكن ابن رستم وأتباعه الإباضية كانوا قد تحصنوا في أماكن منيعة جداً لم يستطع ابن الأشعث اجتيازها، وطال الحصار وأصيب جيشه بالجدي وهلك منهم خلق كثير مما اضطره للعودة إلى القيروان تاركاً ابن رستم وشأنه في المغرب الأوسط، وكان لهذا الفشل أثر كبير في رفع معنويات ابن رستم وأتباعه الإباضية، مما شجعهم على المضي قدماً في الاستعداد لتأسيس دولة إباضية في تلك المنطقة من بلاد المغرب واستطاعوا تحقيق ذلك نحو عام 162هـ كما سنرى⁽²⁾.

على الرغم من فشل حملة ابن الأشعث ضد إباضية المغرب الأوسط فإن جهوده في قمع الحركات المناوئة على اختلافها قد أدت إلى خلق الهدوء والاستقرار في المغرب الأدنى وأفريقية، وتشير المصادر إلى أن ابن الأشعث بقي نحو ثلاثة أعوام (145هـ-147هـ) ينعم بالهدوء والسلام، ولم يبق في أفريقية ما يعكر صفو الأمن، وانصرف الناس إلى أراضيهم ومزارعهم يستغلونها في جو من الاستقرار والطمأنينة، ولعل هذا ما يفسر لنا خصوبة الأرض وكثرة الإنتاج الذي تتكلم عنه المصادر في عام 145هـ⁽³⁾، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً نظراً للنزاع الذي نشب بين جند الخلافة أنفسهم، فقد انشق عن ابن الأشعث بعض قادة الجيش الذين رافقوه في حملته على بلاد المغرب، واتهموه بالعصبية القبلية والاستبداد في الرأي، وهددوه بالموت إن لم يتخل عن الولاية، وأمام هذه المعارضة اضطر ابن الأشعث للتخلي عن الولاية والرجوع إلى المشرق وولى الجند عليهم عيسى بن موسى الخراساني -أحد أبرز المناوئين لابن الأشعث- حتى يأتيهم الوالي الجديد، فعين الخليفة الأغلب بن سالم التميمي خلفاً لابن الأشعث، وكان الأغلب قد جاء في جيش ابن الأشعث وولاه الأخير على الزاب وطبنة، ولما جاءه أمر الخليفة بتعيينه والياً ارتحل إلى القيروان وكان ذلك عام 148هـ، وقد بدا أن الأغلب سوف يحظى بتأييد جند الخلافة ويتفرغ لمحاربة الثوار الخوارج، وتعمير البلاد، وبقي نحو عامين دون معارضة تذكر، وفي عام 150هـ ثار الخوارج الصفرية بزعامة أبي قرّة اليفرنى في منطقة تلمسان فخرج إليه الأغلب، مخلفاً سالم بن سودة التميمي نائباً عنه في القيروان، ففر أبو قرّة أمام جيش الأغلب وحاول الأخير اللحاق به إلى منطقة طنجة ولكن الجند انشقوا عنه ورفضوا خطته معتقدين بعدم لزوم ملاحقة الخوارج بعد أن أبعدوا إلى القيروان، ولم يلبث أن ثار عليه بعض القادة، واضطر الأغلب إلى محاربة جنود كانوا في الأصل تحت إمرته، ولاقى حتفه في هذا النزاع عام 150هـ⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري، ج1، ص73.

(2) ابن عذاري، ج1، ص73، أبو زكريا، ورقة 13، الدرجيني، ورقة 15، شماخي، سير، ص133.

(3) ابن عذاري، ج1، ص72، النويري، ج22، ق1، ص45 وما بعدها.

(4) ابن عذاري، ج1، ص73-75، النويري، ج22، ق1، ص45-48، ابن الأثير، ج5، ص318، 586-587.

عندما علم الخليفة بذلك عين عمر بن حفص، من ولد قبضة بن أبي صفرة أخي المهلب والياً على أفريقية والمغرب، وكان عمر من القادة البارزين الشجعان حتى أنه كان يلقب هزارمرد وهي كلمة فارسية تعني ألف رجل⁽¹⁾، وصل عمر القيروان عام 151هـ يرافقه حرسه المكون من 500 فارس، ولكن لشجاعته وبطولته أثر كبير في انقياد الناس له، أضف إلى ذلك أنه كان لبقاً في استمالة الناس وتأليف قلوبهم، إذ أنه تقرب من وجهائهم ووصلهم بالهدايا والأموال، وأحسن معاملتهم مما أدى إلى إذعانهم له واعترافهم بزعامته، وبقي في القيروان نحو ثلاثة أعوام ونيف ينظم شؤونها في سلام وطمأنينة ولم نسمع عن معارضة جدية قامت ضده أثناء تلك الفترة مما يشير إلى قبول الجند بقيادته ورضاهم عن سيرته⁽²⁾.

وفي عام 154هـ واجه ابن حفص أخطر ثورة خارجية في بلاد المغرب ضمت الصفرية والإباضية، وبدأت بذلك مرحلة جديدة من الصراع بين الإباضية وبين الولاة المهالبة الذين حكموا أفريقية وبلاد المغرب نحو ربع قرن من الزمان (151هـ-178هـ).
الصراع بين الإباضية والولاة المهالبة:

بعد موت الإمام أبي الخطاب عام 144هـ/761م اضطر الإباضية في المغرب الأدنى وأفريقية إلى العودة إلى مرحلة الكتمان، لعدم قدرتهم على الاستمرار في مرحلة الظهور، ولما كانوا مهددين بالخطر من جانب الولاة العباسيين فقد اضطروا إلى إعلان مرحلة الدفاع وانتخبوا أبا حاتم يعقوب بن حبيب الملزوزي إمام دفاع لهم عام 145هـ/762م⁽³⁾، ويبدو أن سلطان أبي حاتم كان مقصوراً على بعض مناطق طرابلس، وأن ولايته كانت للدفاع فقط وفي ذلك تقول المصادر الإباضية: «فلما أنس المسلمون (الإباضية) من أنفسهم قوة في حيز طرابلس اجتمعوا فأظهروا في اجتماعهم في شأن امرأة صالحة اسمها مسلمة أساء إليها زوجها فلما اتقنوا رأيهم وحضر كل من ينظر إليه عقدوا الولاية لأبي حاتم»، «وكانت ولايته ولاية الدفاع وطلب الحق»⁽⁴⁾، ويبدو أن أبا حاتم كان ينظر إلى عبدالرحمن بن رستم -الذي كان قد لجأ إلى المغرب الأوسط بعد موت أبي الخطاب وأقام مركزه في تاهرت- على أنه الإمام الذي يجب أن يعترف ببقية الإباضية بإمامته، والدليل على ذلك أن أبا حاتم كان «يرسل ثقافته بما يجتمع من مال الصدقة إلى عبدالرحمن قبل ظهوره»⁽⁵⁾، ولعل مرد ذلك إلى أن عبدالرحمن كان أحد حملة العلم الخمسة كما عينه أبو الخطاب -أول إمام ظهور في شمال أفريقية- قاضياً لطرابلس ثم والياً على القيروان، ولذا فقد كان يتمتع بمكانة رفيعة جعلت بقية الإباضية في شمال أفريقية ينظرون إليه زعيماً وقائداً رغم أنه لم يعتبر بعد إمام ظهور.

(1) النويري، ج22، ق1، ص48، ابن الأثير، ج5، ص595.

(2) ابن عذاري، ج1، ص75، ابن الأثير، ج5، ص595، النويري، ج22، ق1، ص48، ابن خلدون، ج4، ص412.

(3) أبو زكريا، ورقة 13، الدرجيني، ورقة 15، شماخي، سير، ص134، يختلف المؤرخون في أصل أبي حاتم، إذ أن النويري وابن الأثير والشماخي يذكرون بأنه مولى كندة، أما أبو زكريا والدرجيني والبرادي فيذكرون أنه من هواره ويجعله البلاذري من سدراته، بينما ينسبه ابن خلدون إلى قبيلة مغيلة. أنظر: النويري، ج22، ق1، ص49، ابن الأثير، ج5، ص598، شماخي، سير، ص133، أبو زكريا، ورقة 13، الدرجيني، ورقة 15، برادي، الجواهر، ص173، البلاذري، فتوح، ص276، ابن خلدون، ومن المرجح أن أبا حاتم ينتمي إلى قبيلة هواره أشد القبائل البربرية حماساً للمذهب الإباضي منذ بداية تسربه إلى الشمال الأفريقي، ويبدو أن ابن خلدون قد أخطأ فوضع مغيلة بدلاً من مليلة وهي إحدى بطون هواره.

(4) أبو زكريا، ورقة 13، الدرجيني، ورقة 15، شماخي، سير، ص134.

(5) أبو زكريا، ورقة 13، الدرجيني، ورقة 15.

ويبدو أنه كان هناك زعماء إباضيون آخرون في مناطق أخرى من بلاد المغرب مثل عاصم السدراتي⁽¹⁾ والمسور الزناتي، ويذكر بعض الدارسين المحدثين أن هؤلاء الزعماء الإباضية كانوا مستقلين بعضهم عن بعض⁽²⁾، ولكن المصادر الإباضية تشير إلى عكس ذلك، وتذكر أنهم جميعاً كانوا يعترفون بسلطة أبي حاتم وينضون تحت إمرته في أوقات الحرب، وهذا يدل على أن أبا حاتم كان إمام الدفاع، والسدراتي والزناتي وغيرهم كانوا أشبه بولاية تابعين له، ونظراً لأن مناطقهم معزولة عن طرابلس بمناطق تحت حكم مخالفيهم فقد تصرفوا وكأنهم مستقلين لصعوبة الاتصال المستمر بينهم وبين الإمام⁽³⁾.

وعلى أي حال فإن الإباضية -بعد مقتل إمامهم أبي الخطاب- افترقوا إلى الوحدة الحقيقية مما أضعف قوتهم إلى حين، وهذا ما حدا بأبي حاتم بأن لا يبدأ بمناوشة الأعداء فور انتخابه إمام دفاع عام 145هـ، وبقي مدة خمس سنين يعمل في السر ويستخدم التقية الدينية حتى تمكن من جمع شتات الإباضية في ولاية طرابلس، وعندما أنس من نفس قوة واطمأن إلى قدرة أتباعه وإخلاصهم أراد إعلان الثورة عام 150هـ/767م⁽⁴⁾، وتناهت أنباء استعداداتهم إلى والي طرابلس، الجنيد بن سيار، فبعث لهم 500 فارس ليطلبوا منه الطاعة والولاء للخليفة العباسي، ووضح من عدد هذه القوة أنها لم تكن مرسلة للحرب بل للتهديد والوعيد، وعندما وصلوا إليهم طلب أمير القوة من الإباضية أن يقرروا بطاعة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور، ولم يشأ الإباضية أن ينكشف أمرهم كما لم يريدوا التسرع في إعلان التمرد والثورة فأعلنوا طاعتهم لأمر المؤمنين ولكن دون تسميته، وكانوا يعنون بذلك الأمير الذي ارتضوه لأنفسهم وهو أبو حاتم، وفي هذا الرد تقية، على أثر ذلك رجعت القوة إلى طرابلس وأعلمت والي بأن القوم قد أعلنوا الطاعة لأمر المؤمنين⁽⁵⁾، ويبدو أن والي لم يطمئن لنوايا الإباضية فأرسل إليهم حملة عسكرية إلا أنها منيت بالهزيمة⁽⁶⁾، وفي هذه الأثناء وصل والي عمر بن حفص إلى القيروان عام 151هـ، فكتب إليه والي طرابلس يستمده، فبعث إليه عمر قوة على رأسها خالد بن يزيد المهلب، وعندما وصل طرابلس خرج واليها، الجنيد بن سيار لاستقباله وسار الجميع لقتال الإباضية، ولما اقتربوا منهم طلب الجنيد منهم أن يعلنوا الولاء والطاعة لأبي جعفر المنصور بالاسم، فأبوا ذلك وردوا عليه رداً قبيحاً وقالوا: «عليك لعنة الهل وعلى أبي كافر معك، يعنون أبا جعفر»، فاقتتل الطرفان وهزم الجيش العباسي ولحق بهم الإباضية إلى طرابلس، واضطر والي ومن معه إلى إخلاء المدينة واللجوء إلى قابس⁽⁷⁾، ولا تذكر المصادر المتوافرة تاريخاً لهذه الحوادث ولكنها تشير إلى هزيمة والي طرابلس قد جرت بينما كان عمر بن حفص موجوداً في طنبنة⁽⁸⁾، ولما كان عمر قد ارتحل إلى هناك في سنة 153هـ فمن المحتمل أن تكون هزيمة والي طرابلس واحتلال الإباضية للمدينة قد حدث في العام نفسه.

وتجدر الإشارة إلى أن أصحاب أبي حاتم -خلفاً لعاداتهم ومبادئهم- قد انتهكوا الحرمات في طرابلس وسلبوا القتلى والجرحى مما أغضب أبا حاتم نفسه، وتشير المصادر الإباضية إلى أن

(1) خطأ المستشرق البولندي ليفتسكي Lewicki عندما أشار إليه بأنه أحد حملة العلم الخمسة أنظر: T. Lewicki, E'tudes Ibadites, pp. 77-8. والصحيح أن الرجل الذي يحمل نفس الاسم والذي كان واحداً من حملة العلم قد توفي سابقاً أثناء حصار أبي الخطاب لمدينة القيروان عام 141هـ. أنظر: أبو زكريا، ورقة 10-11، الدرجيني، ورقة 11-12، شماخي، سير، ص 127.

(2) T. Lewicki, op. cit, p. 77, founal, I, p. 371

(3) أبو زكريا، ورقة 14، الدرجيني، ورقة 15-16.

(4) الشطبي، الجمان، ورقة 202-203، بروفنسال، نبذ تاريخية، ص 49.

(5) أبو زكريا، ورقة 14، النويري، ج 22، ص 49.

(6) النويري، ج 22، ص 49.

(7) أبو زكريا، ورقة 14، الدرجيني، ورقة 15، ابن الأثير، ج 5، ص 59.

(8) النويري، ج 22، ق 1، ص 49، ابن الأثير، ج 5، ص 598-599.

الذين قاموا بهذه الأعمال كانوا من عوام البربر الذين لم يتمكنوا بعد من العقيدة الإباضية⁽¹⁾، وأغلب الظن أن ما ذهبت إليه هذه المصادر صحيح، لأن ما حدث كان بالفعل مخالفاً لسيرة الأئمة الإباضية في كل معاركهم التي خاضوها سواء في المشرق أو المغرب، والدليل على ذلك أن أبا حاتم نفسه قد استنكر بشدة ما فعله عوام البربر من جيشه وخاطبهم معنفاً وقال: «ليس من سيرة المسلمين (الإباضية) إذا قتلوا من بغى عليهم من أهل التوحيد أن يسلبوهم بل يقولوا لأهل المدينة: ارجعوا إلى قتلاكم فادفنوهم وخذوا ثيابهم»، وهددهم باعتزال الإمامة إن لم يردوا الأسلاب إلى أصحابها⁽²⁾.

بعد الاستيلاء على طرابلس لاحق أبو حاتم وأصحابه جند الخلافة إلى قابس حيث التقوا هناك بجيش أنفذه عمر بن حفص بقيادة سليمان بن عباد المهلبى الذي يبدو أن عمر قد أوصى إليه بالقيادة العامة لجند الخلافة في تلك المنطقة، ولم يكن سليمان أسعد حظاً من سابقه إذ منى بالهزيمة وكر راجعاً إلى القيروان حيث تبعه أبو حاتم وألقى الحصار على المدينة⁽³⁾.

حصار طبنة:

بينما كانت هذه الحوادث تأخذ مجراها في منطقة طرابلس وشرقي تونس كان والي العباسي عمر بن حفص المهلبى موجوداً في مدينة طبنة حيث ذهب إلى هناك ليقوم بتحصينها وتقوية مسالحتها بناء على أوامر تلقها من الخليفة أبي جعفر المنصور، الذي أراد أن يجعل من هذه المدينة وما حولها من حصون سداً منيعاً في وجه أية غارات تأتي من بلاد المغرب الأوسط، وتقع مدينة طبنة في إقليم الزاب غير بعيد عن تاهرت حيث استقر عبدالرحمن بن رستم الفارسي الإباضي محاولاً جمع الإباضية في المغرب الأوسط استعداداً لتأسيس دولة إباضية هناك، أضف إلى ذلك أن طبنة تقع في الطريق الرئيسي من تلمسان، حيث أقام الصفرية دولة لهم بزعامة أبي قررة اليفرنى.

وقد اعتبر إباضية تاهرت وصفري تلمسان قدوم عمر بن حفص إلى طبنة وإقامة التحصينات فيها عملاً عدوانياً يهدد كياناتهم ويودي بجهودهم، ولذا اتفق الطرفان ضد العدو المشترك وقرروا السير إليه ومحاربتة قبل أن يكمل استعداداته ويبدأهم بالهجوم، وكات عبدالرحمن بن رستم إباضية طرابلس وتونس وطلب منهم ملاقاته لإحكام الحصار على طبنة وإياداة الجند العباسي هناك، فوافاه السدراتي في ستة آلاف، وكان هو في خمسة عشر ألف رجل، وانضم إليهم بعد ذلك أبو حاتم الذي كان من قبل محاصراً للقيروان، ولا تذكر المصادر عدد أتباعه إلا أنها تشير إلى أنهم كانوا كثيرين⁽⁴⁾، أما الصفرية فقد اجتمعوا بقيادة أبي قررة اليفرنى، صاحب تلمسان وكان عددهم أربعين ألفاً، ثم انضم إليهم عبدالملك بن سكرديد الصنهاجي الصفري في ألفين من أتباعه⁽⁵⁾.

ويبدو أن جماعات أخرى قد انضمت إليهم حتى بلغ عدد الجيوش المحاصرة اثني عشر عسكرياً، بينما كان عمر بن حفص في خمسة عشر ألفاً وخمسمائة فقط⁽⁶⁾.

أمام هذا الحشد الكبير من الأعداد وجد عمر بن حفص أن لا قبل له بمواجهتهم في معركة مفتوحة، ولذا التجأ إلى الحيلة والخداع محاولاً غرس النزاع وعدم الثقة بين الصفرية والإباضية، وأرسل رجلاً من مكناسة ليعرض على أبي قررة زعيم الصفرية مبلغ أربعين ألف درهم وكساء

(1) أبو زكريا، ورقة 14، الدرجيني، ورقة 15.

(2) أبو زكريا، ورقة 14.

(3) أبو زكريا، ورقة 14، الدرجيني، ورقة 16، النويري، ج22، ق1، ص49.

(4) ابن عذاري، ج1، ص75، ابن الأثير، ج5، ص599، النويري، ج22، ص49.

(5) ابن عذاري، ج1، ص75، النويري، ج22، ص49.

(6) ابن عذاري، ج1، ص75، يذكر النويري (ج22، ق2، ص49) أن عمر بن حفص كان في خمسة آلاف وخمسمائة فقط.

وهذا أرى ثميناً على أن يرفع الحصار ويعود إلى بلاده، إلا أنه رفض فقبل أخوه هذا العرض وانسحب مع كثير من الصفرية في جنح الظلام، ولما رأى أبو قرة ما فعل أتباعه انصرف راجعاً إلى تلمسان، وكان لانسحاب الصفرية أثر معنوي ونفسي كبير على الإباضية، فاضطروا إلى رفع الحصار أيضاً، وانسحب عبدالرحمن بن رستم إلى تهودة بينما رجع أبو حاتم وإباضية طرابلس وتونس إلى القيروان محاولين احتلالها قبل عودة عمر بن حفص⁽¹⁾.

سر عمر بن حفص بهذا النصر الذي لم يكلفه كثيراً سواء في المال أو الرجال، ووجد الفرصة سانحة للانتقام من بعض الذين حاصروه وعلى رأسهم عبدالرحمن بن رستم، فأرسل إليه جيشاً هاجمه في تهودة وقتل عدداً كبيراً من أصحابه وفر منهزماً إلى تاهرت⁽²⁾.

بعد ذلك فطن عمر بن حفص إلى الخطر الذي يتهدد القيروان بعد عودة أبي حاتم وأتباعه من الإباضية فقرر عمر الرجوع إلى القيروان لإنقاذها، واستخلف على طبنة ومنطقة الزاب المهنا بن المخارق بن غفار الطائي⁽³⁾، ولما علم أبو قرة الصفري بمسير عمر بن حفص إلى القيروان هاجم طبنة وحاصر المهنا الطائي إلا أن الأخير تصدى له بعناد وقاتله بشجاعة فهزمه واستباح عسكره واضطر إلى الانسحاب من تلمسان⁽⁴⁾.

استيلاء أبي حاتم الإباضي على القيروان ومقتل عمر بن حفص:

عاد أبو حاتم مسرعاً نحو القيروان، وألقى عليها الحصار بجنوده الذين تشير المصادر السننية والإباضية إلى كثرتهم⁽⁵⁾، وبقي محاصراً للمدينة مدة ثمانية أشهر لاقى الناس خلالها عنتاً كبيراً، وكانوا يقاتلون الإباضية في طرفي النهار حتى أجهدهم الجوع وأكلوا دوابهم، «وجعل الناس يخرجون فيلحقون بالبربر (الإباضية) من الجهد»⁽⁶⁾، في هذه الأثناء كان عمر بن حفص في طريقه راجعاً إلى القيروان، فلما علم الإباضية بذلك رفعوا الحصار عن المدينة وهبوا لملاقاته محاولين نصب كمين له والقضاء عليه في الطريق، ويبدو أن عيون ابن حفص قد أخبرته بمسير الإباضية إليه فسلك طريقاً مغايراً للطريق المعتاد، وفي نفس الوقت انتهز عامله على القيروان، جميل بن صخر فرصة رفع الحصار فخرج من القيروان والتقى مع عمر بن حفص في موقع يقال له بئر السلامة غير بعيدة عن القيروان، وتوجها معاً إلى المدينة⁽⁷⁾ وبعد أن تشاور عمر بن حفص مع كبار قواده ومعاونيه استقر رأيهم على أن يبقوا في المدينة ويشحنوها بالموء استعداداً لحصار طويل،

(1) ابن عذاري، ج1، ص77، النويري، ج22، ق1، ص49-50، يذكر الرقيق القيروني (ص143) أن المال أعطي لابن أبي قرة وأن المبلغ كان 4000 درهم، ويتفق ابن الأثير (ج5، ص599) مع الرقيق في أن المبلغ كان 4000 درهم.

يجدر بالذكر أن المصادر الإباضية تتجاهل حصار طبنة كلياً، ولعل مرد ذلك إلى أن الحادثة كانت فشلاً ذريعاً للإباضية وحلفائهم الصفرية، ولهذا لم يرغب مؤلفوها في الحديث عن ذكرى أليمة وهزيمة مرة أمام عدو أقل عدداً، وهو أمر لم يألفه الإباضية المشهورين بالشجاعة والتضحية في سبيل معتقدتهم.

(2) الرقيق، ص143، ابن عذاري، ج1، ص76، النويري، ج22، ق1، ص50.

(3) الرقيق، ص143، النويري، ج22، ق1، ص50.

(4) النويري، ج22، ص50.

(5) يرى كل من الرقيق وابن عذاري والنويري أن عدد جنود أبي حاتم كان 130 ألف. أنظر: الرقيق، ص144، ابن عذاري، ج1، ص76، النويري، ج22، ق1، ص50، بينما يذكر البرادي والأزدي وابن خلدون أن عدد جيش أبي حاتم بلغ 350 ألف رجل منهم 85 ألف فارس. أنظر: البرادي، الجواهر، ص173، الأزدي، ص213، 216.

يذكر الأزدي وابن خلدون أن أبا قرة قد اشترك في الحصار إلا أن هذه المعلومات مشكوك فيها، لأن أبا قرة قد عاد بعد رجوع عمر بن حفص إلى القيروان- وهاجم طبنة كما أشرنا إلى ذلك ولكنه هزم وارتد إلى تلمسان، وليس هناك أي دليل في المصادر المتوافرة بما فيها الأزدي وابن خلدون يثبت انضمام أبي قرة إلى أبي حاتم أثناء حصاره الأخير لمدينة القيروان، ولا تذكر المصادر الأخرى الموثوقة والتي تتحدث بإسهاب عن حصار القيروان أية إشارة إلى أبي قرة على الإطلاق، ومن المحتمل إذن الأزدي وابن خلدون قد خلطا بين حصار طبنة وحصار القيروان.

(6) الرقيق، ص143-133، أنظر أيضاً ابن عذاري، ج1، ص76، ابن الأثير، ج5، ص600، السلاوي، ج1، ص131.

(7) النويري، ج22، ق1، ص50.

ومن المحتمل أنهم تبينوا هذه الخطة لعدم وجود قوات كافية تستطيع أن تواجهه أبا حاتم وجيشه الضخم في معركة مفتوحة، وبعد أن شحن القيروان بالمؤن والأقوات حفر عمر بن حفص خندقاً عند باب أبي الربيع، وربط مع جنده خلفه، وبذلك فرض على نفسه الحصار واكتفى بالدفاع أملاً منه في أن يحل بالمحاصرين ما حل بهم أثناء حصار طبنة ولكنه أساء التقدير وعادت خطته عليه بأسوأ النتائج⁽¹⁾.

عندما علم أبو حاتم بوصول عمر بن حفص إلى القيروان كر راجعاً بسرعة وأعاد فرض الحصار على المدينة، وحدثت مناوشات بين الطرفين عند باب أبي ربيع بينما قامت كتائب من جيش أبي حاتم بسد أبواب القيروان الأخرى ومنعوا الخروج من المدينة، وبعد فترة ضاق الناس بالحصار وفقدت المؤن ومات بعض الناس جوعاً، وأدى ذلك إلى نشوب خلاف بين عمر بن حفص وبعض قادته، واختلفت آراؤهم حول معالجة الموقف وإنقاذ الناس مما هم فيه من المحنة والبلاء⁽²⁾.

وبينما هم على هذه الحال من الخلاف في الرأي والضيق في العيش جاءتهم الأنباء تخبرهم بأن الخليفة قد بعث يزيد بن حاتم المهلبى على رأس جيش قوي لنصرتهم، ولما سمع عمر بن حفص هذه الأنباء وجد أن في ذلك حيفاً عليه وقال عبارته المشهورة في بطون الكتب: «تحدثت نسوة العتيك أن يزيداً (هكذا) أخرجني من الحصار، إنما هي رقدة حتى أبعث للحساب»، ثم كتب وصيته وخرج في اليوم التالي على رأس جماعة من أعوانه، وقا تل الإباضية حتى قتل في شهر ذي القعدة (أو ذي الحجة) من عام 154هـ⁽³⁾.

بايع الجند بعد مقتل قائدهم جميل بن صخر، وكان أخا عمر بن حفص لأمه، وقام جميل بطلب المودعة والسلم مع أبي حاتم والإباضية، ويبدو أن أبا حاتم كان تواقاً لهذا الغرض حتى يتفرغ لقتال يزيد بن حاتم القادم من المشرق، وتتجلى رغبة أبي حاتم في الصلح في التساهل الواضح في شروط لاتفاق مع جميل بن صخر، ولعله أراد من ذلك أيضاً فتح القيروان دون الحاجة إلى مزيد من الحصار والعناء، وقد نص الصلح بين الطرفين على ما يلي:

- 1- أن يستولي أبو حاتم على القيروان ويدخلها دون قتال.
- 2- أن يقبل أبو حاتم بأن لا يقطع جميل وأصحابه طاعتهم لسلطانهم ولا ينزعون سوادهم، أي أن يبقوا على ولائهم للخلافة العباسية.
- 3- إن كل م أصابه جند الخلافة من البربر والإباضية فهو هدر ولا تجوز المطالبة به.
- 4- أن لا يجبر أحد من جند الخلافة على بيع سلاحه ودوابه وممتلكاته⁽⁴⁾.

دخل أبو حاتم المدينة وقام بهدم تحصينات المدينة وأحرق أبوابها وتلم سورها، ولعله أراد بذلك أن لا تصبح المدينة ملجأ حصيناً لأي عدو في المستقبل، ثم استخلف عليها عبدالعزيز بن السمح المعافري -أخا الإمام أبي الخطاب المعافري- واتجه هو صوب طرابلس ليستعد لمواجهة الوالي الجديد، يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب، وخرج معظم جند الخلافة طوعاً -من المدينة واتجهوا إلى طبنة في إقليم الزاب، التي كانت لا تزال في قبضة العرب المواليين للخلافة العباسية، وكان ذلك مشجعاً لأبي حاتم للتخلص من البقية الذين آثروا الاستقرار في القيروان، فكتب أبو حاتم إلى واليه على القيروان يأمره -خلفاً لبنود الصلح المتفق عليها- أن «يأخذ سلاح الجند وأن لا

(1) الرقيق، ص44، ابن عذاري، ج1، ص76، ابن الأثير، ج5، ص600، النويري، ج22، ص50.

(2) الرقيق، ص145.

(3) الرقيق، ص146، ابن عذاري، ج1، ص76، النويري، ج22، ق1، ص51-52، ابن الأثير، ج5، ص60، السلاوي، ج1، ص131.

(4) عن الصلح بين جميل بن صخر وأبي حاتم أنظر: النويري، ج22، ق1، ص52.

يجتمع منهم اثنان في مكان وأن يوجه إليه بهم واحداً بعد واحد»⁽¹⁾، وجد الجند العربي أنهم خدعوا وقرروا عدم الرضوخ لأوامر أبي حاتم واستوثق بعضهم من بعض بالإيمان ألا يرضوا بما طلب أبو حاتم، وقويت عزيمتهم واشتد بأسهم بأنباء تقدم يزيد بن حاتم بانضمام عمرو بن عثمان الفهري وأعوانه إليهم، تحالف الفهري قبل ذلك مع الإباضية واشترك معهم في حصار القيروان، ولما تأكد الجند من صدق عمرو بن عثمان ولوه عليهم مستفيدين بذلك من خبرته ومعرفته بأحوال الإباضية وقوتهم، وبادر عمرو بن عثمان وجند الخلافة أصحاب أبي حاتم بالهجوم وقتلوه عن آخرهم، فاضطر أبو حاتم للعودة إلى القيروان لتأديب عمرو بن عثمان وأصحابه، والتقى الطرفان في معركة عنيفة في مكان لا تذكر المصادر، وعلى الرغم من أن أبا حاتم قد خسر عدداً كبيراً من جيشه فقد هزم عمرو بن عثمان وتفرق جنده، واتجه بمن بقي معه إلى تونس بينما سار آخرون مع جميل بن صخر نحو المشرق حيث التقوا بيزيد بن حاتم في منطقة سرت، والتقى في مكان يدعى جيجل من أرض كتامة وهزم جرير وقتل في جمع كبير من أصحابه، واستطاع عمرو بن عثمان النجاة، وتابع سيره إلى طبنة حيث شكل مع الجند المقيمين هناك عوناً كبيراً للوالي الجديد، وذلك بمحافظتهم على منطقة الزاب هادئة وأمنة من الثوار ومواليه للخلافة العباسية⁽²⁾.

هزيمة الإباضية في المغرب الأدنى وانتصارهم في المغرب الأوسط:

رأى أبو حاتم الإباضي أن الخطر يتهدهد بوصول يزيد بن حاتم على رأس جيش قوي كبير، لذا قرر أن يلتجئ إلى جبل نفوسة حيث تقطن قبائل هوارية ونفوسة الإباضية، وحيث كان سكان الجبل السند القوي للدعوة الإباضية منذ بداية تسبرها إلى شمال أفريقية، وهناك حشد أتباعه واستعد للقاء الوالي العباسي الجديد، وتمكن أبو حاتم من هزيمة مقدمة جيش يزيد بن حاتم التي قادها سالم بن سودة التميمي⁽³⁾.

على الرغم من هذا الانتصار فقد تردد أبو حاتم في مواجهة يزيد وعاد وعسكر في جبل نفوسة، فهاجمه يزيد -بعد أن عبأ قواته وأحسن تنظيمها وإعدادها- وجرت بين الفريقين معركة قاسية في ربيع الأول من عام 155هـ قتل فيها خلق كثير من كلا الطرفين إلا أن النتيجة كانت في صالح يزيد، وقتل الإمام الإباضي أبو حاتم مع جل أصحابه في المعركة⁽⁴⁾، بقي يزيد بن حاتم في منطقة طرابلس بعض الوقت يتعقب الإباضية في كل مكان، وتشير المصادر إلى أنه طلب الخوارج (الإباضية) في كل سهل وجبل، وجعل آل المهلب يقتلون البربر ويقومون بالشارع لعمر بن حفص⁽⁵⁾، ثم استعمل يزيد أحد رجاله على طرابلس وارتحل إلى القيروان ودخلها في عام 155هـ، وقام بتنظيم شؤون المدينة وبنى فيها المسجد الأعظم وجده عام 157هـ ورتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة في مكانها، ويبدو أنه أراد أن يعيد لقصة أفريقية مجدها ومكانتها العظيمة⁽⁶⁾.

وفي الوقت الذي التفت فيه يزيد إلى الإعمار والبناء فإنه استمر في ملاحقة الثوار أينما كانوا وفي مقدمتهم رجال الإباضية، وهم أكثر الثوار شجاعة وحماسة واستماتة في سبيل مبدئهم، ولم يهنوا ولم يستكينوا رغم الضربات المتتالية التي تلقوها على أيدي الولاة، وفي عام 156هـ تجمع

(1) الرقيق، ص147.

(2) الرقيق، ص148، النويري، ج22، ص52، شماخي، سير، ص136.

(3) الرقيق، ص159-160، النويري، ج22، ق1، ص53، شماخي، سير، ص136.

(4) الرقيق، ص160، ابن عذاري، ج1، ص79، النويري، ج22، ق1، ص53، أبو زكريا، ورقة 14، الدرجيني، ورقة 16، شماخي، سير، ص136، يذكر خليفة بن خياط (ج2، ص680) أن أبا حاتم الإباضي قد هزم ونفي من بلاده، وهذا يخالف كل المعلومات المتوافرة في المصادر السننية والإباضية.

(5) الرقيق، ص160، النويري، ج22، ق1، ص53.

(6) الرقيق، ص162، ابن عذاري، ج1، ص78، النويري، ج22، ق1، ص53-54.

إباضية طرابلس وثاروا بقيادة أبي يحيى الهواري فتصدى لهم عبدالله بن السمط الكندي، أحد قواد يزيد، والتقى الطرفان في مكان قرب شاطئ البحر فهزم الهواري هزيمة منكرة، وقتل عدد كبير من أصحابه⁽¹⁾، وكانت هذه الواقعة آخر نشاط ثوري للإباضية في بلاد المغرب الأدنى طيلة ولاية يزيد بن حاتم التي استمرت حتى وفاته عام 170هـ/786م، وقد أتم ابنه داود عمله فنتبع الإباضية وقضى عليهم بدون هودة، وفي عهده الذي دام أقل من سنة ثارت قبيلة نفزة البربرية في جبال باجة بزعامه صالح بن نصير الإباضي الذي استطاع أن يهزم جيشاً أنفذه إليه داود بقيادة المهلب بن يزيد، ثم وجه إليه داود جيشاً بقيادة سليمان بن الصمة المهلبى فهزم صالح بن نصير الإباضية وهرب من باجة إلى جبل أوراس حيث استطاع جمع شتات الإباضية هناك، فلحق به سليمان بن الصمة وهزمه في معركة شديدة يف شقبنارية على طرف جبل أوراس، وقتله وأصحابه عن آخرهم⁽²⁾.

يبدو أن المعارك الكثيرة والحروب المستمرة التي خاضها الإباضية قد أبادت قسماً كبيراً منهم وأقنعت زعاماتهم بعدم جدوى إراقة الدماء ما دامت الخلافة مصممة على أن تبقى سلطتها قوية في بلاد المغرب الأدنى وأفريقية، ولذا فإنهم خلدوا إلى الهدوء نحو عقد من الزمان، ولم نسمع عن نشاط مسلح من جانبهم إلا في عام 180هـ في زمن ولاية هرثمة بن أعين حيث ثارت هواراة بزعامه عياض بن وهب الهواري وقضى على الثورة بسهولة ويسر⁽³⁾.

وعلى أي حال فإن الإباضية في المناطق الشرقية من بلاد المغرب قد خبت جذوتهم وانهارت قوتهم منذ ولاية يزيد بن حاتم، ومقتل إمامهم أبي حاتم الملزوزي، ولعل مرد استكانتهم إلى عاملين: الأول: ضعفهم وعدم قدرتهم على التصدي لجند الخلافة، والثاني: أن عبدالرحمن بن رستم قد نجح في تكوين دولة إباضية في المغرب الأوسط، وبذلك حقق حلمهم في تكوين كيان خاص بهم، وهاجرت بعض القبائل البربرية الإباضية من مناطق المغرب الأدنى إلى المغرب الأوسط لتعيش في كنف الدولة الإباضية الرستمية، وبقيت جماعات منهم في مناطق معزولة مثل جبل نفوسة في طرابلس وبلاد الجريد في جنوب تونس⁽⁴⁾، وعلى الرغم من بعد مناطقهم عن بلاد الدولة الرستمية إلا أنهم كانوا يعتبرون أنفسهم تابعين لتلك الدولة ويعترفون بالإمام الرستمي إماماً وخليفة لكل الإباضية في شمال أفريقية.

أما الدولة الرستمية التي أصبحت ملاذاً للإباضية فتنسب إلى عبدالرحمن بن رستم السالف الذكر⁽⁵⁾، وكان أحد حملة العلم الخمسة، وقد عينه الإمام أبو الخطاب المعافري، أول إمام ظهور في شمال أفريقية، قاضياً لطرابلس، ولما احتل القيروان عام 141هـ جعل ابن رستم والياً عليها، وبعد مقتل الإمام أبي الخطاب لجأ عبدالرحمن بن رستم إلى بلاد المغرب الأوسط واتخذ من جبل سوفجج المنيع جنوب تاهرت ملجأ له، وأخذت وفود البربر الإباضية تتقاطر إليه في ذلك الموقع الحصين معلنين تصميمهم على المضي في الكفاح حتى تقوم دولتهم التي تمثل في رأيهم - دولة الحق والإسلام الصحيح⁽⁶⁾، واجتمع إليه علماء الإباضية وفقهاؤهم من كل حذب وصوب، وقصده من طرابلس وجبل نفوسة وحدها ما يزيد على ستين من أكابر العلماء وأهل الفضل والرأي⁽⁷⁾.

(1) ابن عذاري، ج1، ص79.

(2) الرقيق، ص169، ابن عذاري، ج1، ص82، النويري، ج22، ق1، ص55.

(3) ابن الأثير، ج6، ص139.

(4) لا تزال هذه المناطق تحوي جماعات إباضية إلى يومنا هذا.

(5) أنظر: فوق ص161.

(6) الباروني النفوسي، ج2، ص3.

(7) المصدر نفسه.

وتقوى ابن رستم بالبربر الإباضية في المغرب الأوسط، الذين انتشر المذهب بينهم قبل مقدمه، وشاع في قبائل لواته ومكناسة ولماية وبعض بطون هوار⁽¹⁾، وبعد التتكيل الذي حل بالإباضية في بلاد المغرب الأدنى هاجر عدد كبير من إباضية تلك المنطقة إلى المغرب الأوسط، والتقوا حول عبدالرحمن بن رستم، الذي كان آنذاك يتمتع بتقدير واحترام أتباع المذهب جميعاً، وكانوا ينظرون إليه على أنه منقذ لهم من البلاء ومحقق لأهدافهم التي ناضلوا من أجلها، وفي مقدمتها تأسيس الدولة الإباضية.

ولما سمع بذلك ابن الأشعث والي أفريقية آنذاك، جهز جيشاً وسار به إلى عبدالرحمن أملاً في القضاء عليه قبل أن يتعاضم خبره، ولكن ابن رستم والإباضية تحصنوا في أماكنهم المنيعة وخندقوا على أنفسهم، وأقام ابن الأشعث محاصراً لهم مدة من الزمن ولكنه لم يستطع اقتحام مواقع الإباضية، ودب الخلاف في جيشه وانتشر الوباء بين جنوده، فاضطر إلى الانسحاب والعودة إلى القيروان، وكان ذلك في عام 145هـ⁽²⁾.

أدى فشل ابن الأشعث إلى رفع الروح المعنوية لأتباع عبدالرحمن بن رستم الإباضية، وأخذت المساعدات تتوالى عليهم من أنحاء شمال أفريقية جميعها، وكذلك من إباضية المشرق الذين كانوا يبعثون لهم بالأموال اللازمة، ويرسلون لهم بالنصح والإرشاد ويجيبون على استفساراتهم وأسئلتهم حول ما يشكل عليهم من أمور الدنيا والدين⁽³⁾.

بعد ذلك وقع اختيار ابن رستم وأتباعه على تاهرت لتكون مقراً لهم فبنوا المدينة ونظموها وانتهوا من ذلك في عام 161هـ⁽⁴⁾، وفي العام التالي رأى الإباضية في المغرب الأوسط أن الوقت قد حان لإعلان إمامة الظهور، فنادوا بعبدالرحمن بن رستم إماماً ظهوراً أو إماماً بيعة كما تسميه المصادر الإباضية (وكان من قبل إمام دفاع فقط) وبارك أئمة الإباضية في البصرة هذه الخطوة، وبعثوا للإمام الجديد بالأموال والمساعدات ليتسنى له القيام بالمهمات الملقاة على عاتقه على أكمل وجه⁽⁵⁾، وبإعلان الإمامة عام 162هـ ولدت في المغرب الأوسط دولة إباضية عرفت في التاريخ باسم الدولة الرستمية وعاشت حتى عام 197هـ حينما قضى عليها الفاطميون.

وفي الحقيقة كان قيام الدولة الرستمية أكبر انتصار للدعوة الإباضية، ليس في شمال أفريقية فحسب، بل في جميع الولايات الإسلامية، وهكذا فإن جهود الدعاة وحملة العلم الإباضية والتضحيات التي قدمها أتباع المذهب في مختلف أنحاء بلاد المغرب لم تضع سدى، وإنما أثمرت تكوين الدولة الإباضية القوية هناك، وحققت الحلم الذي سالت من أجله دماء غزيرة وأهدرت في سبيله أرواح كثيرة.

(1) أبو زكريا، ورقة 11، النفوسي، ص3-5، ابن خلدون، ج6، ص120-121، محمد علي دبوز، ج3، ص255-259.
(2) أبو زكريا، ورقة 11، النفوسي، ج3، ص3، محمد علي دبوز، ج3، ص258-260، محمد إسماعيل عبدالرزاق، ص146-147.
(3) ابن الصغير، ص9-10.
(4) عن تاهرت وموقعها أنظر: الحبيب الجحاني، «تاهرت عاصمة الدولة الرستمية»، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، 1975م.
(5) ابن الصغير، ص9، الباروني، ج2، ص85.

الخلاصة

كانت الفتنة في عهد الخليفة عثمان حدثاً خطيراً ساعد في ازدياد شقة الخلاف بين المسلمين حول منصب الخلافة، وقد أدت التطورات التي حدثت فيما بعد - وخاصة النزاع بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان - إلى بروز فرقة الخوارج التي عارضت التحكيم، وانشقت على علي بن أبي طالب، ونادت بانتخاب خليفة للمسلمين عن طريق الشورى.

وكان الخوارج أول من تحدى سلطة قريش عملياً عندما عينوا عبدالله بن وهب الراسبي إماماً لهم ونادوا ببقية المسلمين للانضمام إليهم، وبعد معركة النهروان اعتزل أفراد منهم أصحابهم وذهبوا إلى البصرة حيث أخذوا يدعون لمذهبهم سراً خوفاً من بطش الولاة الأمويين، وقد تزعم هذا الفريق أبو بلال مرداس بن أدية التميمي الذي نادى بآراء وأفكار معتدلة فصلنا الحديث عنها في الباب الثالث من هذا الكتاب⁽¹⁾.

في عام 64هـ حدث انقسام نهائي بين هؤلاء المعتدلين وبين أقرانهم من متطرفي الخوارج، وسمي المعتدلون القعدة، أي الذين قعدوا - طبقاً لوجهة نظر المتطرفين - عن الجهاد في سبيل الله ومحاربة المخالفين من المسلمين⁽²⁾، وفي بداية الربع الأخير من القرن الأول الهجري انقسم القعدة إلى فرقتين: الصفرية والإباضية، وسميت الإباضية بهذا الاسم نسبة إلى عبدالله بن إباض الذي تعتبره المصادر غير الإباضية مؤسس الحركة، أمام المصادر الإباضية فتتفق مع بقية المصادر في نسبة الفرقة إلى ابن إباض، ولكنها في الوقت نفسه تجمع على أن مخالفهم هم الذين سموهم بهذا الاسم، وتذكر المصادر الإباضية صراحة أن عبدالله بن إباض لم يكن إمامهم الحقيقي مؤسس دعوتهم، وإن كان من علمائهم ورجالهم البارزين، وبناء على ذلك فلم تسهب هذه المصادر في الحديث عن كثير من جوانب حياة ابن إباض ونشاطه⁽³⁾.

ويعتبر الإباضية القدامى منهم والمحدثون، جابر بن زيد الأزدي إمامهم الكبير ومؤسس حركتهم، ولم يكن ابن إباض إلا واحداً من أتباعه، ولم يصدر في شيء من أفعاله إلا بأمر ذلك الإمام وإرشاده، ومن هنا فإن الإباضية لم يسموا أنفسهم في البداية - بهذا الاسم، ولم يرد في مصادرهم قبل الربع الأخير من القرن الثالث الهجري.

وتقرّد المصادر الإباضية فصولاً خاصة للحديث عن مختلف جوانب حياة جابر بن زيد ونشاطه ودوره الكبير في خدمة الحركة الإباضية، وتشير هذه المصادر إلى أن عدد أتباع الفرقة قد ازداد في عهده، وانضمت للدعوة جماعات كبيرة من قبيلة الأزدي التي ينتمي إليها جابر بن زيد، كما انضم إليها بعض الموالي، ولم يقتصر نشاط جابر على البصرة وحدها، بل تعداها إلى مناطق أخرى، وتحتفظ المصادر الإباضية المتوافرة بمراسلات بينه وبين بعض أتباعه في الولايات الإسلامية النائية مثل عمان وخراسان.

ونتيجة لسياسته الذكية الحذرة، ولاستعماله التقية الدينية، وقدرته الفائقة على الاستفادة من الظروف التي تمر بها الدولة الأموية فقد استطاع جابر أن يجمع الناس من حوله، ويقنع كثيراً منهم

(1) أنظر الباب الثالث، ص 64-74.

(2) أنظر الباب الثالث، ص 66-67.

(3) أنظر الباب الرابع، ص 75-85.

بمبادئه وآرائه، ولم يمت جابر بن زيد إلا وقد غدت الدعوة الإباضية عبارة عن حركة إسلامية شاملة اجتذبت عناصر مختلفة من قبائل وأجناس متعددة⁽¹⁾.

وعندما توفي جابر بن زيد وخلفه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي استمر الأخير في أداء المهمة التي اضطلع بها سلفه، وخلق مجتمعاً متماسكاً تسوده الألفة والمحبة والتعاون، وطور التنظيمات السرية للحركة، وأوجد نوعاً من الحكومة الثورية السرية في البصرة كان لها دور كبير في إنجاح الحركة وتحقيق أهدافها، كما أنشأ مدرسة سرية خاصة لتعليم الدعاة وتدريبهم أفرزت عدداً من المشايخ والدعاة الذين عرفوا باسم حملة العلم، وقد أرسلوا إلى الأمصار الإسلامية المختلفة للتبشير بمذهبهم هناك، وكان لهم فضل كبير في نشر الدعوة في المناطق التي أوفدوا إليها، وخاصة تلك الواقعة على أطراف الدولة الإسلامية البعيدة عن مراقبة السلطة المركزية⁽²⁾.

وفي أواخر العقد الثالث من القرن الثاني الهجري استغل مشايخ الإباضية المشاكل التي واجهتها الدولة الأموية وأوعزوا إلى أتباعهم لإعلان الإمامة في بعض المناطق، واستطاع الإباضية تأسيس إمامة إباضية في كل من حضرموت واليمن وعمان، ولكن هذه الإمامات لم تعمر طويلاً قضى الأمويون على إمامة اليمن وحضرموت، بينما قضى العباسيون على إمامة عمان الأولى نحو عام 134هـ ولكن إباضية عمان استمروا في تنظيم أنفسهم، وأخذوا يتحينون الفرص لإعلان الإمامة من جديد، واستطاعوا تحقيق هدفهم بإعلان الإمامة الإباضية الثانية نحو عام 177هـ ومنذ ذلك التاريخ أصبح تاريخ عمان مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالمذهب الإباضي بحيث لا يمكن فهم تاريخ ذلك القطر بمعزل عن تاريخ الحركة الإباضية وتطورها، ولا يزال معظم سكان عمان ينتمون إلى المذهب الإباضي حتى وقتنا الحاضر⁽³⁾.

وقد قام الإباضية بجهود مضنية في سبيل انتصار دعوتهم في الجزء الغربي من بلاد الخلافة الإسلامية، أي في البلاد التي تعرف اليوم باسم ليبيا وتونس والجزائر والمغرب، واستطاع أتباع الفرقة الإباضية -بعد كفاح مرير- تأسيس الدولة الرستمية الإباضية نحو عام 162هـ وقد عمرت هذه الدولة أكثر من قرن وثلاث، وقضى عليها الفاطميون عام 297هـ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي هذا المذهب قائماً في مناطق متعددة من بلاد المغرب حيث كون أتباعه مجتمعات خاصة بهم في مناطق نائية بعيدة عن متناول السلطة المركزية، ولا تزال بقاياهم موجودة إلى يومنا هذا في جبل نفوسة في ليبيا، وفي جزيرة جربة وقسطيلية (بلاد الجريد) في تونس، وفي ميزاب جنوب الجزائر⁽⁴⁾.

وهكذا فإن جهود مشايخ البصرة الإباضيين وتنظيماتهم السرية الدقيقة خلال القرنين الأول والثاني الهجريين أثمرت تأسيس دول إباضية مستقلة كان لها دور هام ومجيد في التاريخ الإسلامي بوجه عام، وفي تاريخ المناطق التي قامت فيها بوجه خاص.

(1) أنظر الباب الخامس، ص 86-102.

(2) أنظر الباب السادس، ص 103-115.

(3) أنظر الباب السادس، الفصل الأول والثاني، ص 116 وما بعدها.

(4) أنظر الباب السادس، الفصل الثالث.

كتاب عبدالله بن إياض

إلى عبدالملك بن مروان

بسم الله الرحمن الرحيم، من عبدالله بن إياض إلى عبدالملك بن مروان، أما بعد: سلا عليك، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأوصيك بتقوى اله، فإن العاقبة للتقوى، والمرد إلى الله، واعلم أنه إنما يتقبل الله من المتقين، وقد جاءني كتابك مع سنان بن عاصم، وأنت كتبت إليّ أن أكتب إليك بكتاب فكتبته إليك، فمنه ما تعرف ومنه ما تتكر، ولكن الذي تتكره ليس عند الله بمنكر، وأما ما ذكرت من عثمان والذي عرضت به من شأن الأمة فإن الله ليس ينكر عليه أحد شهادته في كتابه الذي أنزل على نبيه محمد ρ [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون] ⁽¹⁾، و[الفاسقون] ⁽²⁾، و[الكافرون] ⁽³⁾، ثم إني لم أكن أذكر لك من شأن عثمان شيئاً إلا والله تعلم أنه حق، وسأزع لك من ذلك البينة من كتاب الله، وسأخبرك خبر عثمان الذي طعنا عليه فيه، وأبين شأنه وأمره، لقد كان عثمان كما ذكرت من قدمه في الإسلام ولكن الله لم يجز العباد من الفتنة، وذلك أن الله بعث محمداً ρ ، وأنزل عليه الكتاب وبين فيه كل أمر، وفصل فيه كل حكم ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه [وجعله هدى ورحمة لقوم يؤمنون] ⁽⁴⁾، فأحل فيه حلالاً وحرم فيه حراماً، وحكم أحكاماً وفرض فرائض وحدوداً، فقال: [تلك حدود الله فلا تقربوها] ⁽⁵⁾ وقال: [تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون] ⁽⁶⁾، ثم أمر نبيه باتباع كتابه وقال: [واتبع ما أوحى إليك من ربك] ⁽⁷⁾، وقال: [فإذا قرأناه فاتبع قرآنه] ⁽⁸⁾، فعمل محمد ρ بأمر ربه، ومعه عثمان ومن شاء الله من أصحابه، لا يروونه يتعمد أحداً ولا يبذل حكماً، ولا يستحل حراماً، ولا يحرم حلالاً، ولا يبذل فريضة، وكان رسول الله ρ يقول: [إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم] ⁽⁹⁾.

فعمر ρ ما شاء الله تابِعاً لما جاء به من عند الله، مبلغاً لما ائتمنه الله عليه، معلماً للمؤمنين، مبصراً لهم حتى توفاه الله ρ وهو كتابه الذي يهتدي من اهتدى باتباعه، ولا يضل من ضل إلا بتركه، ثم قام من بعده أبو بكر على الناس فأخذ كتاب الله وعمل بسنة نبيه، فلم يفارقه أحد من المسلمين ولم يعيبيوا عليه في حكم حكمه، ولا قسم قسمه حتى فارق الدنيا وأهل الإسلام عنه راضون، وله مجامعون، ثم قام من بعده عمر فكان قوياً على الأمر، شديداً على أهل النفاق، يهتدي بمن كان قبله من المؤمنين ويعمل بكتاب الله، وابتلاه الله بفتوح من الدنيا بما لم يبيل به صاحبيه، وفارق الدنيا والدين ظاهر وكلمة الإسلام جامعة، وشهادة المؤمنين له بالوفاء قائمة، والمؤمنون شهداء الله في الأرض، قال الله γ : [كذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على

(1) سورة المائدة، آية 45.

(2) نص الآية [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون]، سورة المائدة، آية 47.

(3) نص الآية [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون]، سورة المائدة، آية 44.

(4) نص الآية [ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون]، سورة الأعراف، آية 52.

(5) سورة البقرة، آية 187.

(6) سورة البقرة، آية 229.

(7) سورة الأحزاب، آية 3.

(8) سورة القيامة، آية 18.

(9) سورة الأنعام، آية 15.

الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً⁽¹⁾ ثم استشار المؤمنون فتركها فيهم، فولوا عثمان ففعل ما شاء الله بما يعرف الإسلام حتى بسطت له الدنيا وفتح له من خزائن الأرض، فلما رأى المؤمنون ما أحدث أتوه وكلموه وذكروه بكتاب الله وسنة من كان قبله، فشق عليه أن ذكروه بآيات الله وأخذ بالجبرية وضرب من شاء منهم وسجن، ونفاهم في أطراف الأرض من أجل أن ذكروه بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وآثار من كان قبله من المؤمنين، ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه، [ومن ألم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون]⁽²⁾ وأنا أبين لك يا عبد الملك بن مروان ما أنكر المسلمون على عثمان وفارقوه عليه، عسى أن تكون غافلاً فأذكرك، أو جاهلاً فأعرفك، فلا يحملنك هواء (هكذا) عثمان يا عبد الملك أن تكذب بآيات الله وتعرض عنها فإنه لا يغني عنك من الله شيء، فالله الله يا عبد الملك قبل التناوش من مكان بعيد، وقبل أن تكون لزاماً، وإنه كان مما طعن عليه المسلمون وفارقوه وفارقناه عليه، قال الله ﷻ: [ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم]⁽³⁾، وكان عثمان أول من منع مساجد الله أن يقص فيها كتاب الله، ومما نقمنا عليه وفارقناه أن الله ﷻ قال: [ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدونه وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين]⁽⁴⁾، فكان خيار هذه الأمة قد طردهم ونفاهم، فكان من نفى من أهل المدينة أبا ذر الغفاري ومسلم الجهني ونافع بن الحطام، ونفى من أهل الكوفة كعب وجندب بن زهير قاتل الساحر، ونفى عمر بن زرارة ويزيد بن صحوان وأسود بن دويج، ويزيد بن قيس الهمداني وكردوس بن الحضرمي في أناس كثير من أهل الكوفة، ونفى من أهل البصرة عامر بن عبد الله ومدعور العنبري ومن لا يستطيع عددهم من المؤمنين، ومما نقمنا عليه أنه أمر أخاه الوليد بن عقبة على الناس فكان يلعب بالسحر ويصلي بالناس سكران، فاسق في دين الله، وإنما أمره من أجل قرابته، ومما نقمنا عليه جعل المال دولة بين الأغنياء، وقد قال الله ﷻ: [كي لا يكون دولة بين الأغنياء]⁽⁵⁾، فبدل فيه كلام الله واتبع هواه، ومما نقمنا عليه أنه منع مواضع القطر وحماها لنفسه ولأهله ومنع الرزق الذي أنزله الله لعباده متاعاً لهم ولأنعامهم، وقد قال الله ﷻ: [قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون]⁽⁶⁾، ومما نقمنا أنه أول من تعدى في الصدقات، وقد قال الله: [إنما الصدقات للفقراء والمساكين] إلى قوله: [فريضة من الله والله عليم حكيم]⁽⁷⁾ وقال: [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن تكون لهم الخيرة في أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً]⁽⁸⁾ والذي أحدث عثمان منعه فرائض كان فرضها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ، وأنقض أهل بدر من عطاياهم ألف ألف، وكنز الذهب والفضة ولم ينفقها في سبيل الله، وقال الله ﷻ: [والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله

(1) سورة البقرة، آية 142.

(2) سورة السجدة، آية 22.

(3) سورة البقرة، آية 114.

(4)

(5) سورة الحشر، آية 7.

(6) سورة يونس، آية 59.

(7) نص الآية [إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم] سورة التوبة، آية 60.

(8) نص الآية [وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً]، سورة الأحزاب، آية 36.

فبشرهم بعذاب أليم، يوم تحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم⁽¹⁾ الآية، مما نقمنا عليه كان يضم كل ضالة إلى إبله ولا يردها ولا يعرفها، وكان يأخذها من الإبل والغنم إذا وجدها عند أحد، وإن كانوا قد أسلموا عليها، وكان لهم في حكم الله ما أسلموا عليه، وقد قال الله Y: [ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين]⁽²⁾، وقال: [ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم]⁽³⁾، ومما نقمنا عليه أنه أخذ خمس الله لنفسه وأعطى منه أقاربه، وكان ذلك تبديلاً لحكم الله وفرض الله الخمس [لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل] إلى قوله: [والله على كل شيء قدير]⁽⁴⁾، ومما نقمنا عليه منع أهل البحرين وأهل عمان أن يبيعوا شيئاً من طعامهم حتى يباع طعام الإمارة وذلك تحريم لما أحل الله [وأحل الله البيع وحرم الربو]⁽⁵⁾ (هكذا)، وكان من عمل عثمان أنه يحكم بغير ما أنزل الله، وقد خالف سبيل الله وسبيل صاحبيه، وقال الله: [ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً]⁽⁶⁾ وقال: [ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون] و[الكافرون] و[الفاسقون]⁽⁷⁾ وقال: [ألا لعنة الله على الظالمين]⁽⁸⁾، وقال: [ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً]⁽⁹⁾ وقال: [ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار]⁽¹⁰⁾ وقال: [وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون]⁽¹¹⁾، وكل هذه الآيات تشهد على عثمان وإنما شهدنا عليه بما شهدت عليه هذه الآيات، [والله يشهد بما أنزل إليكم أنزله بعلمه والملائكة (هكذا) يشهدون وكفى بالله شهيداً]⁽¹²⁾، فلما رأى المسلمون الذي أتى به عثمان من معصية الله والمؤمنون شهداء الله في الأرض ناظرون في أعمال الناس، وقال الله Y: [وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون]⁽¹³⁾ وترك خصومة الخصمين في الحق والباطل، ووقع ما وعد الله من الفتن، وقد قال الله Y: [ألم، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين]⁽¹⁴⁾ وعلم المسلمون أن طاعة عثمان على ذلك طاعة إبليس، فساروا إلى عثمان من أطراف الأرض واجتمعوا إليه، ملأ من المهاجرين والأنصار وعامة أزواج النبي ﷺ فأتوه فذكروه بالله وأخبروه بالذي أتى من معاصي الله، فزعم أن يعرف الذي يقولون أنه يتوب إلى الله Y منهو يراجع الحق، فقبلوا الذي أتاهم به من الاعتراف بالذنب والتوبة إلى الله Y ومراجعة الحق، وكان حقاً على أهل

(1) سورة التوبة، آية 34، [يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم، يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون].

(2) سورة الأعراف، آية 85.

(3) سورة النساء [يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً] آية 29.

(4) نص الآية [واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسته وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير] سورة الأنفال، آية 41.

(5) سورة البقرة، آية 275.

(6) سورة النساء، آية 115.

(7) سورة المائدة، آية 47.

(8) سورة هود، آية 18.

(9) سورة النساء، آية 52.

(10) سورة هود، آية 113.

(11) سورة النساء، آية 33.

(12) نص الآية [لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً] سورة النساء آية 166.

(13) سورة التوبة، آية 105.

(14) سورة العنكبوت، آية 3-1.

الإسلام إذا التقوا بالحق أن يقبلوه ويجامعوه ما استقام على الحق، فلما تفرقوا عنه نكث الذي عاهدهم عليه وعاد إلى أعظم من الذي تاب منه، فكتب إلى عماله في أدبارهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فلما ظهر المؤمنون على كتابه ونكثه العهود رجعوا إليه وقتلوه بحكم الله، وقد قال الله Y: [وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون]⁽¹⁾، وقد عمل بكتاب الله وجامع المسلمين زماناً ثم ارتد على عقبيه، وقد قال الله Y: [إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم]⁽²⁾، فهذا وأمثاله من خبر عثمان هو الذي فارقه عليه المؤمنون وفارقناه وطعنوا عليه فيه وطعننا نحن اليوم فيه، وذكرت كونه مع رسول الله ﷺ وخلته معه، فقد كان علي بن أبي طالب أقرب قرابة إلى رسول الله، وأعظم خلة وأقدم هجرة وأسبق إسلاماً، وأنت تشهد له بذلك وإنا بعد ذلك، فكيف كانت قرابته وخلته هل كانت نجاة إذا ترك الحق أم هلاكاً؟ واعلم أن علامة كفر هذه الأمة إذا تركوا الحكم بما أنزل الله وحكموا بغير ما أنزل الله [فمن أصدق من الله حكماً لقوم يوقنون]⁽³⁾، وقال: [فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون]⁽⁴⁾، فلا يغرنك يا عبد الملك بن مروان عز نفسك ولا تسند دينك إلى الرجال فإنهم يستدرجون من حيث لا يعلمون، فإن أملك الأعمال خواتيمها وكتاب الله جديد أبداً لا ينطق إلا بالحق، أجارنا الله باتباعه أن نبغي أو نضل، فاعتصم بحبل الله يا عبد الملك واعتصم بالله يهديك إلى صراط مستقيم، قال الله Y: [ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم]⁽⁵⁾ وكتاب الله هو حبل الله المتين الذي أمر المؤمنين أن يعتصموا به فقال: [واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا]⁽⁶⁾، فأنشذك الله أن تتدبر معاني القرآن، وتكون مهتدياً به مخلصاً به قال الله Y: [أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها]⁽⁷⁾.

وأما قولك في معاوية أن الله قام معه وعجل نصره وبلغ حجته وأظهره على عدوه بالطلب لدم عثمان، فإن كنت تعتبر الدين من قبل الدولة والغلبة في الدنيا فإننا لا نعتبره من قبل ذلك، فقد ظهر المسلمون على الكافرين وقال: [وذلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين ولیمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين]⁽⁸⁾، وانظر ما أصاب المؤمنين من المشركين يوم أحد، وانظر كيف ظهر قتلة ابن عفان عليه وعلى شيعته يوم الدار، وظهر علي على أهل البصرة وهم شيعة عثمان، وظهر المختار على زيد وأصحابه وهم شيعة، وظهر معصب على المختار، وظهر أهل الشام على أهل المدينة، وظهر الزبير على أهل الشام بمكة، فلا تعتبر الدين ممن قبل الدولة، فقد يظهر الناس بعضهم على بعض، فقد أعطى اله فرعون ملكاً وظهر في الأرض، وأعطى الذي حاج إبراهيم في ربه ملكاً، ثم إن معاوية إنما اشترى الإمارة من الحسن بن علي، ولم يف له بما اشترطه عليه وعاهد الله العظيم ليوفين له، وقد قال الله Y: [ولا تتقضوا الأيمان بعد توكيدها]⁽⁹⁾ الآية ولا تسئل (هكذا) عن معاوية وعن صناعته غيري لأنني قد أدركته ورأيت عمله وسيرته، ولا أعلم من الناس أحداً ترك للقسمة التي

(1) سورة التوبة، آية 12.

(2) سورة محمد، آية 25.

(3) نص الآية [أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون] سورة المائدة، آية 50.

(4) سورة الجاثية، آية 6.

(5) سورة آل عمران، آية 101.

(6) سورة آل عمران، آية 103.

(7) سورة محمد، آية 24.

(8) سورة آل عمران، آية 140-141.

(9) نص الآية [وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تتقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون]، سورة النحل، آية

قسمها الله ولا لحكم حكمه الله ولا أسفك لدم حرمه الله منه فلو لم يصب من البلاء إلا دم ابن سمية لكان فيه ما يكفره، ثم استخلف ابنه يزيد فاسقاً لعيناً كافراً شارباً للخمر، فيكفيه من الشر، فلا يخفى عمل معاوية ويزيد على كل عاقل، فاتق الله يا عبد الملك ولا تخادع نفسك في معاوية، فقد أدركنا أهل بيتكم يطعنون في معاوية ويزيد ويعيبون فيما عليهما كثيراً فما (هكذا) يصنعون، فمن يتول عثمان ومن معه فإني أشهد الله وملائكته أنني منهم بريء، أعداء لهم بأيدينا وألسنتنا وقلوبنا، نعيش على ذلك ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه إذا بعثنا، ونحاسب بذلك عند الله، وكتب (هكذا) إلي تعذرني في الغلو في الدين، أعوذ بالله من الغلو، وسأبين لك ما الغلو في الدين إذا جهلته، والغلو في الدين أن يقال على الله غير الحق ويعمل بغير كتاب الله الذي بين، وسنة نبيه التي سن، وقال الله: [يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق]⁽¹⁾، وقال: [يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق]⁽²⁾، كما على عثمان والأئمة بعده وأنت بعد على سبيلهم وطاعتهم تجامعهم على معصية الله وتتبعهم، وقد اتبعوا أهواءهم واتبعتهم أنت عليها، وقال الله Y: [ولا تتبعوا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل]⁽³⁾، فهؤلاء أهل الغلو في الدين فليس من غضب لله حين عصي ورضي بحكم الله ودعا إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه وسنة المؤمنين بعد بغال في الدين، وكتبت إليّ تعرض بالخوارج وتزعم أنهم يغلون في دين الله ويتبعون غير سبيل المؤمنين، ويفارقون أهل الإسلام، وأنا أبين لك سبيلهم، هم أصحاب عثمان الذين أنكروا عليه ما أحدث من بدعة وفارقوه حين ترك حكم الله، وهم أصحاب الزبير وطلحة حين نكثوا وأصحاب معاوية حين بغى، وأصحاب علي حين بدل كتاب الله وحكم عبدالله بن قيس وعمرو بن العاص، فهم فارقوا هؤلاء كلهم وأبوا أن يفرقوا بحكم البشر دن حكم الله، فهم لمن بعدهم أشد عداوة وأشد مفارقة، كانوا يتولون في دينهم وسنة نبي الله P وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويدعون إلى سبيلهم ويرضون على ذلك، كانوا يخرجون واليه يدعون وعليه يفارقون، وقد علم من عرفهم وعرف حالهم أنهم كانوا أحسن عملاً وأشد قتالاً في سبيل الله، هذا خبر الخوارج شهد الله والملائكة أنا لمن عاداهم أعداؤنا ولمن والاهم أولياؤنا بألسنتنا وأيدينا وقلوبنا، نعيش على ذلك ما عشنا ونموت عليه إذا متنا ونبعث عليه عند ربنا، أنا براء إلى الله من ابن الأزرق وصنيعه وأتباعه، لقد كان حين خرج على الإسلام فيما ظهر لنا ولكنه أحدث وارتد وكفر بعد إسلامه فنبأ إلى منهم.

وأنت كتبت إلي أن أكتب إليك بجواب كتابك واجتهد لك في النصيحة، وذكررتني بالله وأفضل ما ذكررتني به أن قلت: [إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب]⁽⁴⁾ الآية، [وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لنبينه للناس ولا تكتمونه] فقد بينت لك وأخبرتكم خبر الأمة، وكان حقاً عليّ أن أنصح لك، فإن الله لم يتخذني عبداً لأكفر به ولا أن أخادع الناس بشيء ليس في نفسي وأخالف إلى ما أنهى عنه، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه P لتحل (الحلال) وتحرم الحرام، ولا تظلموا الناس شيئاً، وأن يكون كتاب الله حكماً بيني وبينكم فيما اختلفنا فيه، وأن نتولى من تولى الله وأن نبرأ ممن تبرأ الله منه، وأن نطيع من أمر الله بطاعته، ونعصي من أمر الله بمعصيته في كتابه، فهذا الذي أدركنا عليه نبينا P، وأن هذه الأمة لم تسفك

(1) سورة النساء، آية 171.

(2) سورة المائدة، آية 77.

(3) سورة المائدة، آية 77.

(4) نص الآية [إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون]، سورة البقرة، آية 159.

دماً إلا حين ترك كتاب الله وسنة نبيه، وقد قال الله Y: [وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب]⁽¹⁾ والقرآن هو السبيل الواضح الذي هدى الله به من كان قبلنا محمد وأصحابه الخليفين الصالحين، ولا يضل من اتبعه ولا يهتدي من تركه، وقال: [وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله]⁽²⁾، فاحذر أن تتفرق بك السبل وتتبع هواك فإن الناس إنما يتبعون في الدنيا والآخرة إمامين: إمام هدى وإمام ضلالة، فإمام الهدى الذي يتبع كلام الله ويقسم بقسمة الله ويحكم بحكم الله وهو الذي قال Y: [وجعلناكم أئمة يهدون بأمرنا]⁽³⁾، وهؤلاء هم الأئمة الذين أمر الله بطاعتهم، ونهى عن معصيتهم.

وأما أئمة الضلالة فهم الذين يحكمون بغير ما أنزل الله ويقسمون بغير قسمة الله، ويتبعون أهواءهم بغير سنة من الله، فهؤلاء الذين قال الله Y فيهم: [وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون]⁽⁴⁾، وفيهم قال: [ولا تطع الكافرين وجاهدكم به جهاداً كبيراً]⁽⁵⁾ وقال: [ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه]⁽⁶⁾، وهذا كتابنا ينطق عليكم بالحق، فماذا بعد الحق إلا الضلال، فلا تضربن عنك الذكر صفحاً، ولا تشكن في كتاب الله، وقد كتبت إلي بمرجوع كتابك فأشددك الله لما قرأته وأنت مشغول حتى تتفرغ له وتدبر معانيه، وتتظر فيه بعين البصيرة، واكتب إليّ جواب كتابي إن استطعت، وانزع إليّ بالشواهد من كتاب الله والبينة منه، فاصدق بذلك قولك، ولا تعرض لي بالدنيا فإنه لا رغبة لي في الدنيا، وليست من حاجتي، ولكن لتكون نصيحتك لي في الدين ولما بعد الموت، فإن ذلك أفضل النصيحة، والله قدير أن يجمع بيننا وبينك على الطاعة فإنه لا خير فيمن لم يكن على طاعة الله، وبالله التوفيق وفيه الرضا، والسلام عليك.

البرادي. الجواهر المننقة، ص 156-167

(1) سورة الشورى، آية 10.

(2) سورة الأنعام، آية 153.

(3) سورة الأنبياء، آية 73.

(4) سورة القصص، آية 41.

(5) نص الآية [فلا تطع الكافرين وجاهدكم به جهاداً كبيراً] سورة الفرقان، آية 52.

(6) سورة الكهف، آية 28.

المصادر والمراجع:

المصادر المخطوطة:

- 1- ابن عبدالسلام، جعفر بن أحمد (توفي أواخر القرن الحادي عشر الهجري)، إبانة المناهج في نصيحة الخوارج، دار الكتب المصرية، رقم 25499ب.
- 2- ابن عطية، شبيب (عاش في القرن الثاني الهجري)، سيرة شبيب، دار الكتب المصرية رقم 22298ب.
- 3- أبو زكريا يحيى بن أبي بكر (توفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري)، السيرة وأخبار الأمة، دار الكتب المصرية، رقم 9030ح.
- 4- أبو عبيدة، مسلم بن أبي كريمة التميمي (توفي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري)، رسالة في أحكام الزكاة، دار الكتب المصرية، رقم 21582ب.
- 5- الأزدي، جابر بن زيد، جوابات، الخزانة البارونية في جزيرة جربة في تونس (استفت من صورة مصورة تفضل علي بها صديق مغربي، وأعارني إياها لساعات محدودة).
- 6- الأزكوي، سرحان بن سعيد، (عاش في القرن الحادي عشر الهجري)، كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، مخطوطة المكتبة البريطانية رقم OR 8076.
- 7- البرادي رسالة فيها تقييد كتب أصحابنا، دار الكتب المصرية رقم 21791ب.
- 8- البلاذري، أحمد بن يحيى (ت279هـ)، أنساب الأشراف، المكتبة السليمانية في تركيا رقم 598.
- 9- الجيظالي، إسماعيل بن موسى (ت750هـ) شرح قواعد الإسلام، دار الكتب المصرية، رقم 22067ب.
- 10- الحضرمي، أبو إسحاق إبراهيم بن قيس (توفي في القرن الخامس الهجري)، مختصر الخصال، دار الكتب المصرية رقم 21591ب.
- 11- الخراساني، أبو غانم (توفي في القرن الثاني الهجري)، المدونة، دار الكتب المصرية رقم 21582ب.
- 12- الدرجيني، أبو العباس أحمد (توفي في القرن السابع الهجري)، طبقات الإباضية، دار الكتب المصرية رقم.
- 13- الرقيشي، أحمد بن عبدالله (توفي في القرن العاشر الهجري)، مصباح الظلام، دار الكتب المصرية رقم 20549ب.
- 14- السوفي، أبو عمر عثمان بن خليفة (توفي أواخر القرن السادس الهجري)، شرح السؤالات، دار الكتب المصرية رقم 21789ب.
- 15- الشطي، محمد (توفي في القرن التاسع الهجري)، الجمان في أخبار الزمان، دار الكتب المصرية رقم 1416تاريخ.
- 16- الشماخي، أبو العباس أحمد بن سعيد (ت928هـ) شرح مقدمة أصول الفقه، دار الكتب المصرية رقم 21587ب.

- 17-الشمأخي، أأمد بن سعيد (ت928هـ)، شرح مقدمة التوحيد، دار الكتب المصرية رقم 22572ب.
- 18-الصائغي، سالم بن سعيد، كنز الأديب وسلافة اللبيب، مخطوط مكتبة جامعة كمبردج رقم.
- 19-عمروس بن فتح، أصول الدينونة الصافية، الخزانة البارونية في جزيرة جربة في تونس.
- 20-العوتبي، مسلمة بن مسلم الصحاري (توفي في القرن الخامس الهجري) أنساب العرب، دار الكتب المصرية رقم 2461تاريخ.
- 21-العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت855هـ) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، دار الكتب المصرية رقم 1584تاريخ.
- 22-الفراهيدي، الربيع بين حبيب (ت170هـ) مسند الربيع، دار الكتب المصرية رقم 21582ب.
- 23-القلهاتي، أبو عبدالله محمد بن سعيد الأزدي (توفي في القرن الثاني عشر الهجري)، الكشف والبيان، المكتبة البريطانية رقم.
- 24-المحروقي، درويش بن جمعة بن عمر، كتاب الدلائل والوسائل، المكتبة البريطانية رقم.
- 25-المغربي، ابن حيون (ت363هـ) المجالس والمسائرات، جامعة القاهرة رقم 26060ب.
- 26-مؤلف مجهول، غرر السير، مكتبة بودلين في أكسفورد رقم DORVILLE 542
- 27-مؤلف مجهول، قطعة من كتاب الأديان، دار الكتب المصرية، رقم 2298ب.
- 28-مؤلف مجهول، محاوراة بين شيعي وخارجي في شأن الشيخين أبي بكر وعمر وشأن الحكمين وما قيل في ذلك، دار الكتب المصرية رقم 19882ب.
- 29-الناصرى، عثمان بن عبدالعزيز (ت1259) منهاج المعارج لأخبار الخوارج، دار الكتب المصرية رقم 2144تاريخ - تيمورية.
- 30-الوارجلاني، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، الدليل لأهل العقول، المكتبة البريطانية رقم OR 6504.
- 31-الوسيانى، أبو الربيع (ت471هـ)، سير أبي الربيع، دار الكتب المصرية رقم 9113ح.

المصادر المطبوعة:

- 1- ابن الآبار، محمد بن عبدالله (ت658هـ)، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963م.
- 2- ابن أبي الحديد، عبد الحميد هبة الله (ت655هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، 1959-1964م.
- 3- ابن أبي دينار، أبو عبدالله محمد بن القاسم (عاش في القرن الحادي عشر الهجري)، المؤنس في أخبار أفريقية وتونس، تحقيق محمد شمام، تونس 1967م.

- 4- ابن أعثم، أحمد (ت314هـ)، كتاب الفتوح، مخطوطة مكتبة أحمد الثالث، استنبول، رقم 2956، (طبع ثلاثة أجزاء منه في حيدر أباد 1968-1969م).
- 5- ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد (ت606هـ) النهاية في غريب الحديث، القاهرة، 1963م.
- 6- ابن الأثير، عز الدين على بن محمد، (ت630هـ)، الكامل في التاريخ، ليدن 1857-1869م، الباب في تهذيب الأنساب، القاهرة، 1357-1369م، أسد الغابة في تمييز الصحابة، القاهرة، 1258هـ.
- 7- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت597هـ) سيرة عمر بن الخطاب، مصر (بلا تاريخ).
- 8- ابن الجوزي، عبدالرحمن بن علي (ت597هـ)، سيرة عمر بن الخطاب، مصر (بلا تاريخ).
- 9- ابن حبيب، محمد (ت245هـ)، المنمق، حيدر أباد، 2964م، المحبر، حيدر أباد، 1942م.
- 10- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، (ت456هـ) أنساب العرب، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، 1962م.
- 11- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي، الفصل في الملل والنحل، مصر، 1317-1320هـ.
- 12- ابن تغري بردي، يوسف (ت874هـ)، النجوم الزاهرة، القاهرة، 1929م.
- 13- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (ت852هـ) تهذيب التهذيب، حيدر أباد (1329-1321هـ)، لسان الميزان، 1322.
- 14- ابن حوقل، أبو القاسم النصيبي (ت367هـ)، المسالك والممالك، ليدن، 1872م.
- 15- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت804هـ)، كتاب العبر، بيروت، 1956م، بولاق، 1847م، المقدمة، بيروت، 1961، بولاق، 1920م.
- 16- ابن خلكان، أحمد بن محمد (ت681هـ)، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1971م.
- 17- ابن دريد، محمد بن الحسن (ت321هـ)، الاشتقاق، القاهرة، 1958م.
- 18- ابن سعيد، محمد (ت210هـ)، الطبقات، ليدن، 1905م.
- 19- ابن سعيد، علي بن موسى، (ت673هـ)، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، 1955م.
- 20- ابن عبدالبار، يوسف بن عبدالله (ت463هـ)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، حيدر أباد، 1318هـ.
- 21- ابن عبدالحكم، عبدالله (ت214هـ)، سيرة عمر بن عبدالعزيز، تحقيق أحمد عبيد، دمشق، 1964م.

- 22- ابن عبدالحكم، عبدالرحمن بن عبدالله، (ت259هـ)، فتوح مصر، نيوهايفن 1922م.
- 23- ابن عبدربه، أحمد بن محمد (ت328هـ)، العقد الفريد، القاهرة، 1940م.
- 24- ابن عذارى، أبو عبدالله محمد (توفي في الثلث الأول من القرن الثامن الهجري)، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، بيروت، 1950م.
- 25- ابن عساكر، علي بن حسن (ت571هـ) تاريخ دمشق، مخطوط المكتبة الظاهرية بدمشق رقم 531 عام و205 أدب.
- 26- تاريخ دمشق، الجزء الأول، دمشق، 1951م، الجزء الثاني، القسم الأول، دمشق، 1954م، الجزء العاشر، دمشق 1963م.
- 27- ابن عساكر، علي بن حسن (ت571هـ) تهذيب التاريخ الكبير، دمشق، 1330-1351هـ.
- 28- ابن الفقه الهمداني، أحمد (ت نحو عام 289هـ) كتاب البلدان، ليدن 1885م.
- 29- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت276هـ)، عيون الأخبار، القاهرة، 1925-1930م.
- 30- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم (ت276هـ)، المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة، 1960م.
- 31- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت774هـ)، البداية والنهاية، القاهرة، 1932م.
- 32- ابن المرتضى، أحمد بن يحيى الزيدي، (ت840هـ)، طبقات المعتزلة، بيروت 1961م.
- 33- ابن النديم، محمد بن إسحاق، (ت235هـ)، الفهرست، القاهرة، 1383هـ.
- 34- أبو داود، سليمان بن الأشعث، (ت275هـ)، سنن، القاهرة 1952م.
- 35- أبو العرب، محمد بن أحمد بن تميم القيرواني (ت333هـ)، طبقات علماء أفريقية وتونس، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس 1968م.
- 36- أبو الفداء، إسماعيل بن علي (ت732هـ)، المختصر في أخبار البشر، إستانبول، 1268م.
- 37- أبو الفرج، علي بن الحسين الأصبهاني، (ت356هـ)، الأغاني 20 جزء (بولاقي) 1285-1284هـ، الجزء الحادي والعشرون، ليدن، 1306هـ، الفهارس، ليدن، 1900م.
- 38- أبو نعيم، أحمد بن عبدالله (ت340هـ)، حلية الأولياء، القاهرة، 1932-1938م.
- 39- أبو نعيم، أحمد بن عبدالله (ت240هـ)، دلائل النبوة، حيدر أباد، 1950م.
- 40- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم، (ت182هـ)، الخراج، القاهرة، 1392هـ.
- 41- الأزدي، أبو زكريا يزيد بن محمد، (ت334هـ)، تاريخ الموصل، تحقيق علي حبيبه، القاهرة، 1967م.
- 42- الأشعري، علي بن إسماعيل (ت330هـ)، مقالات الإسلاميين، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، 1369هـ.

- 43-الأزكوي، سرحان بن سعيد، (ت في القرن الثامن عشر الميلادي)، تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبدالمجيد حسيب القيسي، أبو ظبي، 1976م.
- 44-الباروني، عبدالله بن يحيى، سلم العامة والمبتدئين، القاهرة، 1324هـ.
- 45-الباقلاني، محمد بن الطيب، (403هـ)، التمهيد في الرد على الملحدة والمعتلة والرافضة والخوارج والمعتزلة، تحقيق أبو ريذة ومحمود الحصري، القاهرة، 1947م.
- 46-البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت256هـ)، الصحيح، مصر 1315هـ.
- 47-البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي، (ت256هـ)، التاريخ الكبير، حيدر آباد، 1382هـ.
- 48-البرادي، أبو القاسم بن إبراهيم (ت697هـ)، الجواهر المنتقاة، طبعة حجرية، القاهرة، 1884م.
- 49-البغدادي، عبدالقادر بن طاهر (ت429هـ)، الفرق بين الفرق، بيروت، 1973م.
- 50-الجاحظ، عمرو بن بحر (ت225هـ)، البيان والتبيين، القاهرة، 1927م، الحيوان، القاهرة، 1938-1945م، العثمانية، القاهرة، 1958م.
- 51-الجهشاري، محمد بن عبدوس، (ت331هـ) الوزراء والكتاب، القاهرة، 1357هـ.
- 52-حاجي خليفة، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون، طهران، 1975م.
- 53-الحميري، نشوان بن سعيد (ت573هـ) منتخبات في أخبار اليمن، ليدن، 1916م.
- 54-الحميري، رسالة الحور العين، القاهرة، 1947م.
- 55-الحنفي، أبو محمد عثمان بن عبدالله، الفرق المفترقة بين أهل الزيغ والزندقة، أنقرة، 1961م.
- 56-الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت461هـ) تاريخ بغداد 1931م.
- 57-خليفة بن خياط (ت240هـ)، كتاب الطبقات، بغداد، 1967م، دمشق، 1966-1967م، كتاب التاريخ، دمشق، 1967م، النجف، 1967م.
- 58-الذهبي، محمد بن أحمد (ت748هـ) سير أعلام النبلاء، الجزء الأول، تحقيق صلاح الدين المنجد، ذخائر العرب، رقم 19، القاهرة، 1956م، الجزء الثاني، تحقيق إبراهيم الأنباري، القاهرة، 1957م، الجزء الثالث، تحقيق محمد أسعد طلس، القاهرة، 1962م.
- 59-الذهبي، محمد بن أحمد (ت748هـ)، العبر في خبر من غبر، الجزء الأول تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، 1960م، الجزء الثاني، تحقيق فؤاد سيد، الكويت 1961م، الجزء الثالث، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، 1961م، الجزء الرابع، تحقيق المنجد، الكويت، 1963م، الجزء الخامس، تحقيق المنجد، الكويت، 1966م.
- 60-الذهبي، ميزان الاعتدال، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، 1963م.
- 61-الذهبي، تذكرة الحفاظ، حيدر آباد، 1334هـ.

- 62-الذهبي، تاريخ الإسلام، القاهرة، 1367-1369هـ.
- 63-الرازي، أبو حاتم أحمد بن حمدان، الزينة في الكلمات الإسلامية، تحقيق عبدالله السامرائي، بغداد، 1972م.
- 64-الرازي فخر الدين (ت606هـ)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، القاهرة، 1938م.
- 65-الربيع بين حبيب (توفي في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري)، الجامع الصحيح، القدس، 1381هـ.
- 66-الزبير بن بكار، (ت256هـ)، جمهرة نسب قریش، بيروت، 1966م.
- 67-الزبيری، مصعب بن عبدالله، (ت236هـ)، نسب قریش، القاهرة، 1953م.
- 68-السرخسي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت490هـ)، كتاب المبسوط، القاهرة، 1324هـ.
- 69-الشماخي، أحمد بن سعيد، (ت928هـ)، كتاب السير، طبعة حجرية، القاهرة، 1884م.
- 70-الشهرستاني، محمد بن عبدالكريم (ت548هـ)، الملل والنحل، القاهرة، 1961م.
- 71-الضبي، أحمد بن يحيى (ت599هـ)، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، مدريد، 1884م.
- 72-الطبري، محمد بن جعفر (ت310هـ)، تاريخ الرسل والملوك، ليدن، 1881م، القاهرة، 1968-1960م.
- 73-القيرواني، الرقيق (ت417هـ)، تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، 1968م.
- 74-الكتبي، محمد بن شاكر (ت764هـ)، فوات الوفيات، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1974-1973م.
- 75-الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف (ت350هـ)، الولاة والقضاة، ليدن، 1912هـ، كتاب القضاة، باريس، 1908م، كتاب ولاة مصر، بيروت، 1959م.
- 76-المالكي، أبو بكر عبدالله (ت438هـ)، رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1951م.
- 77-المالكي، أبو الحسن عيل بن محمد الربيع (ت444هـ)، فضائل الشام، تحقيق صلاح الدين المنجد دمشق، 1950م.
- 78-الماوردي، أبو الحسن لعي بن محمد (ت450هـ)، الأحكام السلطانية، مصر، 1386م.
- 79-المبرد، محمد بن يزيد، (ت285هـ)، الكامل في اللغة.
- 80-المراكشي، عبدالواحد، (عاش في القرن السابع الهجري)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، القاهرة، 1963م.
- 81-المسعودي، علي بن الحسين (ت345هـ)، مروج الذهب، باريس، 1873م.
- 82-المسعودي، علي بن الحسين (ت345هـ)، التنبيه والإشراف، ليدن، 1894م.
- 83-مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج (ت261هـ)، صحيح مسلم، مصر، 1374هـ.

- 84-المقدسي، شمي الدين محمد بن أحمد، (ت في القرن الرابع الهجري)، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، 1877م.
- 85-المقري، أحمد بن محمد (ت1041هـ)، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968م.
- 86-المنقري، نصر بن مزاحم، (ت212هـ)، وقعة صفين، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، 1382هـ.
- 87-مؤلف مجهول، تاريخ الخلفاء، موسكو، 1967م.
- 88-مؤلف مجهول، العيون والحدائق، ليدن، 1869م.
- 89-مؤلف مجهول، نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، الرباط، 1934م.
- 90-النويري، أحمد بن عبدالوهاب (ت732هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب، القاهرة، 1923-1955م، الجزء الثاني والعشرون، غرناطة، 1917م.
- 91-النووي، أبو زكريا يحيى (ت676هـ)، تهذيب الأسماء، تحقيق وستفيلد جوتجن، 1842م.
- 92-الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت334هـ)، الإكليل، الجزء الأول القاهرة، 1963م، الجزء الثامن، بغداد، 1931م، الجزء العاشر، القاهرة، 1368هـ.
- 93-الهمداني، صفة جزيرة العرب، ليدن، 1884-1891م.
- 94-الوارجلاني، أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم، الدليل والبرهان، طبعة حجرية، القاهرة، 1306هـ.
- 95-ياقوت الحموي، (ت626هـ)، معجم البلدان، ليبزغ، 1866-1873م.
- 96-يحيى بن آدم، (ت203هـ)، الخراج، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة، 1384هـ.
- 97-اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب (ت284هـ)، تاريخ، ليدن، 1883م، البلدان، ليدن، 1860م.

المراجع العربية:

- 1- أبو زهرة، محمد، المذاهب الإسلامية، القاهرة، 1959م.
- 2- أطفيش، محمد بن يوسف، رسالة شافية في بعض التواريخ، طبعة حجرية، الجزائر، 1299هـ.
- 3- أطفيش، محمد بن يوسف، الإمكان فيما جاز أن يكون أو كان، طبعة حجرية، الجزائر، 1304هـ.
- 4- أطفيش، محمد بن يوسف، شرح كتاب النيل، بيروت، 1972م.
- 5- أمين، أحمد، فجر الإسلام، القاهرة، 1928م.
- 6- الباروني، النفوسي، عبدالله، الأزهار الرياضية، تونس (بلا تاريخ).

- 7- البكري، صلاح، تاريخ حضرموت السياسي، القاهرة، 1956م.
- 8- الجنابي، كاظم، تخطيط مدينة الكوفة، بغداد، 1967م.
- 9- الحارثي، سالم بن حمد، العقود الفضية في أصول الإباضية، دار البقعة العربية في سوريا ولبنان (بلا تاريخ).
- 10- الحامد، صالح، تاريخ حضرموت، بيروت، 1968م.
- 11- حركات، إبراهيم، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، 1965م.
- 12- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي والاقتصادي، القاهرة، 1953م.
- 13- حسن، علي إبراهيم، التاريخ الإسلامي العام، القاهرة، 1963م.
- 14- حسين، طه، الفتنة الكبرى، دار المعارف بمصر (بلا تاريخ).
- 15- الخربوطي، علي حسني، تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي، القاهرة، 1959م.
- 16- الدباغ، مصطفى مراد، جزيرة العرب، بيروت، 1963م.
- 17- دبوز، محمد علي، تاريخ المغرب الكبير، القاهرة، 1963م.
- 18- الدجيلي، محمد رضا حسن، فرق الأزارقة، النجف الأشرف، 1973م.
- 19- دكسن، عبد الأمير، الخلافة الأموية، بيروت، 1974م.
- 20- الدوري، عبدالعزيز، مقدمة في تاريخ صدر الإسلام، بيروت، 1960م.
- 21- الدوري، عبدالعزيز، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بيروت، 1960م.
- 22- الراوي، ثابت بن إسماعيل، تاريخ الدولة العربية، بغداد، 1970م.
- 23- الرئيس، فهد ضياء الدين، النظريات السياسية الإسلامية، القاهرة، 1967م.
- 24- الزاوي، الطاهر أحمد، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، القاهرة، 1963م.
- 25- الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، 1970م.
- 26- زلوم، عبدالقادر، عمان والإمارات السبع، بيروت، 1963م.
- 27- السالم، السيد عبدالعزيز، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، بيروت، 1962م.
- 28- السالمي، عبدالله بن حميد، تحفة الأعيان، الطبعة الخامسة، الكويت، 1974م.
- 29- السالمي، عبدالله بن حميد، اللعة المرضية، 1368هـ.
- 30- السالمي، عبدالله بن حميد، شرح الجامع الصحيح، الجزأين الأول والثاني، القاهرة، 1326هـ، الجزء الثالث، تحقيق عز الدين التتوخي، دمشق، 1963م.
- 31- السالمي، محمد بن عبدالله، نهضة الأعيان بحرية عمان، القاهرة، (بلا تاريخ).
- 32- السلاوي، أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954م.

- 33-السيابي، سالم، إسعاف الأعيان بسيرة أهل عمان، بيروت، 1965م.
- 34-العبادي، أحمد مختار، في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت، 1971م.
- 35-عباس، إحسان، شعر الخوارج، بيروت، 1974م.
- 36-عباس، إحسان، تاريخ ليبيا، بيروت، 1967م.
- 37-مخطوطة الأزكوي، مجلة المؤرخ العربي، عدد2، 1957م.
- 38-عبد الحميد، سعد زغلول، تاريخ المغرب العربي، القاهرة، 1967م.
- 39-عبد الحميد، عرفان، دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، بغداد، 1967م.
- 40-عبدالرزاق، محمود بن إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب، الدار البيضاء، 1976م.
- 41-عبدالمطلب، رفعت فوزي، الخلافة والخوارج في المغرب العربي، القاهرة، 1973م.
- 42-عبد الوهاب، حسن حسني، ورقات في الحضارات العربية بأفريقية، تونس، 1966م.
- 43-العقاد، عباس محمود، الديموقراطية في الإسلام، القاهرة، 1952م.
- 44-العلي، صالح أحمد، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، بغداد 1953م.
- 45-عدنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس، القاهرة، 1949م.
- 46-عدنان، محمد عبدالله، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة، القاهرة، 1954م.
- 47-الغرابي، علي، تاريخ الفرق الإسلامية، القاهرة، 1948م.
- 48-قلماوي، سهير، أدب الخوارج في العصر الأموي، القاهرة، 1945م.
- 49-كحالة، عمر، معجم قبائل العرب، دمشق، 1949م.
- 50-كحالة، عمر، معجم المؤلفين، دمشق، 1957م.
- 51-معمر، علي يحيى، الإباضية في موكب التاريخ، القاهرة، 1966م.
- 52-معمر، علي يحيى، الإباضية بين الفرق الإسلامية، القاهرة، 1976م.
- 53-المنجد، صلاح الدين، معجم المخطوطات، بيروت، 1962م.
- 54-مؤنس، حسين، فجر الأندلس، القاهرة، 1959م.
- 55-مؤنس، حسين، فتح العرب للمغرب، القاهرة، 1947م.
- 56-النجار، محمد، الدولة الأموية في الشرق، القاهرة، 1962م.
- 57-النشار، علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الإسكندرية، 1964م.

المراجع الأجنبية:

Arberry, A.J., The chester Beatly library, a hand book of the Arabic Manuscripts, Dublin, 1955.

Arnold, Thomas, The preaching of Islam, London, 1955. the Caliphate, London, 1967.
 Azmi, M.M, Studies in early Hadith Liteature, Buirut, 1963
 Brockelmann, C., History of the Islamic peoples, London, 1934
 Bosworth, C.E., The Islamic Dynasties(Islamic Surveys, No.5), Edinburgh, 1967
 Chejne, A., Succession to the rule of Islam Lahore, 1960
 Dennett,J., Le Djabal Nefousa, paris, 1935
 Dixon, A,A., The Umayyad Caliphate, London, 1971
 Fournel,Les Berberes. Paris, 1875-1881.
 Gabrieli, F., il Califfato di Hisham, Alexandria, 1935
 A short History of the Arabs, English translation by S. Attanasio, London, 1965
 Gibb, H.A.R., studies on the civilization of Islam, London 1969, Mohammedanism, Oxford, 1969.
 Coldziher, I., Muslim Studies, Vol. I, edited by S.M stern, translated by C.K. Barber and S.M Stern London, 1967, Vol. 2, edited by S.M. stern, translated, by C.R. Barber and S.M stern London, 1971
 Hitti, ph. K., the History of the Arabs, New york, 1964
 Holt, P. M., lambton, A. K.S. and B. lewis (eds.), the Cambridge History of Islam, Cambridge, 1970
 Holt, P.M., and lewis, B. (eds), Historians of the Middle East, London 1964
 Hopkins, Medieval Moslem government in Barbary until the 6th century of Hijra, London, 1958
 Huseini, Kshaq Musa, The life and works of Ibn Qutayba, Beirut, 1950
 Julien, andre, Histire do L'Afrique du Nord, Paris, 1931.
 Khadduri, Majid, War and peace in the law of Islam, Baltimore, 1960.
 Khleifat, A. M., The caliphate of Hisham b. Abd al-Malik, PH. D. thesis, London, 1973
 Lammens, H., Etudes sur le siecle des Omayyades, Beirut, 1930
 Lammens, H., Etudes sur le regne du Calife Omaiya Moawiya yer, London 1908
 Lane Poole, S., Catalogue of Muhemmadan coins in the British Museum, London. 1876
 Laternari, W., The Religions of the Oppressed. Trans. By Lisa Sergio, London. 1963
 Le Strange., The lands of the eastern Caliphate, Cambridge, 1930

- Levi-Provensal, Nukhab Tarikhiyya Jamia li Akhbar Al-Maghrib al- Aqsa (extracts from different sources Collected by levi- provensal), Sholoon, 1923
- Levy, R., The social Structure of Islam, Cambridge, 1969
- Lewicki, T., Etudes ibadites Nord Africaine,
- Lewis, B., The Arabs in History, London, 1968
- Mareis, G., La Berberie Musulmane it L'orient au moyen age., paris, 1946.
- Masqueray, E., Chronique D' Abu zakaria, Alger, 1873
- Miles, S.B., The Countries and Tribes of the Persian Gulf, London, 1966
- Motylinski, A. De. C., chronique D'Ibn Saghir Sur Les imans Rostimides de Tahert. Actes du 14 congres international des orientalistes, Alger, 1906
- Muir, M., the calihpate, Beirut, 1963
- Nicholson, R.A., A literary History of the Arabs, Cambridge, 1953
- Nickerson, J.S., A short History of North Africa, New york, 1968.
- Pellat, Ch., Le Milieu Basrien et de formation du Gahiz, Paris, 1953. (Arabic translation by Ibrahim al – Kaylani), Damascus, 1961.
- Peterson, E.E., ali and Muawiya, Copenhagen, 1964.
- Rossi, E., Storia Tripoli della tripolitania, pubblicazioni Dell' institute per L'oriente Nor, 60, Roma, 1963.
- Salem, E., The political Theory and Institutions of the Khawaridj, Baltimore, 1956
- Schacht, J., The Origins of Muhammadan Jurisprudence, London, 1967.
- Shaban, M.A., Islamic History, Cambridge, 1971
- Shaban, M.A., The Abbasid Revolution. Cambridge, 1970
- Tritton, A.S., The Caliphs and Their non-Muslim subjects, Oxford, 1930.
- Trtiton, A.S., islam, London, 1966
- Tyan, E., Institution du droit public Musulman, Beirut, 1956
- Van Vloten, G., Rechrcches sur la Domination Arab, Amsterdam 1894. (Arabic tranlation. By Hason Ibrahim Hasan), Cairo, 1965
- Watt, W.M., Free will and predestination, Edinburgh, 1962
- Watt, W.M., Islam and the integration of society, London, 1966.
- Watt, W.M., Islamic Political thought (Islamic Surveys No.6) Edinbrgh, 1968
- Wellhausen, J., Die Religios, Politischen opposition Spartein in alten Islam, Berlin, 1906. (Arabic translation by Abd al-Rahman Badawi), Cairo, 1958
- Wellhousen, J., The Arab Kingdom and its Fall, Beirut, 1963

Zambaur, E., Manuel de Genealogie et de chronologie pour L'Histoire de L'Islam, Hanover, 1927.

المقالات المنشورة باللغة العربية:

- 1- التطواني، محمد بن تاويت، «دولة الرستميين أصحاب تاهرت»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ج5، عدد1، 2 (1975م).
- 2- الجحاني، الحبيب، «تاهرت عاصمة الدولة الرستمية»، المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، السنة الثانية عشرة (1975م).
- 3- العبادي، أحمد مختار «سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس»، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، ج5، (1975م).
- 4- عبدالجليل، محمد بن «خلافة عثمان وعلي»، حولية الجامعة التونسية، عدد11، (1974م).
- 5- عمر، فاروق، «بيليوغرافيا في تاريخ عمان»، مجلة المورد، بغداد، عدد4، (1974م).
- 6- عمر، فاروق، «ملاحم من تاريخ حركة الخوارج الإباضية كما تكشفها مخطوطة الأركوي»، مجلة المؤرخ العربي، عدد2، (1975م).
- 7- الغنای، مراجع، «القوى المتصارعة في المغرب خلال القرن الثاني الهجري ودور ليبيا فيه»، مجلة كلية الآداب، جامعة بنغازي (1976م).
- 8- مؤنس، حسين، «ثورات البربر في أفريقية والأندلس»، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، (1948م).
- 9- النعيمي، سالم، «ظهور الخوارج»، مجلة المجمع العلمي العراقي، ج15، (1967م).

المقالات المنشورة باللغات الأجنبية:

- Allauche, I. S., "Deux epîtres de théologie abadite", Hesp. Vol.22 (1936), pp. 57-88.
- Dalli, A., "Bibliographie Ibadite", Revue Algerienne", (1943-45), part I, pp.39-40.
- Basset, R., "Les sanctuaires du Djabal Nefousa", Journal Asiatique (1899), pp. 423-470 and (1899), pp. 88-120.
- Bekri, C., "Le Kharijisme berbere", A.I.E.O. Vol. 15 (1957), pp. 55-108.
- Brunschvig, B., "Ibn Abd al-Hakamet la conquete de L'Afrique de nord par les Arabes", A.I. E.O., Vol. 6, pp. 108-155.
- Crupi la Rosa, G., "I trasmettitori della dottrina ibadita", A.I. C.N, N.S., 5 (1953), pp. 123-139.

- Ennami, A.K., "Description of New Ibadi Manuscripts from north Africa", J.S.S., Vol. 15, I (1970), pp. 63-87.
- Faroughy, A., "A Persian dynasty in North Africa, the Rustomids" Islamic Review, (1952).
- Fuck, J.W., "Imran b. Hittan", E.I (2)
- Gabriele, F., "Al poesia Harigita nel secolo degli omayyadi", R.S.O, Vol. 20 (1943), pp. 57-65
- Coichon, A.M., "La vie feminine au Mزاب", revue du monde Musulmane, Vol. 62 (1925)
- Heggoy< N.N., "the Mozabites of Algeria", M.W., Vol. 37, pp. 192-207.
- Hinds, M., "the murder of the caliph Uthman"
International Journal of Middle East
Studies, Vol. 3 (1972). 450-9.
- Hinds, M "Kufan political alignments and their
Background in the Mid- Seventh
Century" Ibid, Vol.2 (1971)pp.
436-67
- kafafi, M., : The rise of Kharijism according to Abu said Muhammad Said al- Azdi al- Qalhati", The Bulletin of the Faculty of Arts, Cairo Univ., Vol. 14 I (1952), pp. 29-48
- kumar, R., " British attitude towards the Ibadiyya revivalist movement in East Africa", Int. Studies, Vol. 3 (1962) p 443-450
- Lewicki, T., " Les subdivisions de L'Ibadiyya" , S.I, Vol 9 (1958), pp. 71-82.
- Lewicki, T., " the Ibadites in Arabia and Africa", J.W.H., Vol. 13, I (1971), pp. 51-130
" Une chronique Ibadit. Kitab as- Siyar
d'Abu'l- Abbas Ahmad as- Sammahi"
Revue des Etudes Islamiques (1934),
pp. 59-78.
- Lewicki, T., " Notice sur la chronique ibadite d'ad-
Dargini" Rocznik Orientalistyczny,
Vol. 11 (1936),pp. 146-172.
- Lewicki, T., " Les historiens, biographes et
traditionistes ibadites dans L'Afrique du Nord au
moyen-âge", Rocznik Orientalistyczny, Vol. 21 (1956) pp. 301-343.

- Lewicki, T., "Les ibadites en Tunisie au moyen age" *Accademia Polacca di Scienze lettere di*
- Lewicki, T., Roma: conferenze. Fasc. 6 (Roma, 1959) , pp. 6 ff.
- Lewicki, T., " Un document ibadite inedit sur L' emigration des Nafuse du Gabal", *Folis Orienfalia*, Vol. 2 (1960), pp. 214-6.
- Lewicki, T., " Les premiers commersants arabes en Chine", *Rocznik Orientalistyczny*, Vol. 11 (1936) pp 173-186.
- Lichenstadter, I., " Arabic and Istamic Historography", *M.W*, Vol. 5 (1945), pp. 126-132
- Marcy, G., " Le Dieu des Abadites et des Bargwata" *Hesp* Vol 22 (1963), pp. 33-56.
- Miles, GC., " Some new light on the History of Kirman in the first Century of Hijra", *W.O.I* (1959)
- Milliot, L., " Recueil de deliberation des djema'a du Mزاب", *Rev. Etud. Isl.*, Vol. 21 (1938), 117-230.
- Motylinshk, A. De. C., " Chronique d'Ibn Saghir sur les imams reotemides de Tahert" , *Actes du xlve congres international des Orientalistes* (Alger, 1905), Troisieme Partie(suite) : Langues musulmans (arabe, persan et ture)" (paris, 1908) pp. 3-132.
- Motyliniski, A. De. C., " L' Aqida des Abadhites", *Recueil de Memoires et de Textes Publies in L'honneur du xlv congres des orientalistes*, Algier (1905)
- Motyliniski, A. De. C. " Les manuscript arabe de zouagha" 14 cong, *Int. Or.* (1905) 2,4 section, pp. 79-92.
- Motyliniski, A. De. C., " Expedition de pedro de Navarre et de garcie do Toleda Cotre Djerba (1510) d'apres les sources abadhites" 14 Cong. *Int . or.* (1905),3, 3 section, pp. 133-159.
- Nallino, C. A., " Rapporti fra la dogmatica mu'tazilita e quella degli Ibaditi dell' Africa settentrionale". *R. S. O*, Vol.7 (1916-8),pp. 455-60.
- Pellat, CH., " al – Ahnaf b. kais" , *E.I* (2).
- Ross,E.C., " Annals of Oman", *J. As. Soc. Bengal*, Caluctta (1874).
- Ross, E. C., " Tenets of the Ibadhi sect of Oman", *J. As. Soc. Bengal* (1873).

- Rubiancci , R., “ The Ibadis” , in Religion in The Middle East, Vol .2 pp. 302-317
- Rubinacci, R., “il Califfo Abd al-Malik b. Marwan e gli Ibaditi”, A.I.O.N, (1953-6) pp.99-181.
- Rubinacci, R., “ La purita ritual secondo gli Ibaditi” , A.I.O.N, N.S., Vol. 6. (1964), pp. 1-41.
- Rubinacci, R., “ Notizia di alcuni manoscritti ibaditi presso L’ Istituto Universitario Orientali di Napoli”, A.I.O. N, N.S., Vol 3 (1949) pp. 431-38.
- Rubinacci, R., “Kjabir b. Zayd”, E.I(2)
- Rubinacci, R., “ al-Azariqa” E.I(2)
- Sachou, E., “ unber die religiousen Anschauungen der Ibadiischen Muammedianer in Oman und Ostafrika”, M.S.O.S, Vol. I, part 2 (1898) pp. 47ff
- schacht, J., “ Bibliothèques et manuscrits abadites”, Revue Africaine, Vol. 100 (1956) pp. 375-398.
- schacht, J., “ Notes mozabites”, al- Andalus, Vol. 22 (1957) pp 1-20.
- Schacht, J., “ A Revaluation of Islamic Traditions”, J.R.A.S (1949) pp. 143-154.
- Smith, P., “ The Ibadites”, M.W., Vol. 12 (1922) .
- Smith, G. R., “ The Omani Mss. Collection at Muscat” unpublished article Kindly given to me by the author .
- Smogorsewski, Z., “ Essai de Bio-bibliographie Ibadite-Wahbite”, Rocznik Orientalistyczny, Vol. 5 (1928)pp45-47
- Smogorsewshi, Z., “ un poeme abadite sur certaines divergences enter les Malikites et les Abadites”, Rocznik Orientalistyczny, Vol. 11 pp. 260-268.
- Strothmann, R., “ Berber und Inaditen”, Der Islam, Vol. 27 (1928), pp. 258-279
- Thomson, J., “ Khariyitsm and The kharijites” M.P.V., (1933) pp. 373-89.
- Vaglieri, V., “ Traduzione di passi riguardanti il coflitto Ali-muawiya e la secessione Kharigita”, Annali dell’ istituts Universitario Orientale di Napoli(1954)

- Van Ess, J., “Unter suchungen zu einigen ibaditischen Handschriften”, Z.D.M.G., Band 126, Heft I (1976), pp. 25-63
- Watt, M., “ Kharijite thought in the Umayyad period” D.I., Vol. 36 (1961). Pp. 215- 232.
- Wilkinson, j. C., “ The Ibdi Imama” B.S.O.A.S, Vol. 39 (1976) pp. 535- 51.
- Wilkinson, J. C., “ bio-bibliographical background to the crisis period in the Ibadi Imamate of Oman” Arabian Studies, Vol. 3, pp. 137-164.
- Wilkinson, J.C., “ Sources for the Early History of Oman”, Unpublished paper read in the first International Symposium on studies in the History of Arabia, University of Riyad, 1977
- Wilkinson, J. C., “ The origins of the Omani state”, in the Arabian Peninsula, ed by D. Hopwood, 1972, pp67-88.